سامي شورش

كردستان والأكراد: الحركة القومية والزعامة السياسية

إدريس بارزاني... نموذجاً

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – حي راپەرين – اربيل – كوردستان العراق

ص. ب: رقم ١

كُردستان والأكراد

الحركة القومية والزعامة السياسية

إدريس بارزاني... نموذجاً

سامي شورش

اسم الكتاب: كردستان والأكراد- الحركة القومية والزعامة السياسية. إدريس بارزاني... نموذجاً
تأليف: سامي شورش
من منشورات ئاراس رقم: ٨٢
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: دلاور صادق امين
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠١
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ٢٠٠١/٣١٧

الفهرست

توطئة عامة 7

الفصل الأول: 19

بارزان: المشيخة والتصوف والسياسة

- القرية: فضاءات التاريخ والجغرافيا 21
- عشيرة بارزان: التشكيل الأول 25
- الشيخ محمد: بذور التحولات الأولى 30
- الباني الأول: الشيخ عبدالسلام بارزاني 36
- بارزان: التسامح الديني 39
- الشيخ أحمد: إستمرار الإنتفاضات 45
- إنتفاضة عام ١٩٢٧ 49
- إنتفاضة ١٩٣٢-١٩٣٣ 55

الفصل الثاني 61

مصطفى بارزاني: التحول الأكبر

- الكُرد في مفترق الحرب العالمية الثانية 63
- إنتفاضة بارزان ١٩٤٣-١٩٤٥ 70
- البارزانيون في كُردستان إيران 77
- بارزاني بعد عودته الى العراق 81
- إيران والكُرد: المحطة الأولى 85
- إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠ 94

الفصل الثالث 105

إدريس بارزاني: النشأة والبدايات

- طفولة الكهف والمنفى 107
- تموز ١٩٥٨ وإنتفاضة ١٩٦١ 112
- معركة هندرين 117
- آذار ١٩٧٥: محطة سياسية رئيسة 123
- كُردستان: تجدد الحرب الدامية 133
- عودة الخلافات القديمة 142

الفصل الرابع 147

المحطة الأخيرة: المصالحة القومية

- إيران والكُرد والتحولات 149
- إعادة توحيد الصف القومي 155
- مأساة بارزانية أخرى 160
- جولة أخرى من العلاقات المتناقضة 163
- إدريس في عيون مرافقيه 170

خلاصة عامة 175

فهرست الأعلام 181

توطئة عامة

يتفق الكُرد على أن إدريس بارزاني، النجل الثالث للزعيم الراحل مصطفى بارزاني، يمثل في تاريخ حركتهم القومية الحديثة محطة بارزة على صعيد الزعامة السياسية والعسكرية. ويشير الباحثون والمتابعون الكُرد عند حديثهم عن المقطع الزمني الذي نشط فيه إدريس، وهو الحقبة الممتدة من منتصف العقد الستيني للقرن العشرين الى وفاته في مطلع عام ١٩٨٧، الى أنه كان بمثابة ضلع أساسي في مثلث الزعامة الكُردية في تلك الحقبة، الى جانب والده الراحل، مصطفى بارزاني الذي شغل المشهد السياسي الكُردي لأكثر من نصف قرن، وشقيقه الأصغر الرئيس الحالي للحزب الديموقراطي الكُردستاني مسعود بارزاني.

غير أن اللافت في هذه الصورة، أن الكُرد الذين يعرف عنهم الإحترام الشديد لقادتهم البارزانيين، لايشيدون بالدور السياسي والعسكري الذي لعبه إدريس في إحدى أعقد مراحل حركتهم القومية فحسب، بل يشيدون أيضاً بشخصيته الهادئة وتواضعه الجمّ وسلوكيته السياسية الراقية وجرأته في مواجهة الصعاب وشجاعته في تحمل تبعة الأخطاء ومسؤولياتها، إضافة الى آفاقه الثقافية وإحترامه الشديد للتنوع السياسي والإجتماعي في مجتمعه لجهة كثرة الأديان والطوائف والإثنيات في صفوفه.

في السياق نفسه، يلاحظ أن السلوكية العصرية التي طبعت شخصية إدريس، بما فيها منهجه في العمل السياسي، لم تتعارض مع هويته الجبلية وكونه سليل إحدى العائلات الدينية الكبيرة في كُردستان. بل على العكس، إستطاع هذا المتحدر من إنتفاضات الريف الجبلي والمترعرع في أحضان المدن، أن يجمع في تكوينه السياسي والثقافي بين قطبي العصرنة والريفية.

الى هذا، يلاحظ أن تلك السلوكية تعارضت الى حد لافت، مع التوترية الآيديولوجية الحادة التي طبعت، ولاتزال تطبع تجارب كثير من السياسيين في الشرق الأوسط على مختلف مشاربهم الفكرية وإنتماءاتهم القومية والسياسية.

واللافت، أن إدريس الذي مارس السياسة من منطق أخلاقي، ظلّ بعيداً عن توترية السياسة على رغم أن عائلته وعشيرته، بل وتجربته الشخصية منذ الطفولة، قليلاً ما إستراحت من حياة التوتر والمنافي والسجون والإنتفاضات المسلحة من ناحية، وصميم السياسة من ناحية أخرى.

الى ذلك كلّه، أكثر ما ميّز زمن إدريس، الى صراعاته وحروبه وتوتراته السياسية والإقتصادية والإجتماعية، تخمته بالآيديولوجيات المتشددة ولغة العواطف المنفعلة وفورانات الغضب، الثوري وغير الثوري. يذكر أن بعض أمثلة هذا الحال، تجسد في الفترة نفسها، في تشنجية الثورة لدى تشي جيفارا وفيدل كاسترو، وفوضويتها لدى طلاب أوروبا وشبابها، ودمويتها في سهوب آسيا ومستنقعاتها في فيتنام والصين وكمبوديا.

في إطار هذه التعقيدات، عاش الكُرد في كُردستان العراق حقبة بالغة الصعوبة والقتامة. وما فاقم من آلامهم القومية أن الدولة العراقية التي تمتعت بهامش ديموقراطي جدّ ضيّق في الشطر المحصور بين تأسيسها في مطلع العشرينات الى نهاية خمسينات القرن الماضي، سرعان ما تحولت في قوانينها ودساتيرها غير المتوازنة الى حاضنة طبيعية لتصاعد دور العسكر في الحياة السياسية.

وكان من شأن هذا، معطوفاً على الأجواء العالمية وأوضاع الشرق الأوسط، أن يفتح الباب واسعاً أمام تحول هذه الدولة الى وعاء هائل للديكتاتورية وتجييش المجتمع وتغييب الديموقراطية. وفي مراحل لاحقة الى نموذج نابذ لنفسه ولتكويناته الداخلية من جهة، ولفضائه المجاور والدولي من جهة أخرى. وكان الكُرد، وسط هذا العراق، مثالاً لأعقد قضية قومية في الشرق الأوسط والعالم.

والواقع أن تعقيدات هذه القضية لم تنبع من فداحة التضحيات والخراب والدماء التي سالت من الكُرد فحسب، بل نبعت، أيضاً، من الصعوبة الجيوسياسية البالغة التي أحاطت ببلادهم وقضيتهم القومية.

في هذا الزمن العراقي والإقليمي والدولي العصيب، المتأزم، الدموي، الحالك، تبوأ إدريس موقعاً رئيسياً ضمن مثلث الزعامة الكُردية العراقية

اعتباراً من عام ١٩٦٥. وإستطاع بمساعدة مباشرة من والده وشقيقه الأصغر، وبقية العناصر القيادية في الحزب الديموقراطي الكُردستاني، أن يمنح الحركة القومية الكُردية دفقاً كبيراً من القوة والإندفاع والإزدهار. وقد تجلت صفحات هذه القوة، في بعض صورها، في نمو إنتفاضة أيلول ١٩٦١ من نحو ثلاثة آلاف مقاتل (پيشمرگه) في ١٩٦٥ الى نحو خمسين الى مئة ألف مقاتل في ١٩٧٤ ومن حركة منسية في مطلع الستينات الى حركة شغلت موقعاً لافتاً في المشهد السياسي العالمي والإقليمي في النصف الأول من السبعينات. وكانت الحركة الكُردية في العراق بهذا العدد الكبير من مقاتليها وكوادرها وعناصرها وثقلها السياسي بمثابة أوسع حركة تحررية مسلحة تشهدها منطقة الشرق الأوسط طوال مئة عام.

هناك إنطباع مفاده أن إدريس وصل الى الزعامة نتيجة كونه نجل الزعيم الكُردي، ملا مصطفى بارزاني. لكن القلة في خارج الوسط الكُردي، تعرف أنه شغل موقعه عن جدارة لافتة. وأنه بدأ حياته السياسية مسؤولاً إدارياً في منطقة صغيرة تدرج بعدها في مراتب العمل العسكري والحزبي نتيجة جهده ومؤهلاته الشخصية. وكانت قيادته لمعركة هندرين في مايس ١٩٦٦، ودوره الحيوي في المفاوضات السياسية التي أدت الى توقيع إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠ مع الحكومة العراقية، أمثلة ساطعة على قدراته القيادية. أما كونه نجل الزعيم الكُردي الراحل، فلم يساعده سوى في إكتساب خبرة أوسع ومعرفة أدق بتفاصيل الحياة السياسية وتعقيداتها وشعابها.

الى هذا كلّه، كان نموذجاً مثالياً لحياة البارزانيين: صلابة في الموقف السياسي والعسكري، وسلاسة في إحترام الآخرين وآرائهم، ونزوع جارف للسلام وكره العنف وإراقة الدماء. وقد تبين الملمح الأهم في ذلك كلّه، في مغامرته الجريئة بزيارة بغداد في مطلع آذار ١٩٧٤ لإقناع القادة العراقيين على تجنب الحرب وإستئناف الجلوس الى مائدة المفاوضات. هذا وسط مخاوف كبيرة على حياته، خصوصاً أنه كان أول من حاولت الحكومة العراقية إغتياله بعد إتفاقية ١٩٧٠.

في مرحلة لاحقة إضطلع إدريس الذي كان يجمع في شخصيته إندفاع

مقاتل جبلي الى صبر سياسي عصري ورؤية مثقف ناضج، إضطلع بدور رئيسي في معالجة آثار النكسة التي لحقت بالحركة القومية الكُردية في آذار ١٩٧٥ إثر إتفاقية الجزائر بين العراق وإيران. ومازال كثيرون، بمن فيهم كاتب هذه السطور، يتذكرون مواقفه النبيلة وإشرافه المباشر على حلّ مشكلات اللاجئين الكُرد الذين توجهوا الى إيران بعد أن أفقدت النكسة عيونهم بريقها ونضارتها.

في الوقت نفسه، مازال الكُرد يتذكرون إقدامه الشجاع على المبادرة بعقل سياسي راجح، وفي غياب والده، وبمساعدة مباشرة من شقيقه مسعود، الى تنظيم وتوجيه وإطلاق إنتفاضة مسلحة جديدة في ١٩٧٥-١٩٧٦. ويؤكد جميع من عمل معه[١] في تلك الفترة أن دوره في الإنتفاضة الجديدة التي تعرف بين الكُرد بثورة گولان[٢]، كان اساسياً، وأن هذا الدور لم يقتصر على قيادة المقاتلين وتلبية إحتياجاتهم التعبوية فحسب، بل شمل بالدرجة الرئيسية توفير الأرضية السياسية والتنظيمية للإنتفاضة في ظروف صعبة ومعقدة لا أقلها التعاون الإيراني-العراقي لمنع قيام إنتفاضة كُردية جديدة.

الى ذلك، قام بدور أساسي في إعادة ترتيب البيت الداخلي الكُردي. وكانت نكسة ١٩٧٥ قد هيأت أجواءً ملؤها الفوضى وشيوع الإتهامات ونشوء أحزاب ومنظمات مبعثرة أقل ما يقال فيها إنها جاءت إنعكاساً لروح النكسة وأجوائها النفسية. والأرجح أن قناعة إدريس بضرورة حفظ الهوية الموحدة للحركة القومية الكُردية، وتقديره في الوقت عينه لأهمية التعددية في الحياة الحزبية[٣]، كانا بمثابة العاملين الرئيسيين اللذين حضّاه على بذل جهود استثنائية من أجل المصالحة الكُردية في ١٩٨٦ وهندسة الجبهة الكُردستانية

(١) حريري، فرنسو: مقابلة مع الكاتب في أربيل في ٣ آب ٢٠٠٠. يذكر أن فرنسو الذي كان من أقرب مساعدي الراحل مصطفى بارزاني، وإدريس، وبعدهما مسعود بارزاني، أغتيل في أربيل في ١٨ شباط ٢٠٠١.

(٢) أعلن الحزب الديموقراطي الكوردستاني -القيادة الموقتة- هذه الإنتفاضة في ٢٦ مايس ١٩٧٦، أي بعد أكثر من عام على النكسة التي أصابت إنتفاضة أيلول.

(٣) أنظر: مجلة (ماموستاي كورد) مجلة كوردية تصدر عن القسم الكوردي في المعهد العالي للمعلمين في ستوكهولم، السويد، مقابلة مع إدريس بارزاني أجراها رئيس تحرير المجلة فرهاد شاكلي، العدد ٤-٥، تموز ١٩٨٧

التي تم الإعلان عنها بعد وفاته. وكان إدريس في تفاصيل تلك الصورة كلها، جزءً حيوياً من التاريخ السياسي الكُردي المعاصر.

لكن مع هذا، قلما تناول المختصون والدارسون الكُرد تجربته بالبحث والتمحيص، أو تجاوزوا عند حديثهم عنه وعن ذكرى رحيله حدود الإطراء الشخصي. وإذا ما صحّ وصف هذه الطريقة في التناول بأنها تعبير عن سمة الوفاء التي يشتهر بها الكُرد، فيصح القول أيضاً أنها أسهمت، في الوقت عينه، في إبقاء إحدى أهم صفحات التاريخ الكُردي وتجارب زعمائهم مطوية.

من دون شك، ليس الوفاء في حد ذاته السبب الوحيد لغفلة الكُرد عن التمعن في حياة إدريس وتجربته السياسية. إنما هناك أسباب أخرى ليس أقلّها قساوة الظروف التاريخية التي أحاطت ببلادهم كُردستان، وحرمتهم من فرصة إلتقاط انفاسهم ومراجعة ماضيهم وجمع تراثهم في مختلف المجالات السياسية والثقافية. وكان من شأن هذا الحال أن يميز الكُرد المعروف عنهم فرط حسّهم الأقلي، عن شعوب إسلامية كثيرة تستأنس، في العادة، بتقمص ماضيها وإستلهام رموزه وشخصياته التاريخية.

اياً تكن الحال، الواضح أن البحث في حياة زعيم شديد الكاريزما وبالغ الإندماج مع شعبه، كإدريس، قد لايكتمل في شكل واضح ومحدد إذا لم تسلّط الاضواء على مربعين حيويين في تجربته السياسية، أو بعبارة أدق، إذا لم تدرس هذه التجربة عبر قناتين تاريخيتين متلازمتين:

الأولى: العشيرة البارزانية التي ينتمي إليها ودور هذه العشيرة ورموزها وزعمائها في تكوين شخصيته وصقل أفكاره.

والثانية: الحركة القومية الكُردية ومضامينها وطرق تطورها خلال القرن الماضي، ومن ثم تأثيرها على نمط نظرته السياسية.

وإذ يجوز القول أن إدريس كان نتاج عشيرته البارزانية، فإن القول كذلك يجوز أن التمازج كان كبيراً بين عشيرة بارزان والحركة القومية الكُردية منذ نهاية القرن التاسع عشر. يشار الى أن هذا التمازج وصل منذ العقد الأول من القرن العشرين درجة من التفاعل لم يعد معها من السهل إستقراء أي من الحالين على إنفراد: العشيرة البارزانية والحركة القومية الكُردية الحديثة.

في هذا الخصوص تمكن الإشارة الى إنتفاضات الشيخ عبدالسلام بارزاني (الثاني) ضد الدولة العثمانية في مطلع القرن الماضي، وإنتفاضات الشيخ أحمد بارزاني ضد الحكومات العراقية والإنتداب البريطاني في الثلاثينات من القرن نفسه، إضافة الى إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ التي قادها مصطفى بارزاني، وإنتفاضتي أيلول ١٩٦١ ونيسان ١٩٧٦ اللتين أدى فيهما إدريس دوراً أساسياً. هذا، طبعاً، بالإضافة الى سلسلة نشاطات سياسية هائلة، على مرّ القرن الماضي، كان للبارزانيين دور رئيسي في تنظيمها وقيادتها. لا أقلها دورهم في تأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني الذي أصبح يشكل منذ النصف الثاني من أربعينات القرن الماضي العصب الرئيسي للحياة السياسية الكُردية.

هذا التداخل بين بارزان والحركة القومية الكُردية دفع بكثير من الباحثين والمستشرقين والمختصين في الشأن الكُردي، الى دراسة صفحات رئيسية من الحركة القومية الكُردية من خلال عشيرة بارزان وحياة زعمائها وقصص تعرض أبنائها الى النفي والسجن. والواقع أن هذه العشيرة التي تتميز في بنيتها الإجتماعية والإقتصادية بسمات خاصة، منها مثلاً، خلوها من سمات النظام الإقطاعي وعدم إمتلاك شيوخها للإقطاعيات والأراضي والقرى، مثلت منذ بدايات نشوئها في أواخر القرن التاسع عشر حاضنة طبيعية لا لنمو بذور الوعي القومي الكُردي فحسب، بل لتداخل هذا الوعي بالشفافية السياسية والعدالة الإجتماعية أيضاً.

لهذا كلّه، تقتضي الأمانة العلمية أن يُصار الى دراسة التجربة السياسية لإدريس بارزاني وحياته من خلال مصدريهما الرئيسين: العشيرة البارزانية والتاريخ القومي للكُرد.

***

أزعم أن هذا البحث المختصر يطمح الى تسليط الضوء على بعض المحطات الرئيسية في تجربة القائد الكُردي إدريس بارزاني. غير أنه لايؤرخ، بالمعنى الحرفي لكلمة التأريخ، حياة زعيم بارزاني أو عدد من زعماء عشيرته. إنما يحاول إستثمار المادة التي يوفرها التاريخ لرصد الحركة القومية الكُردية الحديثة وطرق تطورها وبعض تفاصيلها المهمة. لكن مع هذا، لايمكن لهذا

القول أن يلغي حقيقة أخرى مفادها أن البحث في التاريخ يفيد، إفادة كبيرة، في تسليط الضوء على حياة الأفراد وأدوارهم في صنع المادة التاريخية.

والواقع أن أهمية تجربة إدريس لاتنبع من كونها إمتداداً أو تجسيداً لتعاليم والده أو أعمامه أو أجداده. بل تنبع أيضاً من عوامل أخرى ليس أقلّها أنه مثّل، مع شقيقه، الرئيس الحالي للحزب الديموقراطي الكُردستاني، جيلاً متعلماً عصرياً من الزعماء البارزانيين، نهل العلم والثقافة المدينية عبر إنتقاله الدائم بين المدن العراقية في سياق حياة النفي التي عاشتها عشيرته.

الى ذلك، تنبع أهمية التجربة من أن صاحبها مارس السياسة وإضطلع بمسؤولية أساسية في قيادة الحزب الديموقراطي وحركة المقاومة الكُردية في فترة بالغة الصعوبة والتعقيد على مختلف الأصعدة الدولية والشرق أوسطية والعراقية والكُردية.

دولياً، كان العالم في العقود الثلاثة التي دخل فيها إدريس معترك المسؤولية السياسية يعيش ذروة الحرب الباردة بين القطبين الشرقي والغربي. ورغم أن الملامح الأساسية لهذه الحرب بوعائها السياسي القديم، تشكلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية مع إنتصار دول الحلفاء على الدول النازية والفاشية وتحوّل الإتحاد السوفياتي الى قوة عظمى من خلال الحرب، إلا أن زخمها الأساسي إنفجر في العالم في نهاية الخمسينات وبداية الستينات من القرن الماضي.

في هذا الإطار، يصح القول أن الدول والكيانات السياسية، هي التي تحملت بدرجة رئيسية أثقال تلك الحرب وإنعكاساتها السيئة. لكن الحقيقة التي لم تتضح إلا بعد إنهيار نظام القطبية الثنائية في مطلع التسعينات، أكدت أن الشعوب والأقليات والتكوينات الإثنية التي لم يسمح لها التاريخ والجغرافية بتأسيس كياناتها الخاصة، وفي مقدمها الشعب الكُردي، فاقت في تحمل تبعات الحرب الباردة ونتائجها الوخيمة الدول والكيانات السياسية.

وكان مبعث خسائر الشعوب والأقليات أن آليات تلك الحرب السياسية، أو ما أصطلح على تسميته بالنظام العالمي القديم، رفضت كلياً، على الأقل في منطقة الشرق الأوسط، الإعتراف أو التعامل مع الشعوب والأقليات أو تلبية

مطامحها السياسية.

وما زاد من آلام الكُرد أن بلادهم، كُردستان، تقع في ملتقى جيوسياسي بالغ التعقيد والحساسية في الشرق الأوسط. وينقل الصحافي الفرنسي رينيه موربيس الذي زار كُردستان في ١٩٦٦ عن الخبير الفرنسي المختص بالشؤون الكُردية بيير روندو أن الموقع الجغرافي لكُردستان وإمتداداتها في أربع من أهم دول المنطقة (تركيا وإيران والعراق وسورية) جعلت بلاد الكُرد بمثابة المفتاح الرئيسي لحل مشاكل الشرق الأوسط(٤).

فيما الحال على تلك الشاكلة، بدا الكُرد كأنهم يتحركون في عالم أصم تسد مصالح الدول الكبرى وموازين صراعاتها كل النوافذ والمساحات والفضاءات. عالم يوفر كل الوسائل لذبحهم وتفتيتهم، لكنه لايعطيهم الحق في الصراخ والإحتجاج. واللافت أن كثيراً من الباحثين والمهتمين بالشؤون الكُردية وصفوا الكُرد في فترة الحرب الباردة بأنهم أحد أكثر ضحايا الحرب الباردة تعرضاً للنسيان، وأن لا صديق لهم غير الجبال.

وإقليمياً، كانت منطقة الشرق الأوسط التي تتمتع بمزايا جغرافية كثيرة وعمق ثقافي وتاريخي سحيق، إضافة الى غنى إقتصادي ونفطي هائل، كانت تعتبر إحدى أهم ساحات الصراع البارد في ظلّ القطبية الثنائية بين الشرق والغرب.

والواقع أن المورد الإقتصادي والموقع الجيوسياسي لم يكونا السببين الوحيدين في إمتداد إنعكاسات الحرب الباردة الى الشرق الأوسط، بل أن الطبيعة الديكتاتورية والإستبدادية التي طبعت أغلب الأنظمة السياسية في المنطقة، هيأت هي الأخرى، أرضية ملائمة لإمتداد قوانين تلك الحرب وآلياتها وقساوتها الى المنطقة. واللافت أن المنطقة بتاريخها الموغل في القدم، وحسابات التقاليد والثقافة السياسية القديمة فيها، شكّلت مبررات ملائمة لإندفاع الحرب الباردة الى أعماقها. وفيما الوضع كذلك، بات الكُرد في ملتقاهم الجغرافي المدمر أحد أكثر الضحايا معاناة تحت أثقال الحرب غير

(٤) رينيه موربيس، كُردستان أو الموت، ترجمة وتعليق جرجيس فتح الله، دار ئاراس للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، كُردستان، أربيل ١٩٩٩، صفحة ٢٢.

المنظورة بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي.

وعراقياً، تميزت علاقات الكُرد بالدولة العراقية بتوتر غير قليل. فالدولة التي أنشأتها بريطانيا في مطلع العقد الثاني من القرن الماضي، عن طريق دمج ولايتي بغداد والبصرة، ولاحقاً ولاية الموصل (كُردستان العراق حالياً) في ١٩٢٦، نالت استقلالها في ١٩٣٢ بحسب وثيقة دولية صادرة عن عصبة الأمم. وعلى رغم أن الكُرد رأوا في تلك الفترة أن حقهم الطبيعي يقضي بتمتعهم بحقوق قومية وسياسية واسعة ومساوية لحقوق بقية الشعوب الشرقية التي تحررت من نير العثمانيين، بما فيها إنشاء دولة قومية مستقلة، إلا أن الدولة العراقية الحديثة سرعان ما تراجعت حتى عن إلتزامها بالبند المتعلق بحماية الحقوق الثقافية الكُردية في وثيقة إستقلالها.

وما فاقم من شدّة الحال، أن الحرب الباردة وفرت أمام الدولة العراقية، العتلة الضرورية للإندفاع في سياسة تغييب شروط الحياة الديموقراطية، والشروع في حملة منظمة لإستئصال العنصر الكُردي من نسيج العراق. وكان مشروع الحويجة لإسكان العشائر العربية في قرى كُردية هُجّر أهلها قسراً في غرب كركوك في ١٩٣٦، بمثابة المحطة الأولى.

لاحقاً، إتسعت حملات القمع والتنكيل لتدخل مع مطلع الستينات إحدى أخطر مراحلها. وكانت هذه الخطورة في الواقع، العامل الرئيسي في إندلاع إنتفاضة ١١ أيلول ١٩٦١ التي لعب فيها إدريس دوره القيادي الأول.

أما كُردياً، فإن المجتمع الكُردي بدأ يواجه مع نهاية العقد الخامس من القرن الماضي، وبالذات مع ثورة الجنرال عبدالكريم قاسم في ١٤ تموز ١٩٥٨، مصاعب داخلية عدة:

الأول: تفاقم الحملات الحكومية، العسكرية والسياسية والثقافية، ضد كُردستان.

والثاني: بروز الصراعات المسلحة الداخلية بين الكُرد أنفسهم اعتباراً من منتصف الستينات.

والثالث: هجمة الآيديولوجيات الشمولية على الشرائح الكُردية المتعلمة. يشار الى أن القمع الذي مارسته السلطات العراقية على

الكُرد، معطوفاً على تعقيدات التخلف والأمية والبطالة وسوء الأحوال الإقتصادية، مهّد في شكل رئيسي لإنتشار تلك الآيديولوجيات وجرّها الكُرد الى معارك نظرية وداخلية لا طائل من ورائها.

ضمن هذه الأجواء المتخمة بالتعقيد والمصاعب، تحرك إدريس بارزاني وقاد حركة شعبه بجرأة سياسية كبيرة. بل أن كثيراً ممن عاصروه أو رافقوه في نشاطاته، يشهدون بأنه أدار ببراعة نادرة ملفات عدة في الحركة القومية الكُردية، خصوصاً ملف النشاط العسكري والسياسي والعلاقات الدولية والإقليمية. ويشير أكثر من سياسي كُردي الى أن الفضل في نقل المقاومة المسلحة ضد الحكومات العراقية من حرب عصابات مبعثرة ومشتتة في السنوات الأولى للإنتفاضة الى حرب جبهوية وتعبوية منظمة في آيار ١٩٦٦، يعود الى إدريس الذي نظّم وخطط وقاد معركة هندرين في تلك الفترة.

الى ذلك كلّه، تتمتع تجربة إدريس بنكهة خاصة لجهة كونها تجربة قائد سياسي جسّد في حياته وسماته السمات الرئيسية لحياة شعبه: الولادة في الكهوف في ١٩٤٤، وقضاء سنوات الشباب في أحضان الإنتفاضات، أيلول ١٩٦١ ونيسان (گولان) ١٩٧٦، ومن ثم الموت في المنافي والجبال في ١٩٨٧.

لكن اللافت أن الكُرد الشغوفين بصفات الشجاعة والإقدام والبسالة، لايقتصرون في محبتهم لإدريس على شجاعته وجرأته وروحه الإقتحامية والعسكرية فحسب، بل يجلّون فيه، كما سبق القول، تواضعه وعقله السياسي المتفتح وصراحته في الإعتراف بأخطائه وتحمل مسؤولياتها ونتائجها. ويروي أكثر من شاهد عيان أن إدريس بصفاته هذه لعب دوراً رئيسياً في حضّ الكُرد على تجاوز الإحباط النفسي الذي أصابهم جراء نكسة آذار ١٩٧٥ في إتجاه إستئناف نضالهم المسلح في ربيع ١٩٧٦.

***

في محاولة للعودة الى الأصول، يتناول الفصلان الأولان من هذا البحث المختصر ثلاث محطات أساسية في تاريخ تطور الزعامة البارزانية التي ترعرع إدريس في ظلّها:

الأولى: مرحلة نشوء الزعامة البارزانية على يد الشيخ عبدالسلام في مطلع القرن العشرين، والخلفيات التاريخية لهذه المرحلة، بما فيها دور المشيخة الصوفية النقشبندية في صياغة المحتوى الإجتماعي والإصلاحي لتلك الزعامة.

والثانية: مرحلة التحولات الجوهرية التي حدثت في الزعامة البارزانية لجهة إنتقالها من شكلها الصوفي الى شكل سياسي بحت، وما رافق ذلك من تطورات وتفاعلات ضمن إطار المشيخة ذاتها من ١٩٢٧ الى ١٩٤٥.

والثالثة: مرحلة الزعامة السياسية الشاملة إعتباراً من عام ١٩٤٥ على يد أشهر البارزانيين على الإطلاق مصطفى بارزاني.

أما الفصلان الثالث والرابع، فإنهما يبحثان في حياة إدريس ونشأته وبدايات إنخراطه العملي في معترك السياسة، ودوره الحيوي في قيادة الحركة القومية الكُردية.

في سياق هذين الفصلين يتم التركيز على مرحلتين أساسيتين في تجربة إدريس: الأولى، دوره ومساهماته في إنتفاضة أيلول المسلحة (تُعرف بين الكُرد بثورة أيلول) من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٧٥. والثانية، دوره في تجديد الحركة الكُردية المسلحة وتطويرها وذلك اعتباراً من نيسان عام ١٩٧٥ حتى وفاته في مطلع عام ١٩٨٧. وكان إدريس طوال المرحلتين قائداً سياسياً ثاقب النظر، ومخططاً عسكرياً لامعاً، وعاملاً رئيسياً في حفظ لحمة النسيج السياسي الكُردي.

لكن المشكلة أن هذا البحث، الذي لايهدف، بالطبع، الى كتابة تاريخ، أُعد في ظروف إفتقد فيها كاتب هذه السطور الى مصادر كثيرة يتطلبها عمل كهذا. كما عرقلت الظروف ذاتها جهود الكاتب لإجراء مقابلات ميدانية كافية تغني البحث بمعلومات شفوية عن حياة إدريس ومحطاتها الرئيسية التي لم تتحول حتى الآن الى تاريخ مكتوب. وكان من شأن هذا كله، أن يدفعه الى الإعتماد على عدد محدود من المصادر والمقابلات الميدانية جمعها أو أجراها خلال زيارات قصيرة قام بها الى مدينة أربيل خلال العامين الماضيين، إضافة

الى تسهيلات معلوماتية مهمة قدمها عدد من الأفاضل.

في ختام هذه التوطئة العامة، أجد أن الوفاء يقضي بأن أتقدم بجزيل شكري وفائق إحترامي الى الزعيم الكُردي مسعود بارزاني الذي لم يتوانَ عن مدّ يد العون وتزويدي بالمعلومات والمعطيات اللازمة لسياق هذا البحث. كذلك أتقدم بالشكر والتقدير الى النجل الأكبر للراحل إدريس، نيچيرڤان بارزاني، رئيس حكومة إقليم كُردستان العراق في الوقت الحالي.

الى ذلك أجد نفسي مديناً لأصدقاء وأساتذة ومناضلين لم يبخلوا عليّ بالمشورة والمساعدة والإجابة على أسئلتي إن عن طريق المقابلات المباشرة أو عن طريق الفاكس والرسائل. هنا لابد من توجيه تحية خاصة الى ذكرى الشهيد فرنسو حريري الذي زودني بآراء ومعلومات مفيدة كلما لقيته في زياراتي الى كُردستان قبل مصرعه في ١٨ شباط ٢٠٠١

كذلك أشكر الأستاذ الفاضل محسن دزهيى الممثل الشخصي للرئيس مسعود بارزاني، والدكتور محمود عثمان والأستاذ شمس الدين مفتي اللذين لم يبخلا عليّ بكل مساعدة ممكنة من ناحية الإجابة على اسئلتي وإستفساراتي وما كان يستعصي عليّ من تواريخ ومعلومات.

كما أجد من واجبي أن اشكر صديقي العزيز بدران أحمد حبيب مسؤول دار (ئاراس) للطباعة والنشر، الذي زودني بمصادر ووثائق مستنسخة عديدة وجمع لي معلومات غنيّة حول موضوع البحث. كما أشكر جميع العاملين معه في الدار ممن ساعدوني في إتمام طبعه وإخراجه. وأشكر ايضاً أستاذي الفاضل جرجيس فتح الله الذي تحمس لمشروع هذا البحث وردّ على أسئلتي برحابة صدر العالم والمؤرخ.

شكري الوافر للجميع وتمنياتي أن أكون وُفِّقتُ في تسليط الضوء على صفحة معاصرة من صفحات التاريخ السياسي الكُردي: تجربة الراحل إدريس بارزاني الذي يطلق عليه الكُرد إسم (الشهيد المظلوم) في إشارة واضحة الى خدماته الجليلة في سبيل شعبه من دون أن يحصل أو يتطلع للحصول على أي إمتياز.

سامي شورش

الفصل الأول

بارزان: المشيخة والتصوف والسياسة

القرية وفضاءات التاريخ والجغرافية

تقع قرية بارزان في السفوح الجنوبية لجبل شيرين الذي يتفرع من سلسلة جبال زاگروس في نقطة قريبة من المثلث الحدودي بين العراق وتركيا وإيران.

ويصف كثير من الباحثين هذه السلسلة الجبلية التي تمتد نحو ألف كيلومتر من جنوب غربي إيران الى جبال طوروس وأنتي طوروس في جنوب الأناضول، على طول الحدود العراقية الإيرانية، ومن ثم الحدود العراقية التركية، بأنها العمود الفقري لبلاد الكُرد، أو ما أصبح يُعرف لدى الجغرافيين العرب، منذ القرن الثاني عشر الميلادي بكُردستان[٥].

والواقع أن التفسيرات المتعلقة بمنشأ إسم بارزان تكتنفها إختلافات غير قليلة. وإذ ترى الشخصية الكُردية المتنورة معروف چياووك، مؤلف كتاب (مأساة بارزان المظلومة) أن إسم بارزان نسبة الى عشيرة برازي الكُردية القديمة، أو أنه إسم للجد الأعلى للبارزانيين أو تحوير لكلمة (بارسان) أي الدراويش أو (برازان) أي إخوان الصفا[٦]، نجد المؤرخ العراقي عباس العزاوي ينقل عن كتاب (شرفنامه)[٧] للمؤرخ الكُردي شرف خان بدليسي أن عشيرة زيبار، العشيرة الأم لشيوخ بارزان، إنتشرت على ضفتي نهر الزاب الكبير، وكانت في هذه الإنحاء قلعة بإسم (بازيران) التي هي اللفظة الأصلية لإسم عشيرة بارزان[٨].

هذا في حين يعتقد الباحث الأميركي المختص في الدراسات اللغوية المقارنة (مايكل آستور) أن كلمة بارزان هي اللفظة الحديثة لإسم إله قديم بين الحيثيين والأورارتوريين إسمه (أورو بارزونا). ويشير آستور الى أن هذا الإسم يرد في

(٥) خصباك، شاكر: الأكراد والمسألة الكُردية، الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة الرابطة ١٩٥٩ ص١٤.

(٦) چياووك، معروف: مأساة بارزان المظلومة، المطبعة العربية، الطوب - بغداد ١٩٥٤، صفحة ٥٢.

(٧) بدليسي، شرف خان: شرفنامه، الطبعة الكُردية، ترجمة: هَژار موكرياني، النجف الاشرف ١٩٧٣، صفحة ٢٥٨-٢٥٩.

(٨) العزاوي، عباس: عشائر العراق الكُردية، بغداد ١٩٤٧، صفحة ١٩٥-١٩٦

أحد الشواهد القديمة لفترة الملك الآشوري تيگلات بيليزر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد، وذلك بالترابط مع إسم مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر الزاب الكبير. لهذا لايستبعد الباحث الأميركي أن تكون تلك المدينة هي بارزان الحالية[٩].

والواقع أن وصف جبال زاگروس بالعمود الفقري لبلاد الكُرد، لايستمد مبرراته من الإمتداد الجغرافي لتلك الجبال من الجنوب الى الشمال في قلب الاراضي الكُردية فحسب، بل من كونها الحاضنة الأولى لعملية النشوء الإثني الأول لأسلاف الكُرد في الألف الثاني قبل الميلاد. في هذا السياق، يتفق أكثر الباحثين والمختصين في الشأن الكُردي على أن البدايات الأولى لمنشأ الكُرد، من الناحية الإثنية، تعود الى الإمتزاج الذي حصل بين شعوب وقبائل قديمة إستوطنت وديان زاگروس وسفوحها الشرقية والغربية مثل قبائل (لولو وكوتي وهورارتو)، وبين موجات القبائل الميدية التي إستقرت في الأرجاء نفسها في بداية الألف الثاني قبل الميلاد[١٠].

جغرافياً، تقع قرية بارزان، موطن الشيوخ البارزانيين النقشبنديين، على بعد نحو مئة كيلومتر الى شمال شرقي مدينة أربيل، وخمسة وعشرين كيلومتراً الى شمال شرقي مدينة عقرة. وعلى رغم أن جبل شيرين الذي يحتضن بارزان، لايعدو أن يكون لساناً صخرياً وبركانياً هائلاً يفتقر في أكثر أجزائه الى الينابيع ومصادر المياه الطبيعية، إلا أن الوادي الذي يفصله عن جبال پيرس وعقرة، يمتاز بوفرة خضرته وكثرة القرى المنتشرة في أرجائه، إضافة الى غزارة مياهه: نهر الزاب الكبير من جهة، وفرعه دائم الجريان (روكوجك) من جهة ثانية.

المستشرق البروتستانتي الأسكوتلندي دبليو. أي. ويگرام الذي زار منطقة بارزان في العقد الأول من القرن العشرين للإطلاع على أوضاع المسيحيين في

(٩)

Michael C.Astour, Semites and Hurrians in Northern Transtigris, studies on the Civilizatin and Culture of Nuzi and the Hurrians. Volume 2. Winona Lake Indiana, Eisenbrauns 1987, PP 1-66

(١٠)

Safrastian, Arshak: Kurds and Kurdistan,London, Havill Press, 1948, P16-17.

إيران وبلاد الكُرد، وصف الوادي الذي تقطنه عشيرة بارزان بأنه غور عظيم في سطح الأرض يمتد شرقاً وغرباً، يبدأ من مدينة الجزيرة (جزيرة ابن عمر) التي تقع في نقطة قريبة من الحدود التركية السورية، ويمرّ بالعمادية (في كُردستان العراق حالياً) لينتهي بالجبال الواقعة على الحدود الإيرانية. وهو بطوله الذي يناهز ١٢٠ ميلاً يبدو وكأنه خندق هائل[١١].

الى ذلك، تمتاز منطقة بارزان، من الناحية الطوبوغرافية بتضاريس جبلية منيعة. وتقع قرب البوابة الجبلية المعروفة (كيله شين) التي تعتبر إحدى أهم البوابات الطبيعية في جبال زاگروس. وكان يمر من خلالها الطريق التجاري القديم (طريق الحرير الصيني) الذي كان يربط الأناضول بإيران والهند في العصور القديمة. ومعروف أن هذا الطريق كان بمثابة كتلة برية مهمة إستخدمته الجيوش العثمانية لمهاجمة الصفويين الإيرانيين في معركة چالديران في ١٥١٤، وقبلها الجيوش اليونانية لإحتلال شمال شرقي إيران في القرن السادس قبل الميلاد.

أما تاريخياً، فتمتاز المنطقة بعراقة الحياة البشرية في أرجائها. وفي هذا الخصوص، يشير عدد من المختصين في الإثنيات القديمة الى أن قبائل قديمة كانت تُعرف بـ(لولو وكوتي وأورارتو وهورياني وميتاني) سكنت في عصور موغلة في القدم سفوح جبال زاگروس[١٢]. هذا بينما عثرت فرق تنقيبات أثرية من جامعات أميركية وبريطانية وعراقية في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي على آثار وهياكل عظمية لإنسان نياندرتال القديم في كهف شانَدَر القريب من قرية بارزان.

والأرجح أن هذه المزايا الجغرافية والطوبوغرافية والتاريخية عكست، عبر تفاعلات تاريخية، تأثيراً ملحوظاً على التكوين الإجتماعي والثقافي والنفسي للمجموعات البشرية التي قطنت أطراف جبل شيرين وفي مقدمها

(١١) ويگرام، أي دبليو. مهد البشرية الحياة في شرق كُردستان (الترجمة العربية) تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، بغداد ١٩٧١. صفحة ١٣٠.

(١٢) Boyce, Mary: Zoroastrians, Their Religious Beliefs and Practices, Routledge & Keganpaul, London and New York 1979, P2-16.

البارزانيون. وبالرغم من إمكان حصر مميزات لافتة في حياة هذه المجموعات من ناحية أنظمتها الدينية والإقتصادية والإجتماعية، إلا أن المفيد، هنا، هو أن نشير الى سمتين متلازمتين ومتداخلتين في تكوين عشيرة بارزان، مع ملاحظة إشارات التناقض الواضحة في إجتماعهما:

الأولى: رجفة الخوف التي تطبع حياة البارزانيين حيال كل سيطرة غريبة أو أجنبية على مناطقهم، وإستعدادهم الفطري للإحتماء بعزلتهم الجغرافية ووعورة التضاريس والجبال في منطقتهم كلّما لاحت أخطار السيطرة الأجنبية في الأفق.

والثانية: سمة التواصل مع، أو الإنفتاح على الآخرين في إطار من العيش الهادىء والثقة المتبادلة معهم.

والأرجح أن إجتماع هاتين السمتين هما السبب في شدّة روح التشبث لدى البارزانيين بالتقاليد الذاتية وإطار العشيرة والولاء الجمعي، إضافة الى روح المقاومة والبسالة الجبلية التي يتمتعون بها. وفي الوقت عينه، في شدة قدرتهم على التسامح ونبذ العصبية ورغبة التناغم مع الآخرين.

وإذا صحّ إعتبار الإنتفاضات المتكررة التي طبعت تاريخ بارزان في مختلف الحقب العثمانية والبريطانية والعراقية، بمثابة تعبير واضح عن الرجفة من السيطرة الأجنبية، فإن عيش البارزانيين مع المسيحيين واليهود في قرى مشتركة على مرّ حقب تاريخية موغلة في القدم، من دون مصادمات أو مشاكل، دليل واضح على عمق التسامح الديني والإنفتاح اللافت اللذين تمتعوا بهما.

يقول الباحث البارزاني، بيرش، أن قرية بارزان سكنها اليهود والمسلمون والمسيحيون معاً. وكان لكل من أتباع هذه الأديان الثلاثة أماكن عبادتهم الخاصة يمارسون فيها شعائرهم الدينية في جو من التسامح المتبادل. وينقل الباحث عن معمرين من أهل القرية أن اليهود في بارزان كانوا أكثر عدداً من المسلمين والمسيحيين مجتمعين، مشيراً في هذا الصدد الى أن أسماء البساتين التي تتجاوز المائتين في القرية تدل على ذلك، لأنها لاتزال تحمل أسماء مالكيها الأوائل. لكن مع هذا لم تنشب أي منازعة بين أتباع الأديان الثلاثة

في القرية[١٣]. الى ذلك، يؤكد الباحث أن آثار كنائس ومعابد يهودية قديمة لاتزال موجودة في المنطقة.

عشيرة بارزان: التشكيل الأول وخلفياته

لم تكن عشيرة بارزان تُعرف كعشيرة مستقلة قائمة بذاتها حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر[١٤]. وكان البارزانيون، أو شيوخ الدين الذين سكنوا قرية بارزان، جزءً من عشيرة كبيرة تُعرف بالعشيرة الزيبارية، بينما الأصول البعيدة لشيوخهم تعود الى الشيخ تاج الدين الذي نزح جدّه، مسعود، في نهاية القرن الثامن عشر الى قرية (هفنكا) القريبة من قرية بارزان الحالية[١٥].

والواقع أن البارزانيين بدأوا في التحول الى عشيرة مستقلة إعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر. وكان للمشيخة الصوفية النقشبندية التي إزدهرت على يد شيوخهم في تلك الحقبة دور ملحوظ في إستكمال شروط هذه العملية التاريخية المعقدة.

مرّ المجتمع الكُردي في تلك الفترة، بمرحلة مخاضات إجتماعية وثقافية وسياسية كبيرة. وكان نشوء إمارات إقطاعية مستقلة مثل إمارة بابان في منطقة السليمانية، وإمارة أردلان في منطقة سنندج (سنه في لفظتها الكُردية) في كُردستان إيران، وإمارة بتليس في كُردستان تركيا بمثابة تعبيرات واضحة عن ذلك المخاض. هذا إضافة الى إزدهار الحركة الشعرية والأدبية الكلاسيكية ونشوء الطرق الصوفية في كُردستان، خصوصاً القادرية والنقشبندية.

(١٣) أنظر: بيرش، بارزان وحركة الوعي القومي الكُردي ١٨٢٦-١٩١٤، ١٩٨٠، صفحة ٢٤.

(١٤) يقول المؤرخ الكُردي زبير بلال اسماعيل أن مصطلح عشيرة بارزان لم يتبلور ويشاع إلا في عهد مشيخة الشيخ عبدالسلام (الثاني) أي ١٩٠٤-١٩١٤ أنظر: إسماعيل، زبير بلال: ثورات بارزان ١٩٠٧-١٩٣٥، الطبعة الأولى، أربيل ١٩٩٨، صفحة ١٥.

(١٥) بارزاني، مسعود: البارزاني والحركة التحررية الكُردية (١٩٣١-١٩٥٨)، الجزء الأول، باللغة الكُردية، مطبعة خبات، دهوك ١٩٩٨، صفحة ١٧.

وما زاد من فاعلية الطرق الصوفية بين الكُرد أن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني[١٦] إنتهج في ذلك الشطر الزمني، سياسة مزدوجة إتسمت بقطبين متناقضين، على الأقل في إتجاه الشعوب والأقليات الإثنية والدينية التي إنضوت في إطار إمبراطوريته:

الأول: إدخال إصلاحات إقتصادية وإجتماعية على بنيان دولته ومحاربة مراكز القوى العشائرية والإمارات وتدميرها بهدف مركزة السيطرة العثمانية وتشديد قبضتها على الكُرد على حساب نفوذ الإقطاعيين ورؤساء العشائر.

والثاني: تمتين التحالف مع الإقطاعيين ورؤساء العشائر الكُرد، لضمان ولائهم واستخدامهم في قمع الإنتفاضات التي تطلقها تلك القوميات أو في حروبها ضد الدول والإمبراطوريات الأخرى، الإيرانية مثلاً.

يشار الى أن السلطان عبدالحميد شرع في تطبيق سياسته هذه، عبر طرق مختلفة بينها تأسيس كتائب قتالية في عام ١٨٩٠ تابعة للدولة. وكانت هذه الكتائب التي عُرفت بـ(فرسان الحميدية) مؤلفة من رجال العشائر الكُردية بقيادة رؤسائهم الموالين للسلطان العثماني. في الإطار عينه بادر الى فتح مدارس خاصة في اسطنبول وبغداد في عام ١٨٩٢ لتعليم ابناء رؤساء العشائر الكُرد والعرب مباديء الإخلاص للدولة العثمانية وإغداق الوظائف والإمتيازات عليهم.

وفي فترة لاحقة قام بتعيين رؤساء العشائر وكلاء للدولة في جمع الضرائب من الفلاحين في مناطقهم. ويرى الباحث الكُردي الدكتور كندال نزان أن محاولات السلطان عبدالحميد كانت تهدف الى التقرب من العشائر ودمجهم في نظام دولته المركزية التي كانت في طريقها الى التفكك[١٧].

غير أن سياسة السلطان عبدالحميد الخاصة بالتحالف مع رؤساء العشائر

(١٦) حكم السلطان عبدالحميد الثاني من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩٠٨. لكن جمعية (جون ترك) أو (تركيا الشابة) أجبرته على التنازل في ١٩٠٨ بعد تعطيله الدستور.

(١٧) Kendal: Kurdstan in Turkey, People without Country, edited by Gerard Chaliand, Translated by Michael Pallis, Zed Press, London 1980, P47-106.

الكُرد لم تسهم في إزدياد أثقال الظلم والقسوة على كاهل الفلاحين فحسب، إنما أفضت كذلك الى نتائج عكسية أخرى أثّرت في شكل عميق على مسار الحركة القومية الكُردية وطبيعة زعامتها. وفي شكل عام يمكن حصر نتائج تلك السياسة على الشكل التالي:

- *إتساع نفوذ الشيوخ الصوفيين في المجتمع الكُردي نتيجة توجّه الفلاحين الى الإلتفاف حولهم بعد إصطفاف رؤساء عشائرهم مع الدولة العثمانية.*

- *شعور الشيوخ الصوفيين الكُرد أن التحالف الجديد بين الدولة ورؤساء العشائر يهدف الى تقليص نفوذهم وتشديد القمع ضدهم. وكان هذا الشعور في حد ذاته كافياً لدفعهم الى إستيعاب الفلاحين وتهيئتهم لإنتفاضات مسلحة ضد التحالف العثماني العشائري.*

- *وأخيراً إنفتاح فرصة واسعة أمام أبناء المدن والطبقات المتنورة والمقيمين الكُرد في العاصمة العثمانية اسطنبول للتحرك والإنغماس في الحياة السياسية والثقافية في غياب ثقل رؤساء العشائر داخل الحركة القومية الكُردية، إضافة الى تزايد الفسحة أمامهم لعقد تفاهم ضمني مع شيوخ الصوفية بهدف الوقوف في وجه تحالف الدولة العثمانية مع رؤساء العشائر.*

وإذا كانت إنتفاضة الشيخ النقشبندي سعيد پيران في كُردستان تركيا في ١٩٢٥ تعبيراً متأخراً عن تلك الظاهرة، فإن نشاطات الشيخ عبدالسلام بارزاني في العقد الأول من القرن العشرين، وقبله إنتفاضة الشيخ النقشبندي عبيدالله نهري في ١٨٨٠ كانتا بمثابة إشارات واضحة ومتقدمة الى تلك الظاهرة.

في هذا المنحى، هيأت حلقات الشيوخ الصوفيين بديلاً واقعياً أمام الفلاحين للإحتماء في وجه سطوة الدولة وممارساتها القمعية من جهة، وفي وجه ظلم رؤساء عشائرهم الإقطاعيين الذين عملوا كوكلاء للدولة المركزية من جهة أخرى. لهذا نرى أن شيوخ نهري وبارزان وبرزنجة وپيران لعبوا أدواراً رئيسية في قيادة الحركة الكُردية بعد أن إلتف حولهم أعداد كبيرة من المريدين

والأتباع. لكن ما ميّز شيوخ بارزان الصوفيين عن نظرائهم أنهم مزجوا دعوتهم الدينية الصوفية بمضامين الدعوة الى الإصلاح الإقتصادي والإجتماعي. لهذا كانوا أقدر البدائل المتوفرة أمام الفلاحين المهمشين للإحتماء.

والواقع أن المشيخة الصوفية البارزانية نشأت في الأصل عن الطريقة النقشبندية. أما عن وصول النقشبندية الى بارزان، فيذكر مسعود بارزاني أن مؤسس الطريقة مولانا الشيخ خالد نقشبندي إتخذ عند مروره بقرية بارزان في طريقه الى مدينة دمشق في بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر، الشيخ عبدالسلام الأول جدّ الشيخ عبدالسلام الثاني خليفة له[١٨]. وقد بدأت المشيخة تعيش منذ ذلك الوقت إزدهاراً لافتاً على رغم أنها كانت تقع جغرافياً وسط مشيخات أخرى كمشيخة نهري النقشبندية في شمدينان شمال شرقي بارزان، ومشيخة البريفكانيين القادرية في بهدينان الى غربها.

يشير الديبلوماسي والمستشرق الأميركي وليام إيگلتن الذي زار منطقة بارزان وجاب مناطق كُردية عدة، ونشر لاحقاً كتاباً عن جمهورية مهاباد[١٩] أن أول شيخ بين البارزانيين إستلم الطريقة النقشبندية هو الشيخ تاج الدين الذي أخذها من السيد طه نهري خليفة خالد الشيخ النقشبندي مؤسس الطريقة في كُردستان.

أياً تكن الحال، شهدت مشيخة بارزان تطورات لافتة في بنيتها الصوفية، ما جعلها تتميز عن بقية المشايخ. وكانت ميزتها الاساسية أنها إتخذت طابعاً إجتماعياً وإصلاحياً لافتاً. بل إن شيوخ بارزان استطاعوا أن يقيموا أنماطاً إجتماعية وثقافية وصوفية، وحتى إقتصادية في نسيج مشيختهم، ما حوّل الطريقة النقشبندية لديهم الى ما يشبه طائفة دينية مستقلة.

والواقع أن هذا التحول الصوفي لم يأت جزافاً، بل كانت له أسباب محددة من أهمها ثلاثة أسباب رئيسية:

أولاً: عمق الترابط بين سكان منطقة بارزان والمعتقدات الدينية التي

(١٨) بارزاني، مسعود: المصدر نفسه، صفحة ١٧
(١٩) إيگلتن، وليام: جمهورية مهاباد،، صفحة ١٢٧. كذلك أنظر: العباسي، محفوظ: إمارة بهدينان العباسية، الموصل ١٩٦٩، صفحة ١٥٣.

سادت بين الكُرد في عصور ما قبل التاريخ.

وثانياً: كون المنطقة تقع على ملتقى جغرافي مهم حيث إنتقلت عبر بواباتها الطبيعية الأديان والمعتقدات والثقافات القديمة التي تركت تأثيراتها على النمط الديني لسكان المنطقة.

وثالثاً: فداحة المظالم التي أنزلها رؤساء العشائر بالفلاحين في المنطقة ما دعا رجال الدين البارزانيين الى تعميق صوفيتهم النقشبندية بأفكار داعية الى مناصرة الفلاحين وإحقاق العدل والمساواة.

واللافت أن المشيخة البارزانية حرصت منذ إزدهارها الأول على الدعوة الى إنصاف الفلاحين ورفع الغبن والإضطهاد عنهم وإدخال إصلاحات على وضع المجتمع الريفي الكُردي والحد من سلطة الدولة ووكلائها على رقاب الناس. كما حضّت على العمل وروح المساواة وتحريم قطع الأشجار ومنع قتل الحيوانات، إضافة الى إحترام مصادر المياه ونبذ الملكية الخاصة والإقطاعيات وإمتلاك القرى.

وإذ كان بعض هذه المعتقدات على صلة بالمعتقدات الدينية القديمة بين الكُرد، فإن أغلبيتها إتصلت بظروف المعيشة الإجتماعية والإقتصادية الصعبة التي مرّت بها كُردستان في ظل العثمانيين.

أسهمت هذه المباديء الصوفية-الإجتماعية، في تحول قرية بارزان ومشيختها الصوفية الى مركز ديني وصوفي وإصلاحي جذّاب، إضافة الى تحولها الى بؤرة لإجتماع الفلاحين ونقمتهم على رؤساء عشائرهم الذين مثّلوا قسوة الدولة العثمانية. وكان من شأن هذا كلّه أن يدفع برؤساء العشائر والإقطاعيين في المنطقة الى شعور مفاده أن شيوخ بارزان بدأوا ينافسونهم في نفوذهم. لذلك، لم يضمر هؤلاء كراهية مقيتة تجاه البارزانيين فحسب، بل أخذوا يحاولون في الوقت نفسه تأليب الدولة العثمانية ضدهم.

الشيخ محمد: بذور التحولات الأولى

لم يخبُ وهج مشيخة بارزان الصوفية بعد وفاة الشيخ عبدالسلام (الأول) في عام ١٨٨٤، إنما ولجت الى مرحلة إزدهار جديدة بعد تسنّم نجله الأصغر، الشيخ محمد، مقاليدها.

ويؤكد باحثون درسوا تاريخ البارزانيين في تلك الحقبة أن الشيخ محمد أحرز نجاحاً كبيراً ومتزايداً في حشد الفلاحين من أتباع العشائر الأخرى حول دعواته الى المساواة وإلغاء الضرائب وعدم الخضوع لإرادة العثمانيين[٢٠]. وما زاد من جاذبية تلك الدعوات أن الشيخ محمد لم يطلقها في شكلها الإجتماعي المجرد فحسب، بل ناغمها بطروحاته النقشبندية التي تضم في طياتها، أصلاً، بذور الدعوة الى المساواة والعدالة الإجتماعية. وهكذا تحول الإصلاح الإجتماعي في المرجعية الصوفية البارزانية الى واجب ديني[٢١]. وكان ذلك في حد ذاته تطوراً لافتاً في مسار المجتمع الكُردي، عكس في وقت لاحق، تأثيرات بالغة على مضامين الحركة القومية الكُردية.

لم يطق رؤساء عشائر المناطق المجاورة إتساع نفوذ شيوخ بارزان وتزايد عدد مريديهم وتعاظم شوكتهم. وما فاقم من تخوفات أولئك الرؤساء أن الشيخ محمد عزز من روح التعاضد والتعاون بين مريديه وأخذ يحثهم على الأخاء والجرأة في مقاومة الأعداء. في هذا الخصوص، يقول لونگريك أن الشيخ محمد كان حاكم منطقته الحقيقي حتى آخر يوم، ولم يخضع للعثمانيين[٢٢].

(٢٠) ضمت عشيرة بارزان في إطارها عدداً من العشائر التي تسكن شمال نهر الزاب الكبير، منها عشيرى بەروژى وشيروان ومزوري بالا ودولەمەرى ونزاري وكوردي، وأقساماً من عشيرة هركي.

(٢١) يذكر أن الطريقة الصوفية النقشبندية في حد ذاتها تحمل مضامين إجتماعية لافتة، خصوصاً لجهة نشوئها الأول في كُردستان العراق في القرن التاسع عشر على يد شيخ ديني من أصول فلاحية في منطقة قرەداغ، جنوب غربي السليمانية، هو الشيخ خالد أحمد آغا حسين جاف ميكاييلي المعروف بالشيخ خالد النقشبندي (١٧٧٩-١٨٢٦). وكان الشيخ خالد إستلم الطريقة النقشبندية من الشيخ عبيدالله دهلوي في الهند في ١٨٠٩

(٢٢) لونگريك، ستيفن- العراق الحديث ١٩٠٠-١٩٥٠، ترجمة سليم التكريتي، بغداد ١٩٨٨، ص ١٠٤-١٠٥

أما الذين عاشوا تلك الحقبة فإنهم يؤكدون أن التكية النقشبندية البارزانية تحولت في نهاية القرن التاسع عشر، أي في عهد الشيخ محمد، الى ملجأ للفلاحين الذين كانوا يهربون من بطش رؤسائهم(٢٣).

لهذا قدّم رؤساء العشائر في أطراف جبل شيرين شكاوى ضده الى الدولة العثمانية. وفي وقت لاحق بادروا الى عقد تحالف بينهم وبين السلطان العثماني وولاته المحليين، خصوصاً في الموصل، لمواجهة نمو نفوذه. وكان مؤدى التحالف أن يقوم رؤساء العشائر بجباية ضرائب باهظة من فلاحيهم نيابة عن الدولة مقابل إلتزامهم دعم العمليات العسكرية للسلطان العثماني ضد البارزانيين والعشائر التي تنتفض في وجه الدولة العثمانية.

في هذا الإطار يذكر الباحث (بيرش) أن رؤساء العشائر كانوا يجبون ضرائب (العشر) و(كودا) و(المتاع) وضرائب أخرى من فلاحيهم في محصول البساتين وعدد رؤوس الحيوانات والمنازل، إضافة الى الضريبة المفروضة على الأعمال الموسمية التي يؤدونها سخرة لرؤساء العشائر(٢٤).

أبدى الشيخ محمد مقاومة عنيفة ضد الدولة العثمانية وحلفائها من رؤساء العشائر المحليين. وتعرض في سبيل ذلك الى الإعتقال والإبعاد مرتين على يد السلطات العثمانية: الأولى الى مدينة الموصل في ١٨٧٧ والثانية الى مدينة بتليس في ١٨٩٣. لكنه، مع ذلك، لم يتخل عن دعوته وإنتفاضاته حتى وفاته في ١٩٠٣.

في هذه الفترة تحول الالتفاف الفلاحي حول شيوخ بارزان الى إتحاد عشائري متماسك. وكان من شأن هذا الإتحاد أن يتحول، في ظلّ روح التآلف والأخوة الصوفية والتكاتف الجمعي لمواجهة الأخطار والمظالم الخارجية، الى عشيرة موحدة تُعرف بعشيرة بارزان. وهكذا لم يكد القرن التاسع عشر ينتهي حتى تحولت الأخيرة الى إحدى أقوى خمس عشائر بين الكُرد(٢٥).

(٢٣) الدملوجي، صديق: إمارة بهدينان الكُردية أو إمارة العمادية، تقديم ومراجعة الدكتور عبدالفتاح علي بوتاني، الطبعة الثانية، دار ئاراس للطباعة والنشر، مطبعة وزارة التربية، أربيل ١٩٩٩، صفحة ٨٥.

(٢٤) بيرش، المصدر نفسه، صفحة ٢١

(٢٥) أنظر كتاب: Mcdowall, David. The Kurds _ A Nation Denied Minority Rights Publications, London 1991.

في هذا المعنى قد يكون صحيحاً أن الصوفية النقشبندية أثّرت في شكل مباشر في نشوء العشيرة البارزانية. وأدت منذ بدايات المشيخة البارزانية الى تعاظم المضمون الإجتماعي لدعوات شيوخها الصوفية. لكن الأرجح أن التصوف لم يكن العامل الوحيد في التحولات التي شهدتها المشيخة من صوفيتها البحتة الى صورتها السياسية والقومية. فالتغيرات الإجتماعية والثقافية والسياسية الحاصلة، آنذاك، في بنية المجتمعات في الشرق الأوسط، بما فيها بنية المجتمع الكُردي، عكست بدورها تأثيرات غير قليلة في عملية تحول المشيخات الصوفية في المجتمع الكُردي، وفي مقدمها المشيخة البارزانية، الى السياسة.

في هذا الإطار، تجدر الإشارة الى عدد من هذه التغييرات على النحو التالي: في السليمانية كانت إمارة بابان تعيش مرحلة تحولات معقدة نحو القومية على رغم بنيتها القبلية والإقطاعية. وكان أوضح النماذج في هذا الخصوص، الإنتعاش الثقافي والأدبي الذي شهدته الإمارة في القرن التاسع عشر، وبروز شعراء كلاسيكيين كُرد كبار في حدود الإمارة من أمثال ملا خضر نالي وقادر بك كُردي وسالم صاحبقران. وعلى رغم أن إمارة البابانيين لم تقم على أساس صوفي، إلا أن الشيوخ الصوفيين لعبوا في تأسيسها وإدارتها وتطوراتها دوراً ملموساً. وكان أهم المشيخات الصوفية المؤثرة في مسار الإمارة هي المشيخة الصوفية القادرية وشيخها الشهير معروف النودهي (١٧٥٣-١٨٣٧).

وكانت حال السليمانية من هذه الناحية شبيهة بحال إمارة أردلان وشعرائها في مدينة سنه (سنندج) التي عاشت في ظل الأردلانيين نشاطات ثقافية وشعرية مزدهرة. وكانت الصوفية جزءً لافتاً من النسيج الداخلي لهذه الإمارة الكُردية في غرب إيران.

وإذا صحّ اعتبار الثقافة المزدهرة وتنامي الحركة الشعرية والأدبية إشارة إلى تبلور البدايات الأولى لحركة قومية كُردية في منطقتي السليمانية وأردلان في القرن التاسع عشر، فإن إتساع نطاق الإنتفاضات ضد الدولة العثمانية في مناطق رواندوز (١٨٣٤) وبهدينان وبوتان (١٨٤٧) وشمدينان (١٨٨٠)،

أشار في شكل جلي الى بروز تململ قومي أوسع في نسيج المجتمع الكُردي في هذه المناطق.

والواقع أن الإنتفاضة الأخيرة التي قادها الشيخ عبيدالله نهري في منطقة شمدينان شمال بارزان دعت الى إنشاء كيان كُردي مستقل عن الإمبراطوريتين العثمانية التركية والقاجارية الإيرانية. وكان الشيخ عبيدالله نظّم في قريته إجتماعاً لرؤساء عشائر كُرد لغرض التهيئة للإنتفاضة. ومعروف أن شيوخ بارزان أقاموا علاقات طيبة مع الشيخ النقشبندي عبيدالله وآبائه.

وعلى الصعيد العثماني، كانت الإمبراطورية دخلت، آنذاك، نفق تفكك داخلي هائل نتيجة عوامل إقتصادية وسياسية وعسكرية عدة من أهمها إستشراء الفساد المالي والاداري في اجهزتها وتزايد ديون الدولة الخارجية وتوجهها الى إيذاء الأهالي وتحميلهم أعباء ثقيلة عن طريق الضرائب. وكان الضعف الحاصل في المركز، يشجع الولاة المحليين للدولة العثمانية على إستيفاء ضرائب باهظة من فلاحي المناطق النائية، خصوصاً من فلاحي الشعوب غير التركية.

أما من ناحية الأوضاع العسكرية والسياسية، فإن منطقة البلقان كانت تخضها إنتفاضات قومية ضد سلطة العثمانيين. بينما إنتعشت في سورية ومصر حركات قومية عربية تبغي الخروج عن النير العثماني. وكان عبدالرحمن الكواكبي في سورية وأحمد عرابي في مصر مثالين في ذلك الخصوص. أما الصراعات التركية-الإيرانية والحرب التركية-الروسية بين عامي (١٨٧٧-١٨٧٨) فإنهما أثّرتا بعمق في زعزعة إستقرار الامبراطورية ومستقبلها. هذا إضافة الى إمتداد النفوذ الدولي، الإقتصادي والمالي والسياسي، الى نسيج الكيان الإمبراطوري العثماني، خاصة نفوذ بريطانيا وفرنسا وألمانيا.

هيّأت هذه الأجواء برمتها حاضنة طبيعية لتحولات سياسية وثقافية في المجتمع الكُردي وتعاظم الدعوات الإصلاحية والقومية بين فئاته الإجتماعية. وما حضّ على هذه التحولات، أن وتيرة الحملات العسكرية العثمانية ضد العشائر الكُردية تسارعت، فيما أخذ السلاطين الأتراك يحاولون بمختلف الوسائل صهر التكوين الإجتماعي والثقافي والإقتصادي الكُردي في بوتقة

دولتهم المركزية.

والحقيقة أن المدن التركية الكبرى، وبالذات اسطنبول، كانت تعيش في تلك الفترة حركة تنويرية وإصلاحية وقومية واسعة نتيجة التحولات الإجتماعية والإقتصادية الداخلية من جهة، والضعف الهائل الذي اصبحت عليه الدولة العثمانية من جهة ثانية. إضافة الى إمتداد أفكار التحرر الأوروبية وتزايد وتيرة التغلغل المالي والإقتصادي والثقافي الأوروبي في النسيج العثماني من جهة ثالثة. والواقع أن المتنورين الكُرد في اسطنبول كانوا جزءً حيوياً من تلك الحركة التي إتخذت في البداية شكل تعاون مشترك مع المتنورين الأتراك في إطار جمعيتي (تركيا الفتاة) و(الإتحاد والترقي) التركيتين.

في هذا الصدد، تصح الإشارة الى عدد من المبادرات التنويرية الكُردية في اسطنبول، منها جمعية (تعالي وتقدم كُردستان) في ١٩٠٨، وجمعية (هيڤي - الأمل) في العام نفسه، وقبل ذلك صدور صحيفة (كُردستان) في القاهرة في ١٨٩٨ ومجلة (روژي كورد) في ١٩٠٨ و(هتاڤي كورد - شمس الكرد) في ١٩١٢.

يذكر الباحث الأكاديمي الكُردي الدكتور كمال مظهر أحمد في كتابه (كُردستان خلال سنوات الحرب العالمية الأولى) أن الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية السيئة لكُردستان كانت تحفز الكُرد وتثير مشاعرهم القومية. ويضيف أن هذه المشاعر وصلت في السنوات التي سبقت إندلاع الحرب، حد مطالبتهم في النشاطات السياسية والإجتماعية والثقافية بالإستقلال عن الإمبراطورية العثمانية أو الحصول على نوع من الحكم الذاتي[٢٦].

في هذا الفضاء، يصح اعتبار نزوع البارزانيين الى مزج دعوتهم الدينية الصوفية بأفكار التحرر القومي والإجتماعي بمثابة إمتداد للتغييرات التي شهدها المجتمع الكُردي في تلك الفترة. وكانت هذه الأفكار بدأت في صورتها الحديثة تصل الى النسيج الكُردي عبر تركيا التي إستقبلت بدورها موجات هذه الأفكار من أوروبا بعد ثورتها الصناعية الكبرى في القرن الثامن عشر،

(٢٦) مظهر، كمال أحمد: كُردستان خلال الحرب العالمية الأولى، باللغة الكُردية، مطبعة المجمع العلمي الكُردي، بغداد ١٩٧٥، صفحة ٣٣.

والامبراطورية الروسية اعتباراً من القرن التاسع عشر. وقد تحولت بارزان في بداية القرن العشرين، وفي خضمّ هذه التفاعلات، الى بؤرة ناشطة للحركة القومية الكُردية[٢٧].

وفي هذا الخصوص يذكر الأمير الكُردي عبدالرزاق بدرخان (أعدمه الجيش التركي في ١٩١٨) في مذكراته أنه أسس بالتعاون مع روسيا في مدينة (خوي) في أقصى شمال غربي إيران مدرسة ضمّت ثلاثين طالباً كُردياً، مشيراً الى أنه كان على إتصال عن طريق الرسائل مع شيخ بارزان[٢٨].

لكن تركيا لم تكن وحدها النافذة التي أتت منها رياح التغيير نحو كُردستان، بل أن إيران القاجارية شهدت بدورها نشوء حركة دستورية واسعة اعتباراً من ١٩٠٥ عُرفت بحركة المشروطية. هذا في حين تجسد الفرق الأوضح بين الحركتين الدستوريتين التركية والإيرانية أن الأخيرة تولاها في قم وطهران الإيرانيتين والنجف والكوفة العراقيتين رجال دين شيعة متنورون، بينما تولاها في تركيا السنّية وبين الكُرد السنّة متنورون ومتعلمون وعدد من شيوخ الطرق الصوفية.

وعلى رغم أن الحركتين، التركية والإيرانية، مهدتا السبيل، في ما بعد وعبر عملية سياسية وثقافية معقدة، لنشوء مشروعين قوميين عسكريين: الأول تحت قيادة الضابط العسكري التركي مصطفى كمال أتاتورك الذي اسس جمهوريته في ١٩٢١ بعد إنتصاره في حرب الإستقلال ضد اليونان في ١٩١٩ – ١٩٢٠. والثاني تحت قيادة رئيس أركان الجيش الإيراني العقيد رضا خان (بهلوي) الذي إنقلب على القاجاريين وأسس مملكة إيرانية حديثة في طهران في ١٩٢٦. واللافت أن المشروعين القوميين التركي والإيراني سرعان ما إنقلبا على الكُرد بهدف منعهم من تأسيس مشروعهم القومي الخاص، وصبغا المشهد

(٢٧)
Bruinessen, Martin van: Religion in Kurdistan, Kurdish Times, Vol. 4 Nos. 1&2, – Summer-Fall 1991, P5-28.

(٢٨) مذكرات عبدالرزاق بدرخان، ترجمة وإعداد جليلي جليل، ترجمه الى الكُردية – اللهجة الكرمانجية الجنوبية شكر مصطفى، دار ئاراس للطباعة والنشر، أربيل ٢٠٠٠، صفحة ٢٤.

الكُردي بدم قومي كثير، إلا انهما لعبا مع ذلك كله، دوراً مؤثراً وعميقاً في إستنهاض الوعي السياسي والإصلاحي والقومي بين القوميات المضطهدة في الشرق الأوسط ومنهم العرب والكُرد.

الباني الأول: الشيخ عبدالسلام بارزاني

تسنّم الشيخ عبدالسلام بارزاني الثاني (١٨٨٢-١٩١٤) المشيخة الصوفية النقشبندية في بارزان في ١٩٠٣ بعد وفاة والده الشيخ محمد. وكانت المشيخة تمرّ في تلك الفترة بإحدى أهم مراحلها من ناحية الإزدهار والحيوية. هذا في الوقت الذي كانت فيه الحلقات والمراكز التنويرية الكُردية الحديثة في اسطنبول تنهمك بدورها في الإضطلاع بدور فاعل ضمن إطار الحركة القومية الكُردية.

واللافت أن التطور الجديد الذي أدخله الشيخ عبدالسلام في بنية المشيخة لم يقتصر على ترسيخها وتوسيع قاعدتها وتنظيم حياتها الداخلية فحسب، إنما تجاوز ذلك الى تحولين متلازمين وهامين آخرين:

الأول: نجاحه في تحويل المشيخة من بؤرة محلية ومناطقية تعيش مع شيوخها وتموت مع موتهم، الى مشيخة متجددة ذات قدرة ملحوظة على التواصل والديمومة حتى بعد وفاة مرشدها المتنفذ.

والثاني: نجاحه في تحويلها من مشيخة صوفية-دينية بحتة الى مرجعية صوفية-سياسية قومية منفتحة على أفكار الإصلاح، مع الإحتفاظ، طبعاً، بجوهرها الصوفي. وعلى رغم أن الفضل في وضع اللبنات الأولى لهذين التطورين يعود، في الاصل، الى الشيخ محمد إلا أن الأكيد أنهما إتخذا صورتهما النهائية على يد الشيخ عبدالسلام الثاني.

في هذا الخصوص، يرى باحثون مختصون في الشأن الكُردي أن الشيخ عبدالسلام هو الباني الحقيقي لدور عشيرة بارزان على صعيد الزعامة السياسية الكُردية. ويشير هؤلاء[٢٩] عند حديثهم عن شخصيته، الى أنه تمتع

(٢٩) أنظر: إسماعيل، زبير بلال: ثورات بارزان ١٩٠٧-١٩٣٥، الطبعة الأولى، مطبعة وزارة الثقافة، أربيل ١٩٩٨

بذكاء حاد وأفق سياسي واسع وإهتمام لافت بنشر العلم وفتح المدارس.

ويروي المستشرق الاسكتلندي ويگرام أن الشيخ عبدالسلام حين سمع أنه عائد الى إنگلترا بعد أشهر قليلة، أبدى إستعداده لمرافقته، لكي يطلب شخصياً من رئيس أساقفة كانتربري البروتستانتية فتح مدارس تعليمية في قرى بارزان. وكذلك يقصد الملك جورج ويجلس معه للبحث في قضية كُردستان والبتّ في أمر إستقلالها[٣٠]. الى ذلك يسجل ويگرام أن الشيخ عبدالسلام قال له: لقد ذهبتم الى الهند وبقيتم هناك مع أنهم لايريدونكم. لماذا لاتأتون الى هذه البلاد فأهلها يريدون التعلم منكم[٣١].

أما مسعود بارزاني فيشير في كتابه الى عدد من إصلاحات الشيخ عبدالسلام بينها إلغاء الملكية الخاصة والمهر والزواج القسري، وتوزيعه الأراضي على الفلاحين، إضافة الى تنظيمه العلاقات الإجتماعية بين البارزانيين على أساس من العدل[٣٢].

على صعيد ذي صلة، يؤكد المؤرخ العراقي صديق الدملوجي الذي عاصر الشيخ عبدالسلام وزار تكيته الصوفية، ثم إلتقاه في سجن الموصل قبيل إعدام الشيخ في ١٩١٤، إنه كان ذكياً للغاية، حاد الذهن، سريع البديهة، وكان يظهر أسفه على حرمانه من التعليم المدرسي[٣٣]. الى ذلك، يشير الى أن تكية بارزان في عهده كانت تتسلم صحفاً وبيانات تصدرها الجمعيات والنوادي السياسية والإجتماعية الكُردية. وكانت فكرة الإصلاح السياسي في تلك الحقبة شملت معظم أبناء الكُرد وأخذوا ينادون بها في السر والخفاء[٣٤].

أما المستشرق الروسي الاصل، فاسيلي نيكيتين، فيلفت من ناحيته الى أن الشيخ عبدالسلام تابع تنامي الوعي القومي في صفوف المثقفين الكُرد وحاول إقناع وجهاء منطقة بهدينان بوجهة نظره الإصلاحية. كذلك يؤكد أن الشيخ عبدالسلام نال إحترام جميع الفرق والطوائف الدينية، وكان متواضعاً يكرر

(٣٠) ويگرام، الترجمة العربية، صفحة ١٢١ .
(٣١) ويگرام، الطبعة الإنجليزية، صفحة ١٤٥ .
(٣٢) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٧-١٨ .
(٣٣) الدملوجي، المصدر نفسه، صفحة ٨٢ .
(٣٤) الدملوجي، المصدر أعلاه، صفحة ٨٥ .

القول: أنا شاب قليل التجربة وبحاجة الى التعليم والدروس، مضيفاً أن الشيخ كان شاباً جميلاً ذا شخصية جذابة جداً، يدعو الكُرد الى التضامن والوحدة، مردداً: إتحدوا وتضامنوا في ما بينكم، وعندذاك لن يستطيع أحد قهركم[٣٥].

الى ذلك يؤكد الباحث بيرش أن الشيخ عبدالسلام تجاوب مع الجمعيات والمنظمات الكُردية في تلك الفترة وأيّد برامجها لاسيما بعد أن نكلت جمعية الإتحاد والترقي التركية بالكُرد[٣٦]. أما كريم أحمد السكرتير العام للحزب الشيوعي الكُردستاني الذي كتب عن تلك الفترة فيشير الى أن الشيخ عبدالسلام أقام علاقة سياسية مع الفرع الكُردي لمنظمة تعالي وترقي وجمعية هيفي الكُرديتين[٣٧].

غير أن الشيخ لم يقتصر في نشاطاته على قوة عشيرته، على رغم أن أفرادها عرفوا بطاعتهم البالغة لشيوخهم وإستعدادهم الدائم للعمل وتنفيذ الأوامر[٣٨]. بل الأرجح أن أفقه القومي دفعه الى البحث عن طرق ووسائل أخرى تمكنه من توسيع دائرة حركته وشمولها عشائر ومناطق كُردية أخرى. في هذا الشأن يلمّح بيرش الى أن إتساع الحملات التركية ضد الكُرد أقنعت الشيخ عبدالسلام بتوسيع دائرة تحالفاته والإنتقال بين العشائر الأخرى وزيارة رؤسائها داعياً إياهم الى الإتحاد والتكاتف[٣٩].

كذلك يشير مسعود بارزاني الى أن الشيخ عبدالسلام رأس في ربيع عام ١٩٠٧ إجتماعاً لشيوخ الصوفية ورؤساء العشائر في دار مرشد الطريقة القادرية الشيخ عبدالقادر بريفكاني في قرية بريفكان، موضحاً أن الإجتماع أسفر عن إتفاق الحاضرين على تفويض الشيخ عبدالسلام توجيه مذكرة الى الحكومة العثمانية تتضمن عدداً من المطالب القومية ليس أقلها جعل اللغة

(٣٥) ف. نيكتين: العائلة البارزانية، ترجمة الدكتور كاوس قفطان، مجلة شمس كُردستان، العدد الخامس، بغداد ١٩٧٣.
(٣٦) بيرش، المصدر نفسه.
(٣٧) كريم، المصدر نفسه، صفحة ٦٠٤
(٣٨) كريم، المصدر أعلاه، صفحة ١٠٨.
(٣٩) بيرش، المصدر نفسه، صفحة ٩١.

الكُردية لغة رسمية في كُردستان[٤٠].

لكن السلطات العثمانية التي كانت تعمل على تطويع العشائر الكُردية لم تستسغ هذه المذكرة، إنما اعتبرتها إشارة الى تصاعد الدور السياسي للشيخ عبدالسلام وتعاظم نفوذه بين العشائر من جهة، وخروجه على الطاعة العثمانية من جهة ثانية، ودعوته الى فصل المناطق الكُردية عن كيان الإمبراطورية من جهة ثالثة.

لهذا كلّه، سارع العثمانيون الى تبني الخيار العسكري في ردّهم على تطلعاته، بادئين بتعيين ولاة قساة على منطقتي بارزان وبهدينان أطلقوا يدهم في الإجراءات التي صمموا عليها[٤١]. في ما بعد، وبالذات في نهاية ١٩٠٧ توّجوا هذه السياسة بإرسال قوة عسكرية كبيرة بقيادة الفريق محمد فاضل الداغستاني لمهاجمة بارزان.

قاوم البارزانيون الهجوم العثماني الجديد مدة شهرين. لكن الجيش الذي كان مدعوماً بمدافع جبلية، إستطاع في نهاية المطاف فرض سيطرته على المنطقة وإحراق قرية بارزان والقرى المحيطة بها وإعتقال النساء والاطفال. أما الشيخ عبدالسلام فإضطر للإنسحاب مع مقاتليه الى الجبال المحيطة بالمنطقة. هذا في حين إعتقلت السلطات العثمانية العوائل البارزانية وبينهم والدة الشيخ عبدالسلام وشقيقه مصطفى الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره آنذاك ووضعتهم في سجن مدينة الموصل.

بارزان: التسامح الديني

في خضم الإنتفاضات والعمليات القتالية التي عصفت بمنطقة بارزان ظلَّ الشيخ عبدالسلام حريصاً على الإحتفاظ بدعوته الى التسامح والأخوة والمساواة. وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة الإهتمام الكبير الذي أولاه بإدامة علاقات التآلف الديني والثقافي والإجتماعي مع التكوينات الدينية المختلفة في منطقته. وفي دلالة واضحة على الرؤية المنفتحة للشيخ عبدالسلام يصح

(٤٠) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٨-١٩
(٤١) الدملوجي، المصدر نفسه، صفحة ٨٨

إيراد أمثلة غير قليلة تشير الى تسامحه الديني، أبرزها محاولته إقناع المستشرق اللاهوتي الأسكتلندي ويگرام بفتح مدارس تعليمية في المنطقة الكُردية لتعليم الأطفال الكُرد كما سبق القول.

والواقع أن ويگرام الذي عاين حال المسيحيين في منطقة بارزان وتحدث الى كثيرين منهم، اعتبر أن الشيخ عبدالسلام هو موضع ثقة في تطبيق العدالة وتأمين المساواة التامة بين الكُردي، المسلم والمسيحي على السواء، وهذا ما جعل المسيحيين ينعمون بالأمن والحصانة من الإضطهاد والنهب والسلب في عهده، مضيفاً أن عدالته الدينية هي السبب في أن العثمانيين وموظفيهم يكرهونه[٤٢]. بل أن ويگرام لم يتردد عن إطلاق إسم (شيخ النصارى) على الشيخ عبدالسلام تجسيداً لدوره في إنصاف المسيحيين ورعاية أوضاعهم وحماية أمنهم[٤٣].

الى ذلك، يذكر مسعود بارزاني أن الشيخ عبدالسلام إلتجأ بعد هجوم القوات العثمانية على بارزان في عام ١٩٠٧ الى قرية (تياري) المسيحية في جنوب شرقي تركيا وإستقر في منزل مار شمعون زعيم الآثوريين الى حين عودته الى منطقته في العام التالي[٤٤].

وما زاد من أهمية التسامح الديني في دعواته، أن الفترة التي نشط فيها شهدت إجتماع غيوم إبادة الأرمن في أفق الدولة العثمانية. وعلى رغم أن عدداً من الباحثين والأوساط السياسية يحمّلون عشائر كُردية مسؤولية المشاركة في تقتيل الأرمن لدوافع دينية في العقدين الأولين من القرن العشرين، إلا أن الوقائع التاريخية تكشف أن عشائر كُردية كثيرة، في مقدمها العشيرة البارزانية، دافعت بشدة عن الأرمن في وجه الحملات العثمانية. وكان لنظرة الشيخ عبدالسلام التسامحية دور كبير في توسيع رقعة التسامح الديني في المجتمع الكُردي، نتج عنه في ما بعد، ما يشبه

(٤٢) ويگرام، الترجمة العربية، المصدر نفسه، صفحة ١١٥
(٤٣)
Edgar' T.A. and W.A. Wigram. The Cradle of Mankind: Life in Eastern Kurdistan . London: A&C. Black. 1992. P153.
(٤٤) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٩

إنعدام دعوات التشدد والتطرف الديني بين الكُرد. وهذا ما يمكن ملاحظته الى الوقت الراهن.

وفي إستكمال لافت لتلك النظرة، يمكن التذكير بأن الشيخ أحمد بارزاني شقيق الشيخ عبدالسلام ووريثه في المشيخة الصوفية في بارزان في ١٩١٤، أرسل في ١٩٢٠-١٩٢١ قوة مسلحة من المقاتلين البارزانيين الى تركيا لنجدة الأرمن الذين كانوا يتعرضون الى حرب إبادة جماعية شاملة. وبالفعل استطاعت القوة البارزانية إنقاذ عوائل أرمنية عدة من براثن المذبحة الدموية بينها عائلة اندرانيك باشا أحد زعماء الأرمن(٤٥).

لكن التسامح الديني لم يكن الإنجاز الإنساني الوحيد للشيخ عبدالسلام. إنما الواضح أنه خصص، كذلك، إهتماماً كبيراً بالإصلاحات الإقتصادية والإجتماعية والتعليمية في منطقته. وكانت أولى خطواته على هذا الطريق تشجيعه التعليم وإقناعه السلطات التركية بفتح مدرسة في قرية بارزان في ١٩١٠، وتوزيعه الأرض على الفلاحين.

عند الحديث عن إصلاحات الشيخ عبدالسلام وأفقها التطبيقي على أرض الواقع، لابد من الأخذ في عين الإعتبار، الصعوبات التي أحاقت بتجربته نتيجة الموقف العدائي الذي وقفته الدولة العثمانية. وكان إستمرار القوات العثمانية في حملاتها العسكرية وتدميرها بارزان عدة مرات، صوراً واضحة عن تلك الصعوبات.

في هذا الخصوص، يشير ويگرام الى أن الشيخ عبدالسلام لم يكن الطرف الملام في العمليات القتالية التي طالت المنطقة الكُردية، إنما المذنبون الحقيقيون كانوا ولاة الموصل وبعض رجال العصابة المتفسخة الذين كانوا يتولون الإدارة فيها. فهؤلاء، بحسب ويگرام، طمعوا في بعض القرى التي تقع ضمن نفوذ الشيخ عبدالسلام، لكن شيخ بارزان أبى أن يفارق هذه القرى ويتنازل عنها للعثمانيين(٤٦).

(٤٥) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ٢٤
(٤٦) ويگرام، الترجمة العربية، المصدر نفسه، صفحة ١١٥

في ذلك كلّه، لم يكن الشيخ عبدالسلام داعية حلّ المشاكل مع العثمانيين عبر القتال. بل أنه فضّل التوصل الى حلول سلمية تصالحية معهم. وفي هذا المنحى عقد في ربيع عام ١٩١٠ صلحاً مع العثمانيين. وكان من شأن ذلك أن يهيّء أمامه فرصة جيدة لإعادة ترتيب علاقاته وصلاته مع الجمعيات الثقافية والسياسية الكُردية في اسطنبول والمدن الكبيرة الأخرى من جهة، وتجاوز الخلافات العشائرية والقبلية التي نشأت خلال سنوات الإنتفاضات المتكررة ضد العثمانيين من جهة ثانية.

في السياق نفسه، يشير أكثر من باحث الى نجاح الشيخ عبدالسلام في تطبيع علاقاته مع السيد طه نهري رئيس عشيرة نهري وإسماعيل آغا (سمكو) رئيس عشيرة شكاك ورؤساء عشائر أخرى في بجيل جنوب بارزان وبرادوست شرقها.

وفي السنوات القليلة اللاحقة لم يعد العثمانيون يتخوفون من توجهات الشيخ عبدالسلام نحو تقوية نفوذه الداخلي والعشائري فحسب، بل بدأوا يتخوفون من عزمه على تنشيط البعد الدولي للحركة القومية الكُردية. وكانت تخوفاتهم في هذا الإتجاه تنبع من محاولة الشيخ الإتصال بحكومة روسيا القيصرية. وما زاد منها أن روسيا كانت تتطلع منذ عقود نحو الإمتداد جنوباً على حساب الدولة العثمانية. هذا في الوقت الذي كان العالم يتجه فيه نحو أزمة عميقة وصراعات متفاقمة تهدد بإنفجار حرب عالمية.

والواقع أن الفترة الممتدة بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٤ شهدت إنتشار سخط كبير بين القوميات غير التركية في إطار الدولة العثمانية. والواضح أن السبب الرئيسي في هذا السخط تمثل في سياسات التتريك غير الحكيمة التي إتبعتها حكومة عصبة الإتحاد والترقي التركية.

في هذا الإتجاه، يشير الباحثان ماريون فاروق سلكليت وبيتر سلكليت في دراسة مشتركة الى أن هذا السخط وصل أجزاء واسعة في الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية. وينقل الباحثان عن تقارير للقنصل الفرنسي في حلب، أن هذه المدينة التي هي ابعد من أن تكون مرتعاً للعروبة، إنتشرت فيها موجات من المشاعر الإنفصالية والموالية لبريطانيا بين عناصر من سكانها المسلمين في

ربيع عام ١٩١٣[٤٧].

في هذه الأثناء، إندلعت في منطقة (قره سو) في بتليس الكُردية إنتفاضة واسعة في ١٩١٣ بقيادة الشيخ سعيد علي. وعلى رغم أن الدولة العثمانية إستطاعت إخمادها بسرعة وإعتقال زعيمها وعدد من قادتها الميدانيين وإعدامهم في السابع من آيار من العام نفسه، إلا أنها ظلّت تلح على أن تحقيقاتها في خلفيات الإنتفاضة تثبت ضلوع الشيخ عبدالسلام في الإنتفاضة وعلاقاته الوثيقة مع زعمائها[٤٨].

بعد هذا بأشهر قليلة، إندلعت إنتفاضة أخرى في منطقة بتليس في ربيع ١٩١٤ قادها ملا سليم أفندي. وتمثلت خطورة هذه الإنتفاضة في أنها إنتشرت بسرعة كبيرة وأيّدها عدد من رؤساء العشائر الكُردية الى أن وصل عدد مقاتليها الى ثمانية آلاف مقاتل. كما أنها حاولت الحصول على دعم الآثوريين والأرمن ضد الدولة العثمانية[٤٩]. لكن الهجمات العسكرية المتلاحقة للعثمانيين أدت في نهاية نيسان ١٩١٤ الى سحق الإنتفاضة ولجوء قائدها ملا سليم الى القنصلية الروسية في بتليس.

في الفترة عينها كانت منطقة بارزان تعيش توتراً وإضطراباً واضحين. هذا في الوقت الذي إجتمع فيه فلأحو المنطقة حول زعامة الشيخ عبدالسلام الذي كان لايني يحضّ رؤساء العشائر على توحيد صفوفهم وممارسة الضغط على اسطنبول لإجبارها على التخلي عن سياسة تجاهل القضية الكُردية. ويذكر الدكتور كمال مظهر أحمد أن الشيخ عبدالسلام بدأ في ربيع عام ١٩١٤ بالتمهيد لإطلاق إنتفاضة جديدة وضمان دعم روسيا القيصرية وبريطانيا للمطالب الكُردية[٥٠].

(٤٧) القومية: مرض العصر أم خلاصه؟ مجموعة باحثين أوروبيين وعراقيين، أعدّه للنشر: فالح عبدالجبار، مقال: منابع نشوء القومية العربية في المشرق ونزعة العروبة في العراق، ماريون فاروق سلكليت وبيتر سلكليت، دار الساقي، لندن ١٩٩٥، صفحة ١٢٩.

(٤٨) حمدي، وليد: كُردستان والأكراد في الوثائق السرية البريطانية، باللغة الفارسية، إيران، همدان ١٣٧٨ (التقويم الإيراني) ١٩٩٩ (الميلادي)، صفحة ١٦٦.

(٤٩) أحمد، كمال مظهر: المصدر نفسه، صفحة ٤٤ .

(٥٠) أحمد، كمال مظهر: المصدر نفسه، صفحة ٤٦ .

بدا العثمانيون، في هذا المقطع الزمني، في عجلة من أمر القضاء على الحركة الكُردية. وكان شعورهم أن الوقت لم يعد فيه متسع كاف للإنتظار، نتيجة إجتماع غيوم حرب عالمية، ما دفعهم الى إستئناف حملتهم العسكرية ضد بارزان ورواندوز وعقرة والعمادية في حزيران من العام نفسه. وكان هدف الحملة إعتقال الشيخ عبدالسلام. لكن الأخير رفض الإستسلام، مفضلاً مقاومة الهجوم ومن ثم الإنتقال الى كُردستان إيران والإستقرار في أطراف مدينة أورمية في شمال غربي البلاد.

والأرجح أن هذا الإنتقال الى الجانب الإيراني من الحدود لم يأت هرباً من بطش العثمانيين فحسب، إنما مثّل بداية محاولة من الشيخ عبدالسلام لإستغلال وجوده في مناطق قريبة من الحدود الروسية في إتجاه الإتصال بالسلطات القيصرية وزيارة مدينة تفليس (الروسية آنذاك) برفقة حليفه في كُردستان إيران إسماعيل شكاك. بالفعل إستطاع بعد فترة زمنية غير طويلة الوصول الى تفليس حيث إلتقى مندوب القيصر الروسي وبحث معه في شؤون الكُرد وتداول ايضاً في إمكان ضمان دعم روسي لإنتفاضته القومية.

والواقع أن هذه الزيارة كانت في حقيقتها أولى المحاولات الجدية في التاريخ الكُردي الحديث لإخراج الحركة القومية الكُردية من إطارها المحلي الى آفاق دولية. لكن روسيا التي تطلعت في تلك الفترة الى إقامة حلف حربي مع الدولة العثمانية ضد دول الحلفاء، تجنبت تقديم دعم ملموس الى الشيخ عبدالسلام رغم أنها لم تغلق الباب كلياً في وجهه.

أخافت هذه الزيارة العثمانيين كما لم يخفهم أي نشاط كُردي آخر في ذلك الشطر الزمني. ويذكر زبير بلال إسماعيل ان المخابرات التركية كانت ترصد حركات الشيخ عبدالسلام، وعلمت برحلته الى تفليس ومقابلته بعض المسؤولين الروس، لأن المنطقة التي استقر فيها الشيخ مع انصاره لم تكن بعيدة عن الحدود التركية. كما أن المخابرات نفسها تابعت إتصالات الشيخ برؤساء العشائر الكُرد بعد عودته من تفليس[٥١].

لذلك أعلن العثمانيون جائزة كبرى لمن يلقي القبض عليه حياً أو ميتاً. وفي

(٥١) اسماعيل: المصدر نفسه، صفحة ٦٢ .

هذا المقطع الزمني، الحساس على الأصعدة الكُردية والإقليمية والدولية، نجح العثمانيون في مسعاهم لإعتقال الشيخ عبدالسلام. وكان ذلك بعد أن دبرت له مجموعة من عملاء السلطة العثمانية مؤامرة في طريق عودته من تفليس أدت الى إعتقاله في إحدى القرى الكُردية القريبة من الحدود الإيرانية، حيث جرى تسليمه الى السلطات العثمانية التي لم تتردد عن إعدامه شنقاً مع عدد آخر من مرافقيه في الرابع عشر من كانون الأول ١٩١٤.

ويصف المؤرخ الموصللي، صديق الدملوجي، الذي إلتقى بالشيخ عبدالسلام في السجن، إعدامه في سجن الموصل بأنه عكس رنّة حزن وأسف عميقة عند الكُرد قاطبة، بمن فيهم الكُرد غير الموالين له(٥٢).

الشيخ أحمد: إستمرار الإنتفاضات

بعد إعدام الشيخ عبدالسلام، دخلت الحركة القومية الكُردية في مرحلة بالغة التعقيد والحساسية. والواقع أن أسباب هذا التعقيد إستمدت جذورها من دخول العالم في ذلك العام حقبة الحرب العالمية الأولى التي لم يمضِ وقت طويل حتى إندلعت في الثامن والعشرين من تموز ١٩١٤. وكانت منطقة الشرق الأوسط التي تقع كُردستان في قلبها الجغرافي إحدى أهم الساحات التي تأثرت بسنوات الحرب وما تمخض عنها من نتائج.

في عام ١٩١٤ تولى الشقيق الأصغر للشيخ عبدالسلام، الشيخ أحمد (١٨٩٦-١٩٦٩) مشيخة بارزان في وقت لم يكن تجاوز الثامنة عشر من عمره. وفي بداية توليه المشيخة إنهمك الشيخ أحمد في إعادة تنظيم صفوف عشيرته التي أنهكتها حملات الملاحقة والتشريد والقتل. والأرجح أن توليه المشيخة وهو في سنٍّ مبكرة وإفتقاره الى الخبرة الكافية جعلتاه ينتظر الى عام ١٩٢٧ حتى يعود الى تنشيط دور البارزانيين في الحركة القومية الكُردية.

لكن هذا لايعني أن الشيخ أحمد توقف عن التفاعل مع الحركة الكُردية. ففي ١٩١٩ وجّه قوة من أتباعه الى نجدة الشيخ محمود الحفيد في السليمانية. وفي العام التالي وجّه قوة أخرى الى كُردستان تركيا لمعاونة

(٥٢) الدملوجي: المصدر نفسه، صفحة ٨٩

الشيخ سعيد پيران. وقوة ثالثة في مطلع العشرينات لنجدة الأرمن. لكن مع هذا ظلّت مناطق بارزان طوال أكثر من عشر سنوات هادئة في الوقت الذي كانت فيه الحكومة البريطانية منهمكة في تأسيس الدولة العراقية الحديثة اعتباراً من ١٩٢٠. والأرجح أن الشيخ أحمد، كان في حال إنتظار لما يمكن أن تسفر عنه وعود بريطانيا الخاصة بتحقيق مطالب الشعوب المتحررة من النير العثماني.

في هذه الفترة، كانت الحركة القومية الكُردية تعيش تفاعلات متباينة. وما زاد من حدَّة هذه التفاعلات أن القوات البريطانية دخلت شط العرب ونزلت في الفاو في بداية حملتها على العراق في تشرين الثاني ١٩١٤، لاحقاً قادتها هذه العملية نحو كُردستان الجنوبية. وحين وضعت الحرب أوزارها بعد قبول الأتراك العثمانيين بهدنة مندرس في ١٩١٨، كان البريطانيون إحتلوا الجزء الأكبر من كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق).

أطلق البريطانيون والاميركيون والفرنسيون خلال سنوات الحرب وعوداً وتصريحات كثيرة حول حق الشعوب المتحررة في تقرير مصيرها وتشكيل كياناتها الوطنية. وكان أشهر هذه الوعود، البنود التي أعلنها الرئيس الأميركي ودرو ولسن حول حق الشعوب في تقرير المصير.

في إطار هذه الحالة، تصح الإشارة الى قيام الشيخ محمود الحفيد (١٨٨٣-١٩٥٦)(٥٣) في عام ١٩١٩ بتأسيس إدارة كُردية في منطقة السليمانية تحت الإشراف البريطاني. كذلك زيارة المندوب الكُردي السفير العثماني السابق في السويد، الديبلوماسي شريف باشا خندان (١٨٦٥-١٩٤٥) الى پاريس في ١٩١٩ للمشاركة في مؤتمر الصلح وطرح المطالب الكُردية في بناء كيان قومي مستقل. وكانت نتيجة هذه المشاركة أن المعاهدة التي تمخضت عن المؤتمر في آب ١٩٢٠ (معاهدة سيڤر) نصّت على حق الكُرد في شمال خط بروكسل، الوهمي، في حكم ذاتي قابل للتحول الى الإستقلال التام، مع السماح لسكان كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق) بالإنضمام الى

(٥٣) حفيد الشيخ معروف النودهي شيخ الطريقة القادرية في أطراف السليمانية في عهده. ونجل الشيخ سعيد.

هذا الحكم في حال رغبتهم(٥٤).

لكن البريطانيين الذين أخذوا يبحثون عن ملك يولونه عرش العراق، لم تتميز سياستهم إزاء الكُرد سوى بالغموض والتذبذب من جهة، وغلبة مصالحهم الإقتصادية على آفاقها. وفيما الموقف البريطاني على هذه الشاكلة، أخذت الأجواء الإقليمية والدولية تضيق أمام الحركة القومية الكُردية. وكانت أصداء المذابح الأرمنية التي اقترفتها السلطات العثمانية في الفترة بين عامي ١٩١٤-١٩٢١ لاتزال طريّة في الأذهان. لهذا لم يكتف الكُرد بالتعبير عن رغباتهم القومية عن طريق الخطاب السياسي فحسب، بل بدأوا في إنتهاج طريق المقاومة المسلحة ايضاً.

والحقيقة أن مقتل حاكم الموصل البريطاني الكولونيل بيل وحاكم عقرة الكابتن سكوت في منطقة بارزان في أواخر ١٩١٩، أعطى مثالاً واضحاً على شعور الإحباط الذي سكن الكُرد تجاه سياسة بريطانيا. لاحقاً، أسهمت هذه التحركات في حضّ عشائر وقطاعات سكانية كُردية أخرى على توسيع إنتفاضاتهم ضد البريطانيين.

ويروي الباحث السوڤياتي كاتلوف أن إنتفاضة الشيخ أحمد بارزاني في ١٩١٩ لعبت دوراً كبيراً في تعبئة الناس عرباً وكُرداً للمعارك المقبلة ضد البريطانيين(٥٥). ويشير كذلك الى تأثيرات تلك الإنتفاضة على منطقة بالك القريبة من رواندوز التي ثارت فيها في العام نفسه إضطرابات في وجه البريطانيين بقيادة أحد رؤساء عشائرها (يوسف بك)، وعلى رفض عشيرة غويان في منطقة زاخو وعشائر أخرى في خانقين ورانية التعاون مع البريطانيين(٥٦).

تصح في هذا الصدد الإشارة الى أن جزءً من هذه التحركات كان له علاقة بتشجيع تركي أو بخشية العشائر والإقطاعيين الكُرد من إمتداد النفوذ

(٥٤)
Vanly, Ismet Sheriff: Kurdistan In Iraq. P161.

(٥٥) ل. ن. كاتلوف: ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ترجمة الدكتور عبدالواحد كرم، بغداد ١٩٨٥، صفحة ١٥٦.

(٥٦) زبير: المصدر نفسه، صفحة ٩٠

البريطاني الى مناطقهم. لكن المشكلة أن عدداً من المؤرخين العراقيين فسروا الإنتفاضات الكُردية في هذه الفترة، بما فيها الإنتفاضة اللاحقة للشيخ أحمد بارزاني في ١٩٢٧، من زاوية أحادية مفادها أنها أشّرت الى سخط الكُرد على إمتداد الإدارات المحلية الى مناطقهم. هذا بينما ترجح الوقائع أن هذه الإنتفاضات تمتعت بمحتوى قومي وإندلعت لأسباب من أهمها الغبن القومي الذي لحق بالكُرد.

وما يؤكد ذلك أن الكُرد لم يشاركوا في الإستفتاء الذي جرى لتنصيب الملك فيصل الأول في ١٩٢٠. كما أخذوا يتلمسون نتائج تراجع بريطانيا والعراق عن المادة الثالثة في إتفاقيتهما المشتركة الموقعّة في العاشر من تشرين الثاني ١٩٢٢ التي تضمنت موافقة بغداد على تنظيم قانون أساسي يأخذ في عين الإعتبار حقوق ورغائب ومصالح جميع السكان القاطنين في العراق من دون تمييز بينهم بسبب القومية أو الدين أو اللغة(٥٧).

لهذا كلّه تحرك الكُرد على الأصعدة السياسية والعسكرية. كما تحركوا في شكل منفرد، أو في شكل محاولات منسّقة مع الآثوريين لإقناع الأوساط البريطانية والدولية بأخذ المطامح القومية الكُردية في نظر الإعتبار. في فترة لاحقة إحتجوا بشدة على قيام عصبة الأمم بإلحاق كُردستان الجنوبية في ١٩٢٥ بالدولة العراقية الحديثة على الضد من إرادة شعبها أو على الأقل من دون إستمزاج رأيه.

والواقع أن معاهدة سيڤر التي تمخضت عن مؤتمر الصلح في پاريس نصت في ثلاثة من بنودها الرئيسية (٦٢ و٦٣ و٦٤) على حقوق كُردية واضحة. غير أن المعاهدة لم تعش طويلاً، إذ سرعان ما تراجعت عنها تركيا وبريطانيا والعراق وبقية الدول الكبرى لصالح إتفاقية (لوزان) في ١٩٢٣. وكان مصطفى كمال أتاتورك نجح في الخروج منتصراً من حربه ضد اليونان (١٩١٩-١٩٢١) وأسس جمهورية عسكرية مستقلة لوّحت بخيار التقارب مع الإتحاد السوڤياتي في حال استمرار العمل بإتفاقية سيڤر.

(٥٧) الحسني، عبدالرزاق: العراق في ظل المعاهدات، مطبعة دار الكتب، بيروت ١٩٨٣، الطبعة السادسة، الصفحة ٣٧.

والحقيقة أن تركيا لم تكن القوة البارزة الوحيدة في فضاء الشرق الأوسط المحيط بالكُرد. ففي إيران إنهمك العقيد رضا خان بدوره في تثبيت كيان دولة إيرانية عسكرية حديثة بعد وصوله في ١٩٢٣ الى السلطة عن طريق إنقلاب عسكري. أما في العراق، فكان البريطانيون في صدد تعزيز دعمهم لقيام دولة عراقية متماسكة عن طريق مساعدتها في بناء جيش حديث وعقد إتفاقيات عسكرية وأمنية معها بهدف القضاء على أي إعتراض داخلي أو مطامح خارجية.

في هذه الأثناء أصدر مجلس عصبة الأمم في ١٦ كانون الأول ١٩٢٥ قراراً نصّ على تسوية مشكلة ولاية الموصل (كُردستان الجنوبية) عن طريق ضمّها الى العراق. وفي الخامس من حزيران ١٩٢٦ عقدت تركيا والعراق وبريطانيا إتفاقية ثلاثية أكدت فيها الدول الثلاث إلتزامها قرار عصبة الأمم وإستعدادها للعمل بموجبه.

والأرجح أن الشيخ أحمد وجد أن الحال الكُردية أصبحت تتطلب تكاتفاً قومياً أقوى لمواجهة المخاطر المحتملة. وهذا ما دفعه الى حل خلافاته مع عشيرتي الزيبارية والسورجية. كما أقام علاقات قوية مع رئيس عشيرة شكاك إسماعيل آغا بهدف التنسيق المشترك لمواجهة الحكومتين العراقية والبريطانية. وكانت القوة الجوية البريطانية قصفت منطقة بارزان في خريف ١٩٢٢.

إنتفاضة عام ١٩٢٧

في عام ١٩٢٧ بدأت الحكومة العراقية تتعاون في شكل وثيق مع الإنتداب البريطاني من أجل مدّ نفوذ الدولة وإداراتها المحلية الى مختلف أرجاء البلاد، خصوصاً إرسال أجهزة الشرطة وإقامة المخافر في منطقة بارزان. وكان الهدف الواضح من هذه السياسة التضييق على نفوذ الشيخ أحمد بارزاني وتشديد قبضة الدولة المركزية على التنوعات الاثنية والدينية في كُردستان العراق.

والواقع أن بريطانيا بدأت منذ هذا العام بتكريس إهتمام استثنائي ببقاء المناطق الكُردية في إطار الدولة العراقية، حتى وإن تطلّب ذلك قمع تحركات

الكُرد وطموحاتهم وحقوقهم القومية بالحديد والنار. وكان السبب الرئيسي في ذلك أن شركة بريطانية إكتشفت أكبر الحقول النفطية في العالم الى ذلك الوقت قرب مدينة كركوك.

لكن المشكلة أن بغداد ولندن إنتهجتا طريقاً غير طريق التفاهم لتنفيذ مخططاتهما. وتجلى هذا في محاولة بريطانيا توطين الآثوريين في قرى بارزان. وكان الآثوريون تعرضوا الى ضربة عسكرية كبيرة في مواطنهم على يد مؤسس الدولة التركية الحديثة مصطفى كمال أتاتورك، ما دفع بالبريطانيين الى البحث عن وسيلة ممكنة لإسكانهم في مواطن البارزانيين شمال أربيل[٥٨].

والواقع أن البارزانيين تمتعوا على الدوام بعلاقات وطيدة مع الآثوريين وزعمائهم. وهذا ما دفع بهم الى تجنب الإصطدام معهم على رغم أن هؤلاء انتسبوا الى القوات البريطانية في كتائب عسكرية خاصة عُرفت بقوات ليفي. لكن بدلاً عن ذلك، وجّه البارزانيون أسلحتهم نحو القوات البريطانية والعراقية التي وقفت وراء خطة توطين الآثوريين وشجّعتها وحاولت تطبيقها عن طريق القسوة والإكراه.

يرى زبير بلال إسماعيل أن العامل المباشر لإندلاع إنتفاضة ١٩٢٧ هو قيام السلطات البريطانية بتنفيذ مشروع توطين الآثوريين في منطقة برادوست شمال شرق منطقة بارزان. لكنه يضيف أن العامل القومي أيضاً كان له دور لافت في الإنتفاضة. فقد أراد الشيخ أحمد إستئناف النضال القومي الكُردي الذي توقف في كُردستان الجنوبية بسبب إضطرار الشيخ محمود في ١٩٢٧ الى الإنزواء عند الحدود الإيرانية نتيجة الشروط التي فرضها البريطانيون والعراقيون عليه[٥٩].

يجدر ذكره أن الكُرد في ذلك الشطر الزمني كانوا يعيشون صدمة تراجع الحلفاء عن الوعود التي قطعوها في معاهدة سيڤر، ومن ثم إقدام القوات التركية على إخماد إنتفاضة الشيخ سعيد پيران في أطراف درسيم بالحديد

(٥٨) الحسني، عبدالرزاق: تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثالث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٨، صفحة ٥٩.
(٥٩) زبير، المصدر نفسه. صفحة ٩٧ .

والنار وإعدام زعمائها في ١٩٢٥. هذه الأوضاع دعت بالجنرال الكُردي إحسان نوري باشا بالتعاون مع حزب (خويبون) الذي تأسس في بيروت في ١٩٢٧، الى إطلاق إنتفاضة في العام نفسه في جبال كُردستان تركيا إستمرت الى عام ١٩٣١.

في غضون ذلك، كانت الدولة العراقية تشعر أن يوم إستقلالها من الإنتداب البريطاني في عصبة الأمم أصبح قريباً، وكانت تخشى أن تتأثر طبيعة هذا الإستقلال في حال إستمرار الكُرد في إنتفاضاتهم، خصوصاً أن البريطانيين كانوا يعملون على تضمين ورقة الاستقلال العراقي فقرات تنص على ضمان حقوق الكُرد الثقافية ضمن الدولة العراقية من دون الإشارة الى حقوقهم السياسية. وأوضح إشارة الى هذه الخشية تتجسد في مذكرات رئيس أركان الجيش العراقي، آنذاك، طه الهاشمي الذي شكك في موقف البريطانيين من القضية الكُردية متسائلاً: لاأدري فيما إذا كانت الجماعة (يقصد بها بريطانيا – س ش) ترغب في أن تنشأ الفوضى في كُردستان بتأييدها الضمانات قبل دخول العراق الى عصبة الأمم(٦٠). ويقصد بها الضمانات الخاصة بحقوق الأقليات وبينها الكُرد في العراق.

وما زاد من هذه المخاوف العراقية أن مدينة السليمانية في كُردستان العراق شهدت في السادس من أيلول ١٩٣٠ تظاهرة كبيرة واجهتها السلطات العراقية بإنزال الشرطة والجيش الى شوارع المدينة، ما أدى الى سقوط عدد من القتلى والجرحى بين سكان المدينة. وكانت الإتفاقية العراقية البريطانية في الثامن عشر من تموز ١٩٣٠ قد خلت من الإشارة الى الحقوق القومية التي عيّنتها عصبة الأمم للكُرد في نصّ قرارها المتخذ في جلسة ١٦ كانون الأول ١٩٢٥(٦١).

قبل إتفاقية ١٩٣٠، وبالذات في التاسع والعشرين من شباط ١٩٢٩، قدّم ستة نواب كُرد مذكرة الى رئيس الوزراء العراقي إشتكوا فيها من أن حكومته

(٦٠) الهاشمي، طه: مذكرات طه الهاشمي ١٩١٩-١٩٤٣، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٧، صفحة ١٠.
(٦١) عبدالرزاق: المصدر نفسه، صفحة ٢٣٠

لم تنفذ في شكل ملائم توصيات عصبة الأمم في شأن إدارة المنطقة الكُردية. الى ذلك، طلب النواب في مذكرتهم زيادة ميزانية الإنفاق على التعليم في المنطقة الكُردية وتشكيل إقليم كُردي موحد من ألوية أربيل والسليمانية وكركوك والأقضية الكُردية التابعة للواء الموصل، إضافة الى تعيين منسق كُردي للتنسيق بين الحكومة المركزية والإدارة الكُردية(٦٢).

لاحقاً، أبرق عدد من المتنورين والسياسيين الكُرد الى عصبة الأمم مطالبين بإقرار الحقوق القومية الكُردية. وكان الكُرد وجّهوا عدداً كبيراً من الإحتجاجات الى الحكومة العراقية لأن المعاهدة العراقية البريطانية التي وُقّعت في ٣٠ حزيران ١٩٣٠ خلت من أية إشارة الى الإدارة الكُردية الخاصة التي كان الإنكليز وعدوا الكُرد بها(٦٣).

على هذا الصعيد، يقول الباحث البريطاني روجر أوين أن العراق إجتاحته موجة إعتراضات في عام ١٩٣٠ من جانب الأقليات والجماعات غير العربية حين أُعلن في عصبة الأمم أن العراق سيصبح دولة مستقلة بعد سنتين أي في عام ١٩٣٢(٦٤).

أما الباحث الكُردي الإيراني أمير حسن پور، فيشير الى أن توقيع الإتفاقية أدى الى سريان إضطراب عام في كُردستان، ما أفضى الى أن يوجّه الكُرد في السادس والعشرين من تموز من العام نفسه مذكرة أخرى الى عصبة الأمم للمطالبة بحقوقهم. وخلال شهري آب وتشرين الأول وجّهوا ثماني مذكرات إضافية الى العصبة في الخصوص ذاته(٦٥).

لكن بغداد لم تكن في وارد حلّ المشكلة الكُردية عن طريق تلبية الحد الأدنى من المطامح القومية للكُرد. بل كانت ترتاب في أمرهم وتنظر إليهم بإعتبارهم عنصر شغب ومشاكل للدولة العراقية. وينقل الدكتور المرحوم وليد

(٦٢) Hasanpour, Amir, Kurdish Times, Vol.4 Nos. 1&3, Summer 1991, The policy on the Kurdish language. P47.
(٦٣) كُردستان وكرد در إسناد محرمانه بريطانيا، كتاب باللغة الفارسية عن وثائق السفارة البريطانية في طهران عن الموضوع الكُردي. صفحة ١٢١
(٦٤) القومية مرض العصر أم خلاصه؟ المصدر نفسه، صفحة ١٤٠
(٦٥) أمير: المصدر نفسه، صفحة ٤٨ .

حمدي عن وثيقة بريطانية[٦٦] أن الملك فيصل الأول إجتمع في ٢٠ أيار ١٩٣٠ مع المندوب السامي البريطاني في العراق وتباحث معه في المسألة الكُردية ووضع الكُرد في كُردستان العراق. وكان المندوب السامي يحاول حثّ الملك على إتخاذ موقف إيجابي من قضايا الكُرد خاصة لجهة تعيين الموظفين منهم في كُردستان وإستخدام اللغة الكُردية كلغة رسمية حسبما إلتزمت بهما الحكومة العراقية في بيان رسمي صدر في هذا الخصوص من قبل مجلس الوزراء في ١١ تموز ١٩٢٣، وخطاب رئيس الوزراء العراقي في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٦.

ويشير التقرير الى أن الملك فيصل الأول ردّ على ذلك بقوله إنه في الوقت الذي يؤيد فيه سماح الحكومة بإستخدام اللغة الكُردية، إلا أنه لايطمئن الى نشاط بعض الجمعيات السياسية الكُردية، وأن وجود هذه الجمعيات في العراق يعرض علاقات العراق الى الإحراج مع إيران وتركيا، بحسب الملك فيصل الأول.

وإذ قضت الحكومة على إنتفاضة السليمانية بالحديد والنار، بدأت تتهيأ لمواجهة البارزانيين في أقصى شمال شرقي العراق. والحقيقة أن الإنتظار لم يطل، إذ شنت وحدات من الجيش والشرطة العراقية هجوماً على بارزان في التاسع من كانون الأول ١٩٣١ بدعم مباشر من القوة الجوية الملكية البريطانية. وكانت الذريعة الحكومية لهذا الهجوم أن الشيخ أحمد يرفض إقامة مخافر شرطة في منطقته، ما اعتبرته الحكومة تمرداً يبرر سوق القوة العسكرية ضده.

لم تستطع القوات العراقية والسلاح الجوي البريطاني قمع البارزانيين. إنما أسهم هذا القمع الدموي في إتساع موجات التعاطف مع إنتفاضة الشيخ أحمد، إضافة الى تعاظم الشعور القومي الكُردي في المدن وبين أوساط الطلاب والمثقفين الكُرد. وهذا في الوقت الذي خضّت الدولة العراقية مخاوف غير قليلة من إستغلال تركيا الكمالية وإيران الشاهنشاهية الورقة الكُردية

(٦٦) الدكتور وليد: الآكراد وكُردستان في الوثائق البريطانية – دراسة تاريخية وثائقية.
أنظر الوثيقة المرقمة: F0371 Note of Interview between the High Commissioner for Iraq and King Faysal on 29 May 1930.

لخلق مشاكل إضافية أمام العراق بهدف عرقلة نيله الإستقلال.

لهذا سارع مجلس الوزراء العراقي في جلسته المنعقدة في الثاني عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ الى إتخاذ قرار في شأن معاودة الهجوم العسكري على بارزان في ربيع العام التالي[٦٧].

بالفعل عادت القوات العراقية الى شنّ حملتها العسكرية ضد بارزان في اليوم المحدد. وكانت الحملة في حقيقتها إحدى أوسع وأشرس الحملات العسكرية ضد المنطقة بعد أن رفض الشيخ أحمد عرضاً من الحكومة العراقية بالإستسلام.

ويروي المؤرخ الكُردي رفيق حلمي في مذكراته أن مثلث رواندوز وزيبار وعقرة كان يمور بالحذر من نوايا البريطانيين وعدم جديتهم في تلبية الطموح الكُردي. ويشير الى أن رؤساء العشائر والمتنفذين الكُرد حاولوا إستمالة تركيا الى جانبهم لطرد القوات البريطانية. كذلك يؤكد أن الشيخ أحمد بارزاني كان أحد أهم المتنفذين الواقفين في وجه بريطانيا[٦٨]. الى ذلك يؤكد حلمي أن هذه القوة الشعبية التي برزت في مناطق كُردية مختلفة هي التي أجبرت البريطانيين على إعادة الشيخ محمود من منفاه في الهند الى السليمانية[٦٩].

واللافت أن الحكومة العراقية أرفقت حملتها العسكرية بحملة دعائية منظمة ضد البارزانيين أرادت منها عزلهم عن محيطهم الإسلامي والكُردي وتبرير هجماتها العسكرية المتلاحقة على منطقتهم. وكان الجوهر الرئيسي لتلك الحملة مفاده أن البارزانيين قوم جبليون يرفضون قبول الخدمات الإدارية التي تريد الحكومة المركزية إيصالها إليهم، وأنهم، أي البارزانيين، (قوم إنحرفوا عن الإسلام) و(تنصَّروا) وأنهم (يعبدون) شيخهم الديني[٧٠]. والواقع أن الحكومة وجّهت حملات مشابهة الى الأديان والطوائف الدينية والصوفية الأخرى في كُردستان، ومنها الديانة الإيزيدية في شمال الموصل،

(٦٧) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ٣٠
(٦٨) حلمي، رفيق: مذكرات، الجزء الثاني، من منشورات الأمانة العامة للثقافة والشباب، مطبعة الأمانة العامة، أربيل ١٩٨٨. صفحة ٥٥٣.
(٦٩) رفيق: المصدر نفسه، صفحة ٥٥٧
(٧٠) أنظر: كتاب عبدالرزاق الحسني، الجزء السادس.

وطائفة كاكائي في أطراف كركوك والسليمانية. وكان مبعث هذه الطروحات الحكومية هو تشبث الشيخ أحمد بالمضمون الإجتماعي لدعوته الصوفية. وقد يفيد أن نذكر أن الباحث الأميركي مايكل گونتر نقل عن مسرور بارزاني النجل الأكبر لرئيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني أن الشيخ أحمد رفض في تلك الفترة طلباً حكومياً بتسجيل أراضي منطقة بارزان إقطاعية كاملة بإسمه لأغراض الضرائب. ويشير الى أن الشيخ رفض هذا الإجراء لخشيته من أن يفسر أحفاده وأقاربه الأمر في المستقبل على أن هذه الأراضي تعود لهم بالفعل(٧١).

لكن مع هذا كلّه، ظلت العمليات العسكرية التي شاركت فيها القوة الجوية البريطانية، تتواصل بضراوة ضد بارزان. وقد بدأت الصفحة الأشد عنفاً في هذه العمليات في نيسان ١٩٣٢ حين شرعت القوة الجوية البريطانية بشنّ هجوم مدمر على منطقة بارزان. وفي هذه الفترة برز نجم الشقيق الاصغر للشيخ أحمد، ملا مصطفى بارزاني، الذي بدأ بقيادة إحدى أهم جبهات القتال ضد القوات الحكومية.

إنتفاضة ١٩٣٢ – ١٩٣٣

واجه المقاتلون البارزانيون الهجمة العراقية المدعومة بالقوة الجوية البريطانية بشجاعة كبيرة. وإستطاعوا في ٢٦ نيسان من العام نفسه، إسقاط طائرة حربية بريطانية وأسر طياريها الإنگليزيين اللذين أُصيبا بجروح نتيجة سقوط الطائرة.

هنا برزت، مرة أخرى، نزعة البارزانيين الى التسامح الإنساني، فطلبوا من القوات البريطانية إرسال أطباء لمعالجة الطيارين الجريحين. والواقع أن البريطانيين أرسلوا طبيباً لمعالجة الجريحين، رافقه مفوض سياسي بريطاني للتباحث مع الشيخ أحمد في شأن إطلاق سراحهما.

(٧١)
Gunter, Michael M. The Kurdish Predicament in Iraq, A Political Analysis, St. Martin`s Press, New York 1999, P 15.

وبعد مفاوضات قصيرة بين الإنگليز والشيخ أحمد، وافق الأخير على الإفراج عن الطيارين مقابل قيام السلطات العراقية بإطلاق سراح خمسة وعشرين بارزانياً كان أحد رؤساء العشائر الكُرد سلّمهم غيلةً الى بغداد، إضافة الى مطالبته بوقف عمليات قصف القرى جواً. وعلى رغم أن الطائرات البريطانية توقفت في الثاني من آيار (مايس) عن القصف، إلا أنها سرعان ما عادت الى عملياتها الجوية في الخامس والعشرين من الشهر نفسه بعد إنهيار الهدنة وتجدد القتال بين الطرفين.

قاوم البارزانيون الهجوم العراقي في الجبال المحيطة بمنطقتهم. وكان الكُرد في مختلف مناطقهم يتابعون أخبار القتال بقلق وإستياء من تصرفات البريطانيين الذين لم يكتفوا بدعم المجهود الحربي العراقي ضد الشيخ محمود الحفيد في السليمانية، إنما بدأوا بدعم المجهود نفسه ضد البارزانيين. وكان هذا الإستياء والإمتعاض عاملاً أساسياً في إحتفاظ الحركة القومية الكُردية بحيويتها في الفترة بين الحربين العالميتين على رغم التراجع الحاصل في شعاراتها.

في حزيران من العام نفسه عادت الطائرات البريطانية لقصف بارزان والقرى المحيطة بها من جديد، ما أسفر عن تدمير ٧٩ قرية في المنطقة، إضافة الى قتل عدد من المدنيين نتيجة رمي الطائرات قنابل موقوتة على تلك القرى.

كان يمكن للشيخ أحمد أن يواصل قتاله في الجبال الوعرة المحيطة بمنطقته ولو في شكل مبعثر وضيّق. لكنه فضّل بعد إشتداد حملات القوة الجوية البريطانية الإنسحاب مع مقاتليه الى الجانب التركي من الحدود. والأرجح أن قراره كان نابعاً من حرصه على وقف الهجمات الوحشية للطائرات البريطانية ضد القرى والأهالي. لهذا أضطر المقاتلون البارزانيون الى الإنسحاب في الحادي والعشرين والثاني والعشرين من حزيران الى داخل الأراضي التركية حيث اعتقلتهم الحكومة التركية ونفتهم الى مدينة أدرنه قرب الحدود مع بلغاريا.

لكن بعد أقل من عام عادت الحكومة التركية وسلّمتهم في ربيع ١٩٣٣ الى الحكومة العراقية التي وضعتهم قيد الإقامة الجبرية في مدينة الموصل. أما

الشيخ أحمد وشقيقه، ملا مصطفى، وبقية وجهاء بارزان، فإن السلطات الحكومية أودعتهم السجن.

وكان الملك فيصل الأول زار تركيا في تموز ١٩٣١ حيث وقّع بعد إجتماعات عقدها مع كبار المسؤولين الأتراك، بلاغاً مشتركاً نصّ على تمسك الدولتين العراقية والتركية بمبدأ عدم إفساح المجال في داخل حدودهما لأية محاولة ترمي الى الإخلال بأمن إحدى الدولتين[٧٢]. وفي التاسع من كانون الثاني ١٩٣٢ وقّعت الحكومتان التركية والعراقية خلال زيارة قام بها رئيس الوزراء نوري السعيد الى انقرة معاهدة نصت على تسليم المطلوبين.

هكذا سحقت الحكومتان العراقية والتركية، بتعاون مباشر من بريطانيا، إنتفاضة الشيخ أحمد التي هدفت الى إستقلال كُردستان في الفترة ١٩٣١-١٩٣٢[٧٣].

ظلّ البارزانيون في سجون السلطات العراقية في مدينة الموصل الى عام ١٩٣٦، بعد ذلك تم نفيهم الى بغداد، ومنها الى البصرة والناصرية والحلة. وفي ١٩٣٩ نقلتهم السلطات الحكومية الى قصبة آلتون كوبري بين أربيل وكركوك، ثم الى قصبة كفري جنوب شرقي كركوك، وأخيراً الى السليمانية.

ويروي المؤرخ الكُردي حسين حزني موكرياني في كتيب[٧٤] عن أحداث تلك الحقبة، قصصاً مروعة عن الحياة الصعبة التي قضاها البارزانيون في السجن والنفي والتشرد. كذلك يشير الى موجة الاستياءات والتذمر التي طغت على الكُرد في مختلف مناطق كُردستان من رفض السلطات الحكومية اطلاق سراحهم وإعادتهم الى موطنهم. وكانت بغداد التي دخلت الحرب في كانون الثاني ١٩٤٣ الى جانب الحلفاء تتذرع بظروف الحرب وتعقيداتها لإطالة نفي البارزانيين.

(٧٢) عبدالرزاق، المصدر نفسه، صفحة ١٤٥ .

(٧٣) Dilip Hiro, The Longest War, Harper Collins, Great Britain, 1990, P13

(٧٤) موكرياني، حسين حزني: حوادث كُردستان التاريخية، كتب في ١٩٤٧، طبعته دار ئاراس للنشر في أربيل، ١٩٩٩ .

في ما بعد، شكّلت مآسي البارزانيين وقصص نفيهم وتشردهم مصدراً رئيسياً لتبلور وعي قومي كُردي معاصر وتهيئة مقدمات إلتفاف الشرائح المتنورة حول زعامتهم. وفي هذا الإطار يقول محمد بريفكاني في كتيب[٧٥] أصدره في الخمسينات باللغة العربية أن إسمَي الكُرد والبارزانيين قد إختلطا، وأن إسم البارزانيين يحضر في شكل دائم كلما يجري الحديث عن الكُرد في أي مكان، مضيفاً أن إسم بارزان اصبح يشغل موقعاً بارزاً في التاريخ الكُردي.

من دون شك، تأثرت النشاطات السياسية والمسلحة للبارزانيين في العشر سنوات الأولى (١٩٣٣-١٩٤٣) من حقبة النفي والسجن. لكن اللافت أنها لم تتوقف أو تنته، إنما إستمرت في مختلف مناطق بارزان الجبلية تحت قيادة أتباعهم ومؤيديهم.

ففي ١٩٣٥ أطلق القائد العسكري، البارزاني، خليل خوشوي، وكان أحد أتباع الشيخ أحمد، إنتفاضة مسلحة ضد الحكومة العراقية. وعلى رغم أن السلطات الحكومية لجأت، كعادتها، الى خيار العنف وإتخذت إجراءات واسعة لقمعها، شملت التنسيق بين قياداتها العسكرية في الموصل وأربيل وكركوك، إلا أنها إستمرت نحو عامين وإستطاعت أن تلحق خسائر ملحوظة بالقوات العراقية.

لكن مع هذا إستطاعت القوات العراقية في المحصلة النهائية قتل خليل خوشوي وزوجته وعدد من مقاتليه في آذار ١٩٣٦. ويروي الدكتور كمال مظهر أحمد في أحد هوامش كتاب الضابط العسكري الكُردي العراقي الذي رافق أحداث تلك الفترة، فؤاد عارف، أن زوجة خوشوي كانت تشارك زوجها القتال ضد القوات الحكومية[٧٦].

يشير فؤاد عارف، في كتابه أيضاً، الى أن الحركة القومية الكُردية إتخذت في بعض الحالات في ذلك الشطر الزمني طابع العمل المسلح، في حين إتخذ

(٧٥) بريفكاني، محمد: حقائق تاريخية عن القضية البارزانية، باللغة العربية، بغداد ١٩٥٣، ترجمه الى الكُردية چەپەر، ١٩٩٢. صفحة ٧.

(٧٦) عارف، فؤاد: مذكرات، الجزء الأول، باللغة العربية، تقديم وتعليق الدكتور كمال مظهر أحمد، مطبعة خبات، دهوك ١٩٩٩، صفحة ١٣٦.

بعضها الآخر صورة تكتلات سياسية وثقافية وصحفية ذات طابع قومي تسعى الى ضمان حقوق الشعب الكُردي.

وفي هذا الخصوص، تصح الإشارة الى تنظيمات قومية كُردية نشأت آنذاك، منها حزب (هيوا- الأمل)[٧٧]، وجمعية (برايەتى- التآخي)[٧٨] اللتين تأسستا في كُردستان العراق، وجمعية (ژ.ك) في كُردستان إيران، وجمعية (خويبون- الإستقلال) بين كُرد تركيا وسورية[٧٩]. هذه الجمعيات والأحزاب نشأت في الوقت الذي كانت مآسي البارزانيين تخض المجتمع الكُردي خضّاً عميقاً في أواخر ١٩٣٧ و ١٩٣٨.

كذلك تصح الإشارة الى النشاط الذي شهدته الصحافة ذات الطابع القومي الكُردي، ومنها مجلة (گلاويژ)[٨٠] الثقافية التي صدرت في العاصمة العراقية بغداد عام ١٩٣٩.

وبينما الحال على تلك الشاكلة، إندلعت الحرب العالمية الثانية بين دول الحلفاء والمحور. وعلى رغم أن الحكومة العراقية لم تعلن دخولها الحرب الى جانب حليفتها بريطانيا إلا بعد أكثر من سنتين من إندلاعها، إلا أنها إستغلت الحرب لتشديد قبضتها على المجتمعين العراقي والكُردي ومحاولة خنق حركاتهما الديموقراطية. ولم ينج من هذه الحال حتى القوميين العرب الذين أعلنوا، في تعاطف واضح مع ألمانيا الهتلرية، تمرد مايس ١٩٤١ بهدف

(٧٧) تأسس حزب هيوا في ١٩٣٨ وعقد مؤتمره التأسيسي في كركوك ثم إمتدت فروعه الى بغداد وأربيل والسليمانية وغيرها. إنضم الى صفوفها عدد كبير من العسكريين الكُرد، ضباطاً وضباط صف، وكثير من ذوي المهن المختلفة والأطباء والمهندسين والمدرسين ورؤساء العشائر. أنظر: فؤاد عارف- مذكرات- هامش ١٢- صفحة ١٣٦. لاحقاً إنتهى الحزب حين عقد مؤتمره العام في عام ١٩٤٤ في كركوك نتيجة الخلافات بين أعضائه.

(٧٨) ظهرت جمعية (برايەتى) قبيل الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٨ وكانت لها ثلاثة فروع توزعت على بغداد وكركوك والسليمانية، بينما مركزها الرئيسي كان في السليمانية (فؤاد عارف- هامش ١٣- ص ١٣٦).

(٧٩) تأسست جمعية خويبون في بيروت في عام ١٩٣٧ .

(٨٠) گلاويژ -مجلة ثقافية وأدبية كُردية - صدر عددها الأول في كانون الأول ١٩٣٩ وعددها الأخير في ١٩٤٩. كانت تطبع في بغداد. صاحبها ومديرها المسؤول ابراهيم أحمد، ورئيس تحريرها علاءالدين سجادي.

القضاء على النفوذ البريطاني في العراق. لكن القوات البريطانية سرعان ما دخلت حرباً محدودة مع هؤلاء إنتهى الى إعدامهم وإعادة الملكية الى بغداد.

أما بالنسبة الى الوضع الكُردي، فإن الحال كانت مختلفة. فالحكومة لم تستطع بسط سيطرتها على كُردستان نظراً لوعورة تضاريسها من جهة، ولعدم نجاح أساليبها في إستيعاب الكُرد ضمن نسيج المجتمع العراقي من جهة أخرى. لهذا كان إندلاع الحرب وتوجه الوضع السياسي داخل العراق الى مزيد من التعقيدات في بداية الأربعينات، بمثابة فرصة ملائمة لا لتطور الحركة القومية الكُردية فحسب، بل لتمهيد الطريق أمام تطور كبير آخر شهدته الزعامة البارزانية في تلك الحركة، ذلك هو تحول المرجعية البارزانية من الصوفية الى السياسة. وكانت الإشارة الأوضح في هذا الإتجاه، سطوع نجم مصطفى بارزاني في إنتفاضة ١٩٤٣.

الفصل الثاني

مصطفى بارزاني: التحوّل الأكبر

الكُرد في مفترق الحرب العالمية الثانية

حين دخلت منطقة الشرق الأوسط النصف الأول من أربعينات القرن الماضي، كانت الحرب العالمية الثانية في طريقها الى تفاقم متزايد. والواقع أن هذه الحرب لم تضطرم في الشرق الأوسط بالضراوة الدموية التي إشتعلت في أوروبا والشرق الأدنى وشمال أفريقيا. لكنها مع ذلك، هزّت المنطقة في عمقها السياسي والثقافي والإقتصادي، ووضعتها على عتبة مرحلة مختلفة تماماً عن المراحل السابقة خصوصاً بعد إتضاح نتائجها.

يصح القول إن الكُرد حاولوا التعامل في شكل حيوي مع معطيات الحرب بقدر تعلقها بقضيتهم القومية. وكان أملهم في تلك السنوات أن تعيد لهم الحرب العالمية الثانية ما فقدوه من حق سياسي في إقامة دولتهم المستقلة بعد الحرب الأولى.

إجمالاً، يمكن تلمس المظاهر الرئيسية لتعامل الكُرد مع الحرب ونتائجها في عدد من الميادين:

الأول: إتساع نشاط المنظمات السياسية بين الكُرد وظهور سلسلة من الجمعيات والأحزاب في اشكال أكثر تطوراً وعصرية من مثيلاتها قبل الحرب.

والثاني: صدور مجموعة من المجلات والمطبوعات الثقافية، منها مجلة (نيشتمان) في مهاباد، و(گلاويژ) في بغداد.

والثالث: إندلاع إنتفاضات مسلحة في عدد من البقاع الكُردية في العراق وتركيا وإيران. وكانت إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ في كُردستان العراق أرقى تلك الإنتفاضات من النواحي السياسية والتنظيمية والعسكرية.

والرابع: تأسيس جمهورية مهاباد في كُردستان إيران وإلتفاف كُرد العراق حولها في ١٩٤٦.

واللافت أن مصطفى بارزاني كان في تلك الفترة بمثابة العتلة الرئيسية في

إدارة أكثر تلك التطورات والأحداث السياسية والعسكرية، خصوصاً في ثلاث من أهم محطاتها: إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥، وجمهورية كردستان (مهاباد)، وتأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني.

إستمد بارزاني، المولود في الرابع عشر من نيسان عام ١٩٠٣ في قرية بارزان، إنطلاقته السياسية الأولى، من حاضنته العشيرية التي إمتزجت فيها الصوفية النقشبندية بالدعوات السياسية والقومية. لكن الذي يُحسب لصالح بارزاني أنه أدخل تطويراً جوهرياً على بنية الحركة القومية الكُردية وأدواتها وآلياتها، ما وضعها على أعتاب مرحلة مختلفة كلياً عن مراحلها التي سبقت الحرب الثانية.

يصح القول، في هذا الصدد، أن الأحداث إختلفت وموازين القوى السياسية والإجتماعية والثقافية شهدت تغييرات عميقة في زمن بارزاني، وأن هذه التغيرات أملت، في ما بعد، تحولات موازية في بنية الحركة القومية الكُردية. لكن الأصح أن بارزاني كان له دور رائد وحيوي في ضبط ايقاع تلك التغيرات وتجسيدها على أرض الواقع عن طريق رؤيته السياسية الثاقبة.

في هذا الوسط، كان شقيقه الكبير الشيخ أحمد، وقبله الشقيق الأكبر الشيخ عبدالسلام بالنسبة إليه بمثابة مدرسة كبيرة. وكان شهد وهو لايزال في الرابعة من عمره السجن والتشرد في ١٩٠٧، وإعدام شقيقه الأكبر وهو لم يتجاوز العاشرة في ١٩١٤.

لكن الشيء الذي أشّر الى شروع دوره، أنه نأى بنفسه منذ البداية عن التدرج الديني ضمن المشيخة البارزانية، مكتفياً بإقتفاء الآثار السياسية لأسلافه. وفي إشارة واضحة الى هذا الأمر، يؤكد السياسي الكُردي، السكرتير الأول السابق للحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد أن إنخراط بارزاني في حياة الثورة في طفولته سبق تبلور وعيه السياسي والقومي[٨١]، معتبراً أن حاضنة الأهل والأقارب بكل مآسيها وعذاباتها، قوّت من عريكته العسكرية وشدّت من وعيه السياسي وإدراكه المبكر لآلام شعبه، إضافة الى

(٨١) أنظر: مؤتمر بارزاني، الذكرى التسعون لميلاد مصطفى بارزاني، كلمة عزيز محمد السكرتير الأول السابق للحزب الشيوعي العراقي في المؤتمر.

تشكيلها فرصة مثالية أمامه لإكتساب تجربة متعددة الأبعاد: ريفية ومدينية، عصرية وتقليدية، سياسية وعسكرية.

وإذا اضفنا الى ذلك كلّه، ما تمتع به الرجل من ذهن وقّاد وخيال سياسي راقٍ ورؤية صافية، لتوضحّت العوامل الرئيسية التي دفعت به الى الإندفاع المبكر نحو ممارسة السياسة والعمل على تنشيط حركة شعبه القومية ومن ثم النجاح في بناء زعامة سياسية ثابتة بين الكُرد لاتزال فاعلة الى اليوم.

والواقع أن الفترة التي برز فيها بارزاني وتجسدت شخصيته الواضحة المعالم، أي مطلع الأربعينات من القرن الماضي، تميزت بصعوباتها وحساسيتها البالغة بالنسبة الى الوضع القومي الكُردي. فإضافة الى الحرب العالمية الثانية وعواملها وإنعكاساتها على كُردستان، كانت الحركة القومية الكُردية نفسها تعيش حالاً سيئة من التشرذم والتشتت السياسي والثقافي على رغم إتساعها الأفقي وبروز منظمات وجمعيات سياسية وثقافية في صفوفها وإندفاع شبابها المديني الى المشاركة فيها في شكل أوسع.

على صعيد متصل، إتسمت مسارات الحركة القومية الكُردية في الحقبة بين الحربين العالميتين، الأولى والثانية، بتعقيدات كبيرة. فالبريطانيون والأتراك والعراقيون لم يترددوا في مواجهة الكُرد بالحديد والنار، بينما تجاهلت عصبة الأمم تطلعاتهم نحو إقامة كيان قومي. والأنكى أن القمع المسلط على الكُرد، لم يقتصر على الناحيتين السياسية والثقافية فحسب، بل تعداهما الى حملات عسكرية دموية مباشرة.

وكانت الأمثلة على هذه الحال واضحة:

- *سحق إنتفاضة الشيخ النقشبندي سعيد بيران في* **١٩٢٥** *على يد الدولة التركية مع إعدام مئتي شخص على ثلاث وجبات من قادتها وكوادرها خلال أيام، إضافة الى تدمير مئات القرى وتشريد عشائر بكامل أفرادها من مناطقهم، وزج ألوف من الشباب الكُردي المتنور في السجون.*

- *وتفتيت إنتفاضات الشيخ أحمد بارزاني في كُردستان العراق في* **١٩٢٧** *و***١٩٣٣** *على يد الدولة العراقية وسجن البارزانيين ونفيهم الى*

مدن العراق الجنوبية.

- *وقمع إنتفاضة آگري داغ في كُردستان تركيا في* **١٩٣٧** *بقيادة الجنرال إحسان نوري باشا، ومن ثم مقتل الزعيم الكُردي في كُردستان إيران إسماعيل آغا شكاك في تلك الفترة، وتراجع إنتفاضات الشيخ محمود بين* **١٩١٩-١٩٣١** *كلياً بعد إبعاده الى بغداد ووفاته هناك في* **١٩٥٦**.

من دون شك، كانت هذه الضربات الدموية مؤلمة بالنسبة الى الحركة القومية الكُردية، لكنها مع ذلك لم تؤدِّ الى تفتتها على رغم التراجع الذي طبع الشعارات القومية. واللافت أن الهجمة الإقليمية ضد الحركة القومية الكُردية ترافقت مع توجه دول المنطقة نحو تعاون أمني وعسكري وسياسي قائم على هدف التضييق ضد الكُرد. وكان حلف بغداد في **١٩٥٥** تعبيراً متأخراً عن ذلك التحالف الإقليمي.

في ما الحال على ما هو عليه، كانت الأوضاع الجيوسياسية لكُردستان تُشير الى إمكان تفاقم هذه الخسائر. فالدول الإقليمية أخذت تعمق من تحالفاتها مع الدول الغربية وتنشيء جيوشاً حديثة وتتسلح بأسلحة متطورة وإمكانات إقتصادية جديدة. وهذا في الوقت الذي كانت فيه هذه الدول تحاول إستغلال الضعف الكُردي في إتجاه إجبار الكُرد على الإنصهار قسراً في هويات قومية وثقافية غير كُردية.

في هذه الأجواء، أجّجت حالة النفي والإعتقال التي عاشها البارزانيون مشاعر الكُرد في شكل عميق. وإذ لم تفد العرائض والمذكرات والنشاطات السلمية للإفراج عن البارزانيين[٨٢]، لم تفد كذلك الإنتفاضة المسلحة التي أطلقها أحد مساعدي بارزاني، خليل خوشوي[٨٣] في **١٩٣٥**، في تليين

(٨٢) نشرت صحيفة (نزار) الكُردية التي صدرت في بغداد بين عامي ١٩٤٨-١٩٤٩ (صاحبها ورئيس تحريرها علاءالدين سجادي) في العدد الرابع- ١٥ آيار ١٩٤٨ مذكرة رفعها عشرون ألف مواطن في مدينة السليمانية الى السلطات العراقية طالبوا فيها بالإفراج عن البارزانيين.

(٨٣) إستمرت إنتفاضة خليل خوشوي الى آذار ١٩٣٦ حين نجحت القوات العراقية من قتله وقتل عدد آخر من رجال إنتفاضته.

الإصرار الحكومي على إدامة نفييهم وإبقائهم في السجون.

لفحت الحرب العالمية الثانية منطقة الشرق الأوسط برياح تغييرات عميقة. وكان مرد ذلك أن الحرب، بعد إنتهائها، فتحت الباب واسعاً أمام إندفاع الأفكار الإشتراكية والشيوعية واليسارية الى المنطقة. كما أنها وفّرت فرصة جديدة لتغلغل نفوذ الغرب وأفكاره وصناعاته ومنتوجاته وثقافته الى الشرق الأوسط. وكان من شأن ذلك كلّه عكس أبعاد ومخاضات ثقافية وفكرية وسياسية واسعة على شعوب الشرق الأوسط ومن بينهم الكُرد.

لكن الحرب لم تعكس تأثيرات إيجابية فحسب، بل عكست أيضاً تأثيرات سلبية غير قليلة على شعوب الشرق الأوسط. وكان أهم سلبيات الحرب بالنسبة الى الدول التي توزع عليها الكُرد أنها أدت الى تسريع خطوات تجييش دول المنطقة. كما أنها هيأت ذريعة قوية في أيدي هذه الدول لتبرير إصرارها على تغييب الديموقراطية وتشديد القمع وتوسيع الحملات ضد مشاريع قومية متعارضة كالمشروع القومي الكُردي أو الآشوري أو الأرمني. هذا إضافة الى تمهيدها الأجواء أمام إندفاع الصراعات الدولية الى الشرق الأوسط في إطار نظام القطبية الثنائية الذي وصلت تأثيراته الى المنطقة بعد إنتهاء الحرب بسنوات قليلة.

وما زاد من التأثيرات المباشرة للحرب على مسار الحركة القومية الكُردية أن الجيش البريطاني إنتشر في آب ١٩٤١ في الرقعة الجنوبية من كُردستان في أطراف كرمنشاه الإيرانية وخانقين العراقية. في الوقت عينه إنتشر الجيش السوڤياتي في الأطراف الشمالية من كُردستان في أطراف تبريز وأورمية. وكان الهدف من الإنتشارين هو منع دول المحور من السيطرة على إيران ومنابعها النفطية الغنيّة من جهة، وفتح الطريق أمام إتصال الحليفين البريطاني–الأميركي والسوڤياتي من جهة ثانية.

والحقيقة أن الإنعكاسات المتناقضة للحرب على الوضع الكُردي كانت لافتة للنظر. فإضافة الى تشبث السلطات المركزية بإدامة نفي البارزانيين، أخذت هذه السلطات تتراجع عن وعود قطعتها للكُرد بمنحهم حقوقاً ثقافية ولغوية محدودة ضمّتها وثيقة إستقلال العراق الصادرة عن عصبة الأمم في ١٩٣٢.

كذلك أخذت تكثف من تواجدها العسكري في كُردستان العراق وتقلل من فرص تمتع الكُرد بأي حق إداري وثقافي ضمن الدولة.

مع هذا، أدت الحرب، من جهة أخرى، الى إنتعاش الحركة السياسية في مناطق كُردية عدة. وإذا صحّ إعتبار جمهورية مهاباد في الرقعة المحصورة بين الإنتشارين البريطاني–الأميركي والسوڤياتي في كُردستان إيران في ١٩٤٦ مخاضاً من مخاضات الحرب، فإن الإشارة تصح أيضاً الى أحداث وتطورات أخرى في كُردستان العراق سبقت إنتهاء الحرب.

ففي خريف عام ١٩٣٨ تأسست في مدينة السليمانية جمعية (برايەتى – التآخي)[٨٤] برئاسة الشيخ لطيف (١٩١٧–١٩٧٢) نجل الشيخ محمود الحفيد الذي أقام علاقات وطيدة مع مصطفى بارزاني عند إنتقال البارزانيين الى السليمانية في نهاية الثلاثينات.

في العام نفسه تأسست في السليمانية منظمة سياسية أخرى تحت إسم (آزادي كوردي– الحرية الكُردية). وقبل ذلك بأعوام، كانت الشخصية الكُردية المعروفة حمه آغا عبدالرحمن بادر الى تأسيس منظمة سياسية عُرفت بمنظمة فدائيي الوطن.

كذلك الحال في أربيل التي عاشت في تلك الحقبة إنتعاشاً سياسياً ملحوظاً، خاصة لجهة إنتشار حزب هيوا[٨٥] بين وجهاء المدينة ومثقفيها وطلابها ونشوء بعض الخلايا الشيوعية بين حرفييها. وكانت منظمة حزب هيوا في أربيل في عام ١٩٤٢–١٩٤٣ هي الأكثر نفوذاً بين أكثرية الطلاب الواعين قومياً.

أما في العاصمة العراقية التي تحولت في تلك الفترة الى مركز لنشاط

(٨٤) يذكر السياسي الراحل نوري شاويس أن هذه الجمعية إستمرت الى عام ١٩٤٣، المصدر نفسه، ص ١٧.

(٨٥) يذكر مكرم طالباني أن حزب هيوا نشأ في عام ١٩٣٧ في مدينة كركوك بإسم منظمة (داركەر– الحطاب). وكان هذا إسم منظمة قومية ظهرت في إيطاليا دعت الى الوحدة الإيطالية. أما المرحوم نوري شاويس الذي كان بدوره واحداً من مؤسسي المنظمتين، فإنه يذكر أن قرار تغيير منظمة (داركەر) الى حزب هيوا أُتخذ في إجتماع موسّع عُقد في نيسان ١٩٣٩. أنظر: نوري شاويس، من ذكرياتي، الطبعة الأولى، من منشورات حزب الشعب الديموقراطي الكُردستاني، ١٩٨٥، صفحة ٢٠.

مجموعات من الطلاب الكُرد في جامعاتها، فإن النشاطات القومية الكُردية عبرت عن نفسها على شكل حلقات ثقافية وتجمعات إقتربت حيناً من الحزب الشيوعي العراقي، وإبتعدت عنه في أحيان أخرى. وكان أهم هذه التجمعات الى جانب حزب هيوا، منظمتا (شورش- الثورة) و(رزگاري- الحرية)[٨٦].

على صعيد آخر، دخلت الحركة القومية في كُردستان إيران في الفترة ذاتها مرحلة إزدهار جديدة. وكان تأسيس منظمة (ژيانەوەی كورد- إحياء الكُرد)[٨٧] التي تعرف بحرفيها الأولين (ژ.ك)، في السادس عشر من أيلول ١٩٤٢ في مهاباد، دليلاً واضحاً على بداية هذا الإزدهار.

لكن العوامل الخارجية لم تكن وحدها هي الحافز على إنتعاش الحركة القومية في تلك الرقعة، إنما لعبت إنتفاضة ١٩٤٣ دوراً كبيراً في شحذ الوعي القومي بين كُرد إيران. وقد تجلى ذلك في مبادرة منظمة (ژ.ك) الى مخاطبة مصطفى بارزاني بزعيم كُردستان[٨٨].

في إطار هذه الصورة الجديدة للمجتمع الكُردي، لم تكن المشيخة البارزانية في صورتها القديمة، أي صورة المشيخة الصوفية-السياسية قادرة على إستيعاب التطورات الحاصلة داخل الحركة القومية الكُردية.

وما زاد من تفاصيل هذه الصورة أن شريحة المثقفين والمتنورين والطلاب والضباط الكُرد وأهالي المدن والحرفيين أخذت تشارك في شكل أوسع في

(٨٦) حزب شورش هو الحزب الشيوعي في كُردستان العراق، تأسس في خريف ١٩٤٥ وعُرف بإسم جريدته المركزية (شورش)، ومن مؤسسيه صالح الحيدري ورشيد عبدالقادر ونافع يونس. أما حزب (رزگاري) فإنه تأسس بمبادرة من حزب شورش في نهاية ١٩٤٥ ومن مؤسسيه علي حمدي والدكتور جعفر محمد كريم والمحامي رشيد باجلان.

(٨٧) أصدرت منظمة (ژ.ك) مجلة (نيشتمان - الوطن) في مهاباد. وعلى رغم ان هذه المجلة الثقافية والسياسية كانت توزع سراً، إلا أن تأثيرها كان كبيراً في نشر الوعي القومي بين الكُرد خصوصاً في إيران والعراق.

(٨٨) حبيب، بدران أحمد، بارزاني وجمهورية مهاباد، برنامج تاريخي في ذكرى الجمهورية الكُردية بثته القناة الفضائية لتلفزيون كُردستان، الأول من آذار عام ١٩٩٨ .

الحياة السياسية والقومية. وكانت الحرب العالمية الثانية مع ما تمخض عنها من زيادة إنتشار ثقافتي الحداثة الغربية والشيوعية الشرقية في الشرق الأوسط، ذات تأثير لافت في تشديد النهم الثقافي والمعرفي بين الشباب المديني الكُردي. هذا إضافة الى توسع الدولة في بناء المؤسسات التعليمية والمدارس والطرق المبلطة ومظاهر الحياة العصرية الحديثة في المدن الكبيرة على رغم قلّة عددها في كُردستان مقارنة ببقية المناطق العراقية.

لكن المشكلة التي واجهت بارزاني في هذه الفترة أنه كان منفياً مع عائلته وعشيرته في السليمانية. وكانت السلطات العراقية تفرض رقابة صارمة على تحركاته وتنقلاته. بل إنها لم تتوانَ عن التخطيط لقتله. لكنه مع هذا، تحرك لإنقاذ حركة شعبه القومية من تراجعاتها وأحوالها السيئة. وما ميّز تحركاته في جولتها الجديدة أنها شكّلت إحدى أهم محطات الحياة السياسية للكُرد من جهة برنامجها السياسي وتكوينها الداخلي المنظم ومطالبها القومية الواضحة.

إنتفاضة بارزان ١٩٤٣ - ١٩٤٥

في الثاني عشر من تموز ١٩٤٣ غادر بارزاني مدينة السليمانية متخفياً بمساعدة من حزب هيوا والشيخ لطيف، نجل الشيخ محمود الحفيد. وفي بدء خروجه توجّه سراً الى كُردستان إيران ومنها إنتقل الى بارزان بعد لقائه رؤساء عشائر كُرد.

والأرجح أن هدف بارزاني من ترك حياة المنافي والتوجه الى الجبال كان واضحاً في ذهنه. فالحرب فتحت الأبواب، ولم يعد أمام الكُرد سوى خيار العمل لتأكيد ذاتيتهم السياسية وطموحاتهم في الحصول على حقوق أضاعوها في وقت سابق. والأرجح كذلك أن الخيار العسكري لم يحظ بالأولوية لديه، مفضلاً إقناع بغداد على حل سلمي للمشكلة الكُردية.

بعد وصوله الى منطقته بادر الى الإتصال بالحكومة العراقية عن طريق مدير ناحية (ميرگەسور) القريبة من بارزان، عارضاً عليها البحث في حل سلمي للمشكلة الكُردية. لكن بغداد التي فاجأها هروب بارزاني وظهوره في منطقته الجبلية، تجاهلت دعوته، وسارعت الى نقل الشيخ أحمد وبقية البارزانيين من

منفاهم في السليمانية الى مدينة الحلة في وسط العراق. كما بدأت بحشد قوات الجيش والشرطة في شمال أربيل وشمالي شرق الموصل بهدف مهاجمة المقاتلين البارزانيين.

تريث بارزاني في إعلان الإنتفاضة المسلحة. بل فضّل التشاور مع القوى والشخصيات السياسية الكُردية قبل إعلانها. ويذكر مسعود بارزاني أن والده لم يلجأ الى الخيار العسكري بقرار فردي، إنما تداول في الأمر مع حزب هيوا وعدد من الشخصيات الكُردية[٨٩]. وبعد يأسه من أي رد فعل سياسي من بغداد، إتجه الى الإتفاق مع حزب هيوا وأطلق إنتفاضته التي سجلت في وقت قياسي إنتصارات لافتة على القوات العسكرية والوحدات الإدارية العراقية في أطراف بارزان.

إستمرت الإنتفاضة أكثر من عامين، وإستطاعت خلالها أن تفرض سيطرتها على رقعة جغرافية كبيرة في أقصى شمال أربيل، مهددة بالسيطرة على طريق هاملتون[٩٠] والتوسع نحو مناطق خارج جبال بارزان. لكن البريطانيين الذين حرصوا على حفظ الأوضاع داخل العراق في صورة هادئة وذلك لتمكين بغداد من التفرغ لدعم المجهود الحربي البريطاني في الحرب العالمية الثانية، لم ترق لهم انتصارات الإنتفاضة الكُردية. لذلك توجه السفير البريطاني في بغداد كيهان كورنواليس الى كُردستان وإلتقى بارزاني وناشده الإتفاق مع الحكومة العراقية. كما أن رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد أرسل عن طريق الشيخ أحمد بارزاني رسالة اليه في المعنى نفسه[٩١].

ردّ بارزاني هذه الجهود لكونها لاتتضمن تلبية المطالب القومية الكُردية، إنما تكتفي بوعود مفادها الإفراج عن البارزانيين المنفيين. وكان بارزاني أعلن في هذه الفترة مطالب سياسية قومية مفادها تلبية المطامح الكُردية في إطار الدولة العراقية.

(٨٩) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ٨٣.
(٩٠) طريق استراتيجي بناه الإنكليز في عام ١٩٢٧، يربط مدينة أربيل بالحدود الإيرانية في حاج عمران. وإشتهر الطريق بإسم مهندسه الإنكليزي هاملتون.
(٩١) وثائق إسناد فارسي صفحة ١٣١ .

عاودت بريطانيا جهودها وطلبت من الحكومة العراقية الدخول في مفاوضات سياسية مع بارزاني[٩٢]. في غضون ذلك وجّه الوصي الأمير عبدالإله رسالة الى رئيس الوزراء أكد فيها إستعداده لملاقاة بارزاني والبحث معه في مطالبه السياسية، مشيراً الى ضرورة دخول الحكومة في مفاوضات مباشرة معه. بل إنه أشار الى إستعداده الشخصي لزيارة كُردستان وملاقاة بارزاني[٩٣]. عادت السفارة البريطانية وبعثت برسالة أخرى الى بارزاني. والأرجح أن الأنجليز كانوا في صدد تهدئة الجبهة الداخلية للعراق تحسباً لمسارات الحرب العالمية الثانية.

في هذه الفترة، إضطر نوري السعيد الى تقديم استقالة وزارته السابعة في التاسع عشر من كانون الأول ١٩٤٣، أي بعد مدة قصيرة من إندلاع إنتفاضة بارزان. وحين أعاد تشكيل حكومته الثامنة بعد ستة أيام من الإستقالة أدخل في تشكيلته الوزارية الجديدة ثلاثة وزراء كُرد بينهم الشخصية الكُردية ماجد مصطفى الذي كلّفه السعيد الإتصال ببارزاني لإجراء محادثات معه وتخفيف حدّة التوتر بينه وبين الحكومة العراقية[٩٤].

زار ماجد مصطفى ناحية (ميرگەسور) القريبة من بارزان وإلتقى في السابع من كانون الثاني ١٩٤٤ بالزعيم الكُردي، مبدياً إستعداد بغداد للدخول في عملية تفاوضية مباشرة. وكان بارزاني قبل ذلك بأيام أوقف قتاله ضد الحكومة العراقية بناء على إقتراح بريطاني[٩٥].

عرض المبعوث الحكومي على بارزاني الكفّ عن نشاطاته العسكرية مقابل قيام الحكومة العراقية بالإفراج عن العوائل البارزانية المنفية الى مدينة الحلة وإعادتهم الى مواطنهم. لكن بارزاني الذي كان على إتصال وثيق مع حزب هيوا والضباط القوميين الكُرد، لم يوافق على العرض على إعتبار أنه غير كاف لوقف إنتفاضته التي قامت من أجل أهداف كُردية وليست عشائرية، مشيراً الى أن الحل السلمي للقضية الكُردية يجب أن يتضمن تحقيق مطالب

(٩٢) المصدر أعلاه، صفحة ١٣١.
(٩٣) وثائق إسناد فارسي: المصدر نفسه، صفحة ١٣١.
(٩٤) الحسني، عبدالرزاق: تاريخ الوزارات العراقية، الجزء السادس، صفحة ٢٩٠.
(٩٥) المصدر أعلاه، صفحة ٢٩٠.

قومية وسياسية وثقافية. أما الإفراج عن المنفيين فلم يعتبره سوى بادرة حُسن نيّة لفتح باب محادثات سياسية لحل المشكلة الكُردية برمتها في العراق.

من هنا، وضع الزعيم الكُردي أمام المندوب الحكومي عدداً من المطالب السياسية، منها إعادة تنظيم الهيكل الإداري لكُردستان العراق على اساس توحيد مدنها وقصباتها (كركوك وأربيل والسليمانية والأقضية الكُردية في لوائي الموصل وديالى) في ولاية إدارية واحدة، والإعتراف باللغة الكُردية لغة رسمية وتعيين ضباط كُرد في المنطقة لتنسيق العلاقات على صعيد إدارة شؤون ولاية كُردستان، إضافة الى تعيين وزير كُردي مختص بالشؤون الكُردية[٩٦].

لم يستطع الوزير العراقي البتّ في المطالب الكُردية، إنما حملها الى بغداد. في غضون ذلك، إقترح السفير البريطاني كورنواليس في رسالة وجهها الى نوري السعيد تشكيل هيئة من الأعضاء الكُرد في البرلمان العراقي للبحث في شؤون تطوير وتعمير كُردستان العراق.

في هذه الأثناء، وبناءً على دعوة رسمية حكومية، وصل بارزاني الى بغداد في الثاني والعشرين من شباط ١٩٤٤، حيث إلتقى الوصي عبدالإله ورئيس الوزراء نوري السعيد وأجرى معهما مباحثات سياسية مكثفة.

تمخضت المحادثات التي كان يستشير فيها بارزاني كُرداً متنورين من حزب هيوا، عن إتفاق تم بموجبه تعيين عدد من الضباط الكُرد كضباط إتصال في مناطق كُردستان. كما أفرجت الحكومة عن العوائل المنفية وأعادتهم الى بارزان بعد أسابيع.

والأرجح أن نوري السعيد كان في طريقه الى تلبية عدد من المطالب الإدارية الكُردية في شكل سلمي وعن طريق الحوار مع بارزاني. لكن المشكلة أن مفاوضاته مع الكُرد سرعان ما إنقطعت نتيجة سقوط حكومته في الثالث من حزيران ١٩٤٤. كما أن البريطانيين بدأوا لايبدون حماساً لمواصلة المباحثات السياسية مع بارزاني نتيجة ميلان كفّة الحرب الثانية لمصلحتهم في تلك الفترة.

(٩٦) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٠١.

لهذا، لم يولِ حمدي الباججي الذي قام بتشكيل وزارته الأولى بعد استقالة وزارة السعيد، إهتماماً بحلّ القضية الكُردية على رغم أن رئيس الوزراء السابق حرص قبل مغادرته رئاسة الحكومة على توجيه مذكرة الى الوصي عبدالإله، عنونها (القضية الكُردية) دعا فيها الى حل المشكلة مع الكُرد في شكل سلمي[٩٧].

بعد مباشرة وزارة الباججي أعمالها عاد القتال الى كُردستان العراق. لكن الحركة القومية الكُردية شهدت في تلك الفترة إتساعاً في نشاطاتها التنظيمية والسياسية، خصوصاً أن الوطنيين الكُرد في حزب هيوا وخارجه اعتبروا حركة بارزاني عادلة وقرروا المشاركة فيها بإعتبارها حركة وطنية وقومية كُردية[٩٨].

واصلت إنتفاضة بارزان توسيع نفوذها في مناطق كُردية عدة في ١٩٤٥. لكن السفارة البريطانية في بغداد أخذت في هذه الفترة التي أشّرت الى إنتصارها على جبهة الحرب ضد النازية، تتجه نحو تقديم دعم عسكري وسياسي الى الحكومة العراقية. هذا على رغم أن قائد الوحدات البريطانية في العراق عارض في البداية المشاركة مع القوات العراقية في الهجوم على منطقة بارزان، مفضلاً أن تتجه الحكومة الى حل مشكلتها مع البارزانيين عبر المفاوضات السياسية.

والواقع أن مخاوف بريطانيا من الإنتفاضة تفاقمت في شكل كبير بعد أن هدد بارزاني بفرض سيطرته على طريق هاملتون الاستراتيجي. وكانت بريطانيا تعتقد أن تطوراً كهذا لايعني سوى إعلان الحرب على المصالح البريطانية.

لم تتوقف الحكومتان البريطانية والعراقية عن تحضيراتهما لشن هجوم عسكري جديد ضد بارزان. وفي هذا الإطار توجها أيضاً الى تشجيع عدد من رؤساء العشائر الكُرد للتعاون معهما ضد الحركة الكُردية. وكان بعض من هؤلاء، على خلافات سابقة مع العشيرة البارزانية لأسباب سبق ذكرها.

(٩٧) الحسني، المصدر نفسه، صفحة ١٩٨، الجزء السادس.
(٩٨) الحسني، المصدر أعلاه، صفحة ٢٩٠ .

نجحت الدولتان في صيف عام ١٩٤٥ في إقناع عدد من العشائر الكُردية بالتعاون معهما في القتال ضد الإنتفاضة. وينقل مسعود بارزاني عن والده أن الأخير حين وجد أن عشائر كُردية دخلت على خط صراعه مع بغداد، قرر الإنسحاب الى داخل إيران، مفضلاً تجميد الصراع العسكري مع بغداد على تحوله الى قتال كُردي-كُردي.

الواضح أن الحكومة العراقية لم تستطع أن تنسق مع الإيرانيين على صعيد منع البارزانيين من دخول الأراضي الإيرانية، وذلك بسبب الضعف الهائل الذي كانت الدولة الإيرانية تعيشه في تلك الفترة، وإنحسار نفوذها عن مناطق كُردية واسعة في غرب البلاد. لهذا بادرت بغداد، بعد أقل من عام، الى عقد إتفاقية أمنية مع تركيا في ١٩٤٦، أي في الوقت الذي كانت جمهورية مهاباد قد قامت في إيران.

مع هذا كلّه، كانت تأثيرات إنتفاضة بارزان كبيرة على مسار الحركة القومية الكُردية برمتها. في هذا المنحى يمكن القول إنها أخرجت الحركة الكُردية من نطاقها المناطقي العشائري الضيّق وأطلقتها في فضاء قومي رحب يضم فئات وشرائح إجتماعية ودينية متنوعة. وتجلى ذلك في إلتفاف ضباط ومتنورين ومعلمين وطلبة حولها بعد أن كانت ميادينها محتكرة في السابق على الفلاحين وأتباع العشائر. ويروي المرحوم نوري شاويس في مذكراته أن معظم الضباط الكُرد الذين إنضموا الى صفوف الإنتفاضة كانوا أعضاء في حزب (هيوا)[٩٩].

ويصح الشيء نفسه بالنسبة الى البُعد الجغرافي للإنتفاضة التي نجحت في إختراق حدود بارزان ونشر دعواتها خارج هذه الحدود. وكانت المشاركة الكُردية العراقية في جمهورية مهاباد مثالاً ساطعاً على تلك الحال.

الى ذلك، أغنت الإنتفاضة محتوى الحركة الكُردية وعمّقت من مفاهيمها الديموقراطية والسياسية وأعطتها سمة عصرية واضحة. ويذكر بارزاني نفسه، في كلمة ألقاها في مؤتمر ممثلي كُرد إيران والعراق في باكو في التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٤٨، أن هدف إنتفاضته كان إنشاء إدارة حرة

(٩٩) شاويس، المصدر نفسه، صفحة ٢٢.

وديموقراطية[١٠٠].

على صعيد آخر، استطاعت الإنتفاضة أن تنقل الحركة الكُردية من إطار عسكري بحت الى نشاطات سياسية تنظيمية مترابطة ومتداخلة. ولا أدل على هذا من الإشارة الى تأسيس لجنة بإسم لجنة الحرية في العام الأول للإنتفاضة لقيادتها. وكان قوامها الضباط الكُرد الذين إلتفوا حول بارزاني.

كذلك أوجدت الإنتفاضة أسلوباً عسكريا حديثاً إعتمد في إدارة العمليات الحربية على توزيع المقاتلين في شكل مجموعات صغيرة ترتبط بمسؤولين يتولون قيادة مناطق محددة ويرتبطون بدورهم بمركز قيادي واحد.

على صعيد ذي صلة، أخذ بارزاني يولي إهتماماً من خلال تطوير إنتفاضته، ببناء شبكة إتصالات ناشطة بينه وبين المدن الكُردية وغير الكُردية في العراق. وفي هذا الصدد، يذكر فؤاد عارف أن بيانات مؤيدة للإنتفاضة بدأت تظهر في شوارع بغداد[١٠١].

علاوة على هذا، أخذ يعمل من أجل إخراج الحركة القومية الكُردية عن إطارها المحلي الداخلي العراقي الى إطار إقليمي ودولي. والواقع أن جهد بارزاني على هذا الصعيد تمخض عن لقائه في منطقة حدودية قريبة من إيران بمندوب سوفياتي زار المنطقة[١٠٢]، إضافة الى نجاحه في إجبار البريطانيين على الإتصال بالإنتفاضة ومحاولة إقناع بغداد بإيجاد حل سلمّي لمطالب الكُرد السياسية.

لكن الأهم من ذلك كلّه أن إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ نجحت في منح الحركة القومية الكُردية داخل العراق بُعداً سياسياً واضحاً بعد عقدين من محاولات الحكومة العراقية إنكار هذا البُعد وعدم الإلتفات الى أهمية حلّ القضية الكُردية على اساس من الحوار والمحادثات المتبادلة.

(١٠٠) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٩٧
(١٠١) عارف، المصدر أعلاه، ص ١٣٢
(١٠٢) مقابلة مع مسعود بارزاني في ٢٠٠٠/٨/١٢.

البارزانيون في كُردستان إيران

حين إنتهت الحرب العالمية الثانية في صيف ١٩٤٥ بهزيمة دول المحور وإنتصار الحلفاء، كانت القوات السوفياتية والبريطانية لاتزال في شمال إيران وجنوبها. وكانت قبضة طهران ضعفت الى درجة كبيرة في المنطقة الكُردية الواقعة بين الجيشين السوفياتي والبريطاني في غرب إيران، خصوصاً بعد تنازل الشاه رضا بهلوي في السادس عشر من أيلول ١٩٤١ عن العرش لإبنه محمد رضا بهلوي. وكان هذا الأمر في حد ذاته كافياً لتشجيع السكان، خصوصاً في مهاباد وأطرافها، على إستثمار الفرصة في إتجاه الحصول على مكسب قومي. وكانت إنتفاضة بارزان في العراق أسهمت في شكل كبير في تنشيط الشعور القومي بينهم.

في هذه الفترة التي نشطت فيها (ژ.ك)[١٠٣] في مهاباد وأطرافها، إختار بارزاني أن ينسحب في الحادي عشر من تشرين الأول ١٩٤٥ مع قواته الى أطراف قصبة شنو لوضع قدراته العسكرية ومقاتليه تحت تصرف الحركة القومية الكُردية في الجانب الإيراني من الحدود. وكان إتصل قبل ذلك بـ(ژ.ك). والواقع أن خطوته هذه مثلت محاولة ذكية لمنع الحركة القومية الكُردية في العراق من الوقوع في مهاوي إنتكاسة نفسية وسياسية كبيرة إثر إنسحاب مقاتلي إنتفاضة ١٩٤٥ الى كُردستان إيران.

أنعش وجود البارزانيين في مهاباد الحماس القومي الكُردي في كُردستان إيران، كذلك في العراق. ويؤكد الباحث الأميركي آرتشي روزفلت[١٠٤] أن وجود بارزاني في مهاباد مع مقاتليه[١٠٥] كان له دور أساسي في تشجيع كُرد

(١٠٣) تأسست جمعية (ژ.ك) في صيف ١٩٤٢ في مدينة مهاباد. والإسم مختصر (ژیانەوەی کورد) أي (إحياء الكرد).

(١٠٤) The Kurdish Republic of Mahabad, Archie Roosevelt Jnr. An articale in People without Country, The Kurds and Kurdistan, Edited by Gerard Chaliand, Translated by Michael Pallis, Zrd Book, 1980, London, P 150-135.

ظهر هذا البحث لأول مرة في مجلة The Middle East Journal, Washington, 3, 1 July, 1947.

(١٠٥) بلغ عدد المقاتلين البارزانيين في صفوف جمهورية مهاباد، نحو ١٥٠٠ مقاتل مع أسلحتهم.

إيران على إعلان جمهورية مهاباد في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٦.

والواقع أن كُرد العراق حملوا في دواخلهم في تلك الفترة مرارة عميقة من إنهيار الكيانين الكُرديين المستقلين اللذين أسسهما الشيخ محمود الحفيد في السليمانية في ١٩١٩ و١٩٢٣. لهذا تطلعوا بعيون ملؤها الأمل الى أن ينجح الكيان المهابادي في إعادة تحقيق أملهم الضائع.

اللافت في نشاطات بارزاني السياسية أنها لم تقتصر على قيادة القوات العسكرية للجمهورية فحسب، بل شملت، في الوقت نفسه، الإحتفاظ بصلات قوية مع الحركة السياسية الكُردية في العراق. وما ساعده في ذلك أن عدداً من الضباط ورؤساء العشائر والوجهاء والمتنورين الكُرد من كُردستان العراق إلتحقوا بجمهورية مهاباد وأخذوا يعملون تحت قيادته. وكان من أبرز هؤلاء، الضباط الأربعة الذين أعدمتهم بغداد لاحقاً: عزت عبدالعزيز ومصطفى خوشناو وخيرالله عبدالكريم ومحمد قدسي، إضافة الى مير حاج وحمزة عبدالله ونوري أحمد طه وجلال أمين وعبدالرحمن النقيب ووهاب محمد آغا.

في هذه الأثناء أحسّ بارزاني أن التطور الحاصل في بنية الحركة القومية الكُردية في العراق أصبح يقتضي وجود حزب ديموقراطي لقيادة العمل القومي الكُردي بالإعتماد على المجموعة العسكرية والمدنية الموجودة معه في مهاباد. لهذا بادر في مهاباد في شباط ١٩٤٦ الى تأسيس حزب بإسم الحزب الديموقراطي الكُردي[١٠٦]. لكن بعد فترة وجيزة، يبدو أنه وجد الخطوة المهمة هي في تأسيس الحزب داخل كُردستان العراق وليس في خارجه.

لهذا بادر الى وقف نشاطات حزبه، وإيفاد أحد مساعديه السياسيين، حمزة عبدالله، الى كُردستان العراق حاملاً رسائل منه الى قادة منظمتي شورش ورزگاري وشخصيات قومية مستقلة ورؤساء عشائر يحثّهم فيها على تأسيس حزب ديموقراطي لقيادة العمل القومي الكُردي في العراق. وكان تقديره أن هذه

(١٠٦) العقيد حويزي، بكر عبدالكريم: جولة في جمهورية مهاباد، مذكراتي في شرق كردستان (باللغة الكردية)، دار ئاراس للطباعة والنشر، كُردستان، أربيل ٢٠٠١، صفحة ٣٧.

الحركة دخلت بعد إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ وجمهورية مهاباد في ١٩٤٦، مرحلة متقدمة في بنيتها السياسية والفكرية، وأن الضرورة أصبحت تقضي وجود حزب سياسي، عصري في تنظيمه وأفكاره وشعاراته وأساليب عمله، لقيادة الحركة القومية الكُردية.

بعد مشاورات صعبة أجراها عبدالله في بغداد والسليمانية تم إعلان تأسيس الحزب في مؤتمر عقده مجموعة ممن لبَّوا نداء بارزاني في السادس عشر من آب ١٩٤٦ في بغداد. وأسفر المؤتمر عن إعلان الحزب وإنتخاب بارزاني بالإجماع رئيساً. والحقيقة التي يتفق كثير من الكُرد حولها أن تأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني كان إنتقالة نوعية كبيرة في حياة الكُرد السياسية في القرن العشرين.

لكن المشكلة أن جمهورية مهاباد التي نشأت بتشجيع سوڤياتي مباشر، وبالتوافق مع جمهورية آذربايجان الشيوعية في شمال إيران، لم تعش طويلاً، إذ إنهارت في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٦ نتيجة تقاطع المصالح الدولية، الشرقية والغربية في إيران في الفترة التي أعقبت إنتهاء الحرب العالمية الثانية[١٠٧]. وكانت هذه الفترة هي الوعاء الذي نضجت فيه بعد سنوات عوامل الحرب الباردة.

أدى البارزانيون دوراً اساسياً في جمهورية مهاباد منذ إنشائها. فإضافة الى تولي بارزاني قيادة قواتها المسلحة برتبة جنرال، دافع مع رجاله بقوة وشجاعة عن الجمهورية في جبهات القتال في أطراف مدينة سقز[١٠٨].

(١٠٧) يرى الصحافي الفرنسي رينيه موربيس أن روسيا التي كانت اليد الداعمة وراء جمهوريتي اذربيجان ومهاباد قايضتهما بإتفاق نفطي مع طهران. أنظر: موربيس، رينيه: كُردستان أو الموت، ترجمة وتعليق جرجيس فتح الله، الطبعة الثانية، دار ئاراس للطباعة والنشر، مطبعة وزارة التربية، أربيل، كُردستان ١٩٩٩ ص٤٧.

(١٠٨) أنظر: وليم إيگلتن الابن، جمهورية مهاباد، جمهورية ١٩٤٦ الكُردية، ترجمة جرجيس فتح الله، دار ئاراس للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، أربيل - ١٩٩٩ . أنظر كذلك: من مهاباد الدامية الى ضفاف ئاراس، تأليف نجف قولي بسيان، ترجمه من الفارسية الى الكُردية شوكت شيخ يزدين، ومن الكُردية الى العربية تيلي أمين، دهوك، مطبعة خبات، ١٩٩٧.

وبعد سقوط مهاباد بعد أقلّ من عام على قيامها، قرر بارزاني بالتشاور مع الشيخ أحمد أن يعود الأخير في صحبة العوائل والأطفال والشيوخ البارزانيين الى العراق، وأن يظل من يريد من المقاتلين معه للتوجه الى الإتحاد السوڤياتي بشقّ طريقهم نحو الحدود السوڤياتية عن طريق القتال والمقاومة.

عاد الشيخ أحمد الى العراق عبر بوابة (كيله شين) مع العوائل البارزانية في نيسان ١٩٤٧ حيث ألقت السلطات الحكومية القبض عليه وعلى جميع العوائل، ونفتهم الى البصرة في جنوب العراق، مع إبقاء الشيخ أحمد نفسه وعبيدالله (١٩٢٧-١٩٨٠)[١٠٩] نجل مصطفى بارزاني الأكبر وصادق نجل شيخ بابو شقيق الشيخ أحمد، في سجن بغداد المركزي. وبعد فترة قصيرة أصدرت المحاكم العراقية في حقهم حكم الإعدام. لكنها غيّرت الحكم لاحقاً الى السجن المؤبد، ونقلت عوائلهم الى الموصل ومنها الى بغداد والحلة وكركوك والسليمانية، حيث ظلوا يتنقلون من منفى الى منفى الى تموز ١٩٥٨[١١٠].

في الفترة نفسها عاد الضباط الكُرد الأربعة وسلّموا أنفسهم الى السلطات العراقية على رغم محاولة بارزاني ثنيهم عن هذا القرار. لكن الحكومة إعتقلتهم، ولم تمض مدة طويلة حتى أصدرت محكمة عسكرية عراقية في حقهم أحكاماً بالإعدام تم تنفيذها في التاسع عشر من حزيران ١٩٤٧.

والواقع أن سقوط جمهورية مهاباد كان في حد ذاته ضربة مؤلمة لحقت بالحركة القومية الكُردية. لكن بارزاني الذي كان حريصاً على منع الإنعكاس السلبي للنكسات التي تتعرض لها إنتفاضاته، حاول منع تحول إنهيار الجمهورية الى كارثة قومية أخرى. وكان طريقه لإنجاز هذا المنع، هو رفضه الإستسلام لأي من الحكومات العراقية أو الإيرانية أو التركية، وقراره مقاومة القوات العسكرية للدول الثلاث، ومن ثم الإنتقال مع مقاتليه بعد مسيرة قتالية راجلة، الى الإتحاد السوڤياتي عبر نهر ئاراس الحدودي في مثلث الحدود السوڤياتية التركية الإيرانية[١١١].

(١٠٩) أعدمته السلطات العراقية في بداية الحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٠

(١١٠) مقابلة مع مسعود بارزاني في صلاح الدين في ١٢ آب عام ٢٠٠٠.

تعرضت هذه المسيرة الى قصف الطائرات الحربية التابعة للدول الثلاث وتخللتها صدامات عسكرية عدة وأيام عصيبة، لكنها نجحت في الوصول الى هدفها، وأسهمت لاحقاً في شكل عميق في تغذية الذهن القومي الكُردي بتطلعات جديدة من الأمل والتفاؤل. والأكثر أنها أذكت الحماس في نفوس الشباب الكُردي وأججت مشاعرهم، ما أفضى الى أن يصبح سقوط مهاباد ومسيرة البارزانيين الى الإتحاد السوفياتي بداية مرحلة جديدة في العمل القومي الكُردي. ولا أدل على ذلك من معرفة أن مسيرة بارزاني في ١٩٤٧ تحولت، أكثر من أي موضوع كُردي آخر، الى مادة غنّية للقصائد والملاحم الشعرية والأغاني الكُردية.

بارزاني بعد عودته الى العراق

عاد مصطفى بارزاني من منفاه في الإتحاد السوفياتي في السادس من تشرين الأول ١٩٥٨ أي بعد أقل من ثلاثة اشهر من قيام الجنرال عبدالكريم قاسم بثورته في صباح الرابع عشر من تموز من العام نفسه. وكان الزعيم الكُردي غادر موسكو في الحادي والعشرين من أب من العام ذاته متوجهاً الى بخارست برفقة زميليه ميرحاج أحمد وأسعد خوشوي، حيث إستقبله الرئيس الروماني بترحاب وحفاوة. ثم أرسل بارزاني من العاصمة الرومانية برقية تهنئة الى عبدالكريم قاسم عن طريق السفارة المصرية بمناسبة نجاح الثورة، غادر بعدها الى براغ حيث إستقبله الرئيس التشيكوسلوفاكي، يومذاك، أنطوني نوفوتني الذي ظلّ محتفظاً بعلاقة صداقة مع بارزاني حتى آخر أيام حياته.

في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وجّه بارزاني رسالة الى قاسم طالباً موافقته على عودته مع بقية البارزانيين المنفيين الى العراق. ردّ قاسم على الرسالة مرحباً بهم ومشيراً الى إمكان التنسيق في شأن إجراءات العودة مع السفارة المصرية لدى تشيكوسلوفاكيا.

(١١١) يصف رينيه موريس هذه المسيرة بأنها مأثرة بطولية ستبقى فصلاً رائعاً في تاريخ الكُرد خالداً أبد الدهر. وأنها توضع في صف مسيرة ماوتسي تونغ الكبرى. صفحة ٤٧.

والواقع أن إنهيار النظام الملكي في بغداد كان في حد ذاته بمثابة منعطف سياسي بارز في مسار الحركة القومية الكُردية. وما زاد من أهمية ذلك الإنهيار أن زعيم الثورة، الجنرال قاسم، بادر بعد فترة قصيرة من وصوله الى الحكم، الى تضمين الدستور العراقي مادة نصّت على شراكة العرب والكُرد في العراق (المادة الثالثة). ولا ينى الكُرد حتى يومنا هذا، يصفون خطوة قاسم في ذلك الخصوص بأنها أعربت عن روح شجاعة.

لاحقاً، تعاظمت أهمية ثورة تموز بالنسبة الى الحركة القومية الكُردية بعدما أطلق قاسم آفاق العمل العلني أمام النشاطات الثقافية والإجتماعية والسياسية الكُردية في جوٍّ من الحرية. والواقع أن عودة بارزاني من الإتحاد السوفياتي في صورة البطل القومي، منحت بدورها دفقاً هائلاً لإنتعاش الحركة الكُردية إن في العراق أو خارجه. وتجلى ذلك في الإستقبال الشعبي الكُردي والعراقي الحافل الذي حظي به بعد عودته.

ينقل مسعود بارزاني عن الصحفي السوفياتي ديمنجكه الذي كان موجوداً في بغداد في تلك الفترة، وصفه للإستقبال (... وفي صباح ذلك اليوم أيقظني الضوضاء المدوي في الشوارع. طوابير من سيارات الأجرة الخفيفة المزينة بالأعلام العراقية واللافتات البيضاء كتبت عليها الشعارات باللغتين الكُردية والعربية تخترق بصعوبة حشود الجماهير، وهي تحمل مندوبين من كُردستان العراق جاءوا لإستقبال بطلهم القومي).

ويضيف ديمنجكه أن المستقبلين بدأوا سفرهم ليلاً ليصلوا في الوقت المقرر لهبوط الطائرة وهم يهتفون: عاشت الصداقة العربية الكُردية. وآلاف الناس على الأرصفة والجسور وفي شرفات البنايات يرددون الهتاف. والشعارات رفعت على مباني كثيرة على شرف قدوم مصطفى بارزاني.

لكن المشكلة أن ثورة ١٤ تموز لم تُسفر عن الديموقراطية التي دعا إليها قادتها. بل سرعان ما إنحدر العراق في ظل خوذ قادتها العسكريين الى أتون من الحكم الفردي والصراعات الداخلية، إضافة الى تعاظم حدة التوترات الآيديولوجية القومية والشيوعية في أوصالها. وكان من شأن ذلك كلّه أن يعكس تأثيرات مدمرة على تفاؤل الكُرد الذين تصوروا أن فرصتهم القومية

في ظل النظام الجديد أصبحت سانحة أكثر من أي وقت مضى.

عاد بارزاني الى العراق مسكوناً بالهمّ الكُردي. ومرّ في طريق عودته بالعاصمة المصرية القاهرة التي كانت تعيش، في ظل نشوة حرب السويس في ١٩٥٦، أوج هيجانها الآيديولوجي القومي، ودعواتها الى الوحدة والثورة ومعاداة الإستعمار.

إلتقى بارزاني بعد وصوله القاهرة بالزعيم المصري جمال عبدالناصر. وعلى رغم أن اللقاء لم يسفر عن شيء جدّي، إلا أنه أشّر الى معادلة أساسية في حساباته السياسية، تلك هي إفهام القاهرة، التي كانت تمثل معقل القومية العربية، أن الصراعات الكُردية مع الدولة العراقية، لاتهدف الى إيذاء العرب على رغم أن بغداد، حاولت إضفاء طابع عربي على حربها ضد الكُرد. وللتأكيد على ذلك، فإن الكُرد مستعدون للإندماج في النظام الديموقراطي العراقي الجديد الذي يضمن لهم حقوقهم. والواقع أن هذا الإيحاء كان ذا مغزى كبير نظراً لكون عبدالناصر في تلك الفترة أبرز معالم القومية العربية.

إستقبل الرئيس المصري الزعيم الكُردي العائد من الإتحاد السوفياتي بحفاوة بالغة. وكانت القاهرة تتطلع في الواقع الى إمكان الإستفادة من الورقة الكُردية في صراعاتها مع إيران وتركيا. وفي هذا الإتجاه لم تتردد العاصمة المصرية منذ ١٩٥٧، أي بعد حرب السويس بأقل من عام، في تخصيص إهتمام لافت بالقضية الكُردية في العراق في خضمّ صراعها مع إيران الشاهنشاهية وتركيا الأتاتوركية من جهة، والولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل من جهة ثانية. ومع أن هذه الصراعات تضمنت حسابات متعلقة بالحرب الباردة والصراع بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، إلا أنها عبّرت أيضاً عن تضادات واضحة بين المشاريع القومية العربية والإيرانية والتركية. والأرجح أن بارزاني كان على دراية كافية بالمصاعب التي تنتظر إدارة العمل القومي الكُردي وسط تلاطمات هذا الصراع. لهذا لم يدخر الزعيم الكُردي جهداً لمنع تحول الحركة القومية الكُردية الى ساحة للصراع الإقليمي والدولي في ذلك الشطر الزمني.

في هذا الخضّم الهائل، حرص بارزاني على حفظ الحركة الكُردية من الوقوع

في مطب الشعاراتية ولغة الخطابة الطنانة والآيديولوجيات الثورية على رغم أن الحركات القومية والشيوعية في الشرق الأوسط، خصوصاً الحركة القومية العربية، حملت في طيّاتها في تلك الفترة إستعداداً فطرياً للسقوط في ذلك المطب. وكانت مصر وتجربة عبدالناصر القومية من جهة، وسورية ومدير استخباراتها الناصري عبدالحميد السراج من جهة أخرى، أسطع الأدلة في هذا الصدد.

لكن بارزاني الذي إشتهر بين الكُرد بواقعيته وتفكيره العملي وخياله البعيد عن التنظير، لم يحرص على بناء علاقات طبيعية وتفاهم مشترك مع مراكز العمل القومي العربي خارج العراق فحسب، بل حاول، بعد عودته الى بغداد، إقامة علاقات طبيعية متينة مع النسيج العراقي، خصوصاً مع الأحزاب العراقية والحركات والعشائر والتجمعات الوطنية المتنوعة.

وكان قاسم أفرج بعد نجاح ثورته عن البارزانيين المنفيين والمسجونين في العراق. لهذا زار الشيخ أحمد بعد إطلاق سراحه من السجن، في الحادي والعشرين من تموز ١٩٥٨، وزارة الدفاع وإلتقى قاسم وهنأه بقيام العهد الجديد. أما بارزاني نفسه، فإنه إلتقى حالما عاد الى بغداد زعيم الثورة عبدالكريم قاسم. ويوضح مسعود بارزاني في كتابه أن والده إعتبر نفسه وزملاءه جنوداً للدفاع عن الجمهورية العراقية.

والأرجح أن تأييده لإنقلاب قاسم كان مبنياً على عاملين رئيسيين: أولهما المآسي والمظالم التي لحقت بالكُرد في العهد الملكي بدعم بريطاني علني وخفي، وما شكلته الأوضاع الجديدة من أمل برفعها. وثانيهما قناعة بارزاني أن زعيم الثورة جاد في حل المشكلة الكُردية عبر طرق ووسائل سياسية وسلمية. وكانت السياسة في بغداد تفتقد منذ تأسيسها الى نظرة جدية وحقيقية وواقعية لحل هذه المشكلة عبر التفاهم والحوار.

أما على الصعيد الكُردي، فحرص بارزاني في ظل الحرية التي وفّرتها ثورة تموز، على رصّ صفوف الشعب الكُردي في العراق وإعادة تنظيم الحزب الديموقراطي الكُردستاني الذي دبّت في صفوفه خلافات عميقة في فترة غيابه القسري.

إيران والكُـرد: المحطة الأولى

تصح الإشارة الى أن الحكومة أخذت تتراجع منذ ١٩٥٩ عن تنفيذ وعودها للكُرد، في خطوة أشّرت الى رغبتها الرامية الى التقارب مع القوى البعثية والقومية العربية. وكانت السلطات العراقية بدأت بعرقلة نشاطات الحزب الديموقراطي وملاحقة كوادره. في ما بعد أغلقت الحكومة صحيفة (خەبات) لسان حال الحزب في أوائل عام ١٩٦١. وكانت أقصت في الفترة نفسها الوزير الكُردي اللواء فؤاد عارف من منصبه.

في هذا الشطر الزمني، وجدت طهران أن مصالحها أصبحت تقتضي التحرك صوب إستثمار الورقة الكُردية في العراق ومحاولة استيعابها وإستخدامها في وجه بغداد. وكان قاسم فتح الباب في تلك الفترة أمام النفوذ السوڤياتي، وأخذ في الوقت عينه يدخل في متاهة صراع جديد مع إيران على خلفية خلافات في الحدود والمياه في شط العرب.

والواقع أن إيران في ظل الشاه محمد رضا بهلوي رأت في العراق جزءً حيوياً من أمنها الإستراتيجي، فحدودهما المشتركة التي تمتد الى أكثر من ألف كيلومتر، كانت تشكل في نقاط عدة، خصوصاً في شط العرب ومنطقتي مندلي وخانقين النفطيتين الكُرديتين، أسباباً لخلافات غير قليلة منذ التسوية التي فرضتها بريطانيا على الدولتين في إتفاقية ١٩٣٧ حول شط العرب. كما أن سماتهما المذهبية المتباينة، السنّية في العراق والشيعية في إيران، كانت تبعث على الدوام مخاوف متبادلة على رغم التشابه في علمانية النظامين.

الى تخوفاتها الكُردية والعراقية في المناطق الحدودية، كانت تعتصر طهران حساسية مفرطة من إتساع نفوذ الإتحاد السوڤياتي في الشرق الأوسط. فدور السوڤيات في دعم جمهوريتي كُردستان وآذربيجان في شمال وشمال غربي إيران، وإنقلاب الدكتور مصدق في ١٩٥٣، كان لايزال طرياً في الذاكرة الإيرانية.

إنطلاقاً من تلك الحسابات كلّها رأت طهران في حركة السياسة في العراق وإتجاهاتها والتغييرات الحاصلة فيها، حلقة جوهرية من حلقات أمنها

الإستراتيجي. وبما أن شراكة البلدين في التحالف ضمن حلف بغداد ١٩٥٥ وقبله ميثاق سعد آباد (١٩٣٧) كانت تضمن دوام الإستقرار الحاصل في بنية علاقاتهما الأمنية والسياسية والعسكرية، فإن إيران لم تشعر بأي تهديد نابع من حدودها الغربية. لكن إنتهاء حرب السويس عام ١٩٥٦ وبروز دور الإتجاهات القومية العربية عبر مصر وسورية وتحالفاتهما الدولية التي مهّدت لتوغل السوڤيات في مشكلات الشرق الأوسط، أثارت مخاوف حقيقية في طهران.

والواقع أن التوجه الإيراني نحو الخيار الكُردي أملاه يقين الإيرانيين أن نظراءهم من شيعة العراق تحولوا الى تأييد قاسم نظراً لأصوله المذهبية الشيعية، ووعوده برفع التمييز الطائفي عنهم. هذا في حين أدت التصفية الدموية للعائلة المالكة في صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ الى تشتت شمل الضباط الملكيين وهروبهم الى لبنان والأردن وبريطانيا وصعوبة الإستفادة منهم في إعاقة تجربة قاسم. وفي هذا الوسط لم يظل أمام طهران من خيار لتطبيق خطته المتعلقة بإطاحة زعيم الإنقلاب العراقي سوى اللجوء الى الكُرد[١١٢].

لكن المشكلة، في هذا الإطار، أن طهران لم تكن تنظر بودّية الى بارزاني نتيجة دوره في جمهورية مهاباد وأحكام الإعدام الصادرة في حقه من المحاكم الإيرانية، إضافة الى إقامته الطويلة في الإتحاد السوڤياتي لاجئاً. وما زاد من مخاوف إيران من بارزاني أنه زار في الخامس عشر من تشرين الأول ١٩٦٠ موسكو بناء على دعوة رسمية للمشاركة في إحتفالات ثورة أكتوبر. وإستقبله هناك كبار المسؤولين السوڤيات بمن فيهم الأمين العام للحزب الشيوعي السوڤياتي نيكيتا خروتشوف.

وينقل مسعود بارزاني عن تصريحات لنائب رئيس الوزراء رئيس جهاز (ساواك) الأمن الإيراني الشاهنشاهي الجنرال تيمور بختيار، في نهاية الخمسينات، في تصريحاته الى صحف إيرانية أن الوضع في كُردستان غير مضمون والحكومة الإيرانية تراقب مصطفى بارزاني الذي زار القاهرة والموجود

(١١٢) لتفاصيل أكثر حول العلاقات الكردية الإيرانية أنظر: شورش، سامي: تنوع الكرد في العراق، مدخل الى السياسة، أربيل، دار ئاراس للطباعة والنشر، ٢٠٠٠.

حالياً في بغداد لتحريض الكُرد، يعاونه السوڤيات في ذلك.

كذلك يشير رئيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني في كتابه الى مقال نشرته مجلة (ترقي) الإيرانية في عددها ٨٣١ الصادر في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٥٨ تحت عنوان (العراق، مركز التآمر ضد إيران) تضمن هجوماً شديداً على بارزاني والحكومة العراقية لسماحها له بالعودة.

لكن نائب الملحق العسكري في السفارة الإيرانية في بغداد، المسؤول عن ملف (العراق) و(الكُرد)، آنذاك، العقيد الركن عيسى بزمان، كان نجح في إقامة علاقات مع أعضاء قياديين في الحزب الديموقراطي الكُردستاني من أمثال إبراهيم أحمد. لذلك إقترح على الشاه في إحدى لقاءاته معه، التعاون مع هؤلاء من دون العودة الى بارزاني نفسه[١١٣].

غير أن الضغوط كانت كبيرة على الحركة القومية الكُردية في إتجاه تفجيرها على شكل عسكري. وكانت هذه الضغوط تنطلق من مصادر رئيسية عدة:

الأول: إيران التي كانت تعمل على خلق العراقيل أمام حكومة عبدالكريم قاسم بهدف إطاحتها.

والثاني: الأحزاب والإتجاهات القومية العربية التي بدأت تلتف حول قاسم في الظاهر، لكنها تعمل في الخفاء من أجل إطاحته. وكان بين هؤلاء عناصر من حزب البعث والقوميين العرب والعناصر العسكرية المحسوبة على سورية ومصر، ممن لم يحبذوا تمتع الكُرد بحقوق قومية في إطار العراق.

لكن الأسوأ من هذا كلّه أن الحكومة العراقية شكّلت بدورها مصدراً ثالثاً للضغط على الحركة الكُردية، إذ بدأت تتراجع كلياً عن وعودها الخاصة بإقرار الحقوق الكُردية.

في هذه الأثناء عاد بارزاني من موسكو بعد تلبيته لدعوة رسمية للمشاركة

(١١٣) في هذا الخصوص أنظر: بزمان، عيسى: أسرار عقد إتفاقية الجزائر ١٩٧٥، من الملفات السرية لجهاز ساواك الأمني الإيراني، باريس ١٩٩٢ .

في إحتفالات ثورة أكتوبر. لكنه لم يستقر في بغداد، إنما غادرها في أوائل آذار ١٩٦١ متوجهاً الى قريته بارزان للإقامة فيها. ورغم أن بغداد توجست من تركه العاصمة وزيارته، قبل ذلك، موسكو ولقائه بكبار المسؤولين السوڤيات، إلا أن الأرجح أن إنتقاله الى مسقط رأسه لم يهدف، في الحقيقة، سوى الى إبداء الإمتعاض من الطريقة التي تتعامل بها السلطات العراقية مع القضية الكُردية.

لاتتوفر أدلة ومعطيات تشير الى رغبة بارزاني في الإلتجاء الى الخيار العسكري لإجبار حكومة قاسم على وقف تجاوزاتها ضد الكُرد، عدا مغادرته بغداد وإستقراره في مسقط رأسه. لكن الواضح أن الحكومة العراقية أدركت إستحالة القضاء على الحركة القومية الكُردية المتنامية من دون القضاء أولاً على زعيمها بارزاني.

لهذا شرعت الحكومة العراقية عملاً دؤوباً من أجل القضاء على الزعامة الشرعية الكُردية ممثلة ببارزاني. وكانت إشارة البدء على هذا الطريق هي قيام طائرات حربية عراقية بالإغارة على قرية بارزان في السادس عشر من أيلول ١٩٦١. لكن الغارة لم تسفر سوى عن أضرار طفيفة لحقت بالمدنيين. أما بارزاني نفسه فقد بدأ جولة في منطقة بهدينان شمال الموصل بهدف تعبئة العشائر للإنتفاض ضد الحكومة العراقية.

أخفقت بغداد في حل المشكلة الكُردية بطريقة سلمية. وما زاد من تبعات الإخفاق أن بغداد لم تنتبه في شكل دقيق الى التطور الحاصل في بنية الحركة القومية الكُردية بعد الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ بفعل عودة بارزاني. وكان الجوهر الرئيسي لهذا التطور يتمثل في أن الموضوع الكُردي لم يعد مجرد نشاطات مسلحة ومبعثرة لايتجاوز نطاقها حلقات ضيقة من القائمين بها، كما كانت الحال في السابق. إنما تحول الى مسألة سياسية واسعة النطاق قادرة على الجذب الجماهيري الكُردي، ومسألة عراقية عامة إنشغلت بها أحزاب وشخصيات سياسية في الوسط السياسي العراقي.

والواقع أن هذا التداخل بين الشأنين الكُردي القومي والعراقي الوطني، الذي لم ينتبه اليه قاسم، كان له تأثير كبير في إخفاق الأخير في حشد

الأحزاب والشخصيات العربية في العراق وراء حربه التي أعلنها ضد الكُرد بالإعتماد على حلقات عسكرية قومية وبعثية في حكمه. وكانت الإشارة الأوضح الى هذا الإخفاق هي التظاهرة الضخمة التي نظمها الحزب الشيوعي العراقي في بغداد في أيار عام ١٩٦٢ تحت شعار (السلم في كُردستان). ومن ثم سقوط حكم قاسم إثر إنقلاب نفذه البعثيون في الثامن من شباط ١٩٦٣ أي بعد أقل من عام ونصف العام من إندلاع إنتفاضة ١١ أيلول ١٩٦١.

مع هذا كلّه، ظلّ الزعيم الكُردي حريصاً على إستثمار كل فرصة ممكنة في إتجاه الحوار السلمي مع السلطات المركزية، مفضلاً عدم تثوير النزعات الهجومية ضمن الحركة القومية الكُردية. وهذا في الوقت الذي كانت منطقة الشرق الأوسط تستعر بنزعات الحدّة والتطرف والهجوم الكلامي وغير الكلامي.

في هذا الإتجاه إستقبل بارزاني في ١٩٦١ موفد الحكومة العراقية آمر اللواء حسن عبود للتباحث معه في آفاق إجراء محادثات سياسية. والأرجح أن بارزاني كان متيقناً من أن زيارة عبود لاتعدو أن تكون مؤامرة تستهدف تحديد مكانه وقتله عن طريق قصف جوي مفاجيء لموقع الإجتماع. وقد صدق حدسه، إذ بعدما قرر تبديل موقع الإجتماع قبل ساعات من إنعقاده، حتى إنقضت الطائرات الحربية العراقية على الموقع الأول وقصفته بشدة. وعلى رغم فشل هذه المحاولة، فإن الزعيم الكُردي لم يتردد عن إستقبال مبعوث آخر من قاسم في حزيران ١٩٦٢ هو قائد قوات الميدان العراقي. ويؤكد الباحث الكُردي كريم فندي أن بارزاني كان يحاول، في تلك الفترة، تهدئة الوضع وإخضاع الأمور للقانون والنظام(١١٤).

لكن الحكومة العراقية، على ما تشير وقائع الأحداث، فسّرت محاولاته السلمية بأنها تعبير عن ضعف موقفه السياسي وهشاشة قدرته العسكرية، ما

(١١٤) فندي، عبدالكريم: البارزاني ومبدأ الحوار السياسي، مؤتمر الذكرى التسعين لميلاد البارزاني الخالد، صلاح الدين ١٤-١٩٩٣/٩/١٧، مطبعة خبات، الطبعة الأولى، كردستان ١٩٩٧.

دفع بها الى تشديد حملاتها العسكرية ورفض كل فرصة مناسبة للتوصل الى سلام عادل ونهائي. وكان التفسير نفسه وراء الهجمات العسكرية العراقية في نيسان ١٩٦٣ على رغم أن بارزاني وافق في مؤتمر شعبي كُردي في كويسنجق في آذار ١٩٦٣ على دخول حزبه في محادثات سياسية مع حكومة البعث. هذا في الوقت الذي يتفق فيه الكُرد والمهتمون الأجانب بالشأن الكُردي على أن بارزاني كان نموذجاً فذاً في جرأته وشجاعته وبسالته وأنه لم يكن يخاف القتال إلا بمقدار ما يعكس هذا القتال من دمار وخراب بالنسبة الى الأهلين والمدنيين.

الصحافي الفرنسي رينيه موريس الذي إلتقى به في جبال كُردستان، يصفه بأعظم محارب فذ أنجبه العصر. لكنه ينقل عنه في الوقت نفسه، روايته المشهورة لمرافقيه: يحكى أن أسيراً رجا من حراسه أن يفكوا وثاقه. ولما سألوه عن السبب، أعرب الأسير عن رغبته في المشي الى شجرة البلوط المجاورة. وافق الحراس، لكن بعد أن أنهى مشيته سألوه عمّا حفزه الى هذا؟ فأجاب بدون تردد: إني مشيت ثلاثين خطوة. ولنفسح المجال أمام شعبنا أن يمشي خطواته الثلاثين(١١٥).

كذلك ينقل موريس عن المهندس البريطاني الذي اشرف على شق طريق رئيسي في كُردستان العراق في العشرينات، أركيبالد ماين هاملتون أن الكُرد شعب شجاع ومخلص وأهل للثقة، وأنهم يملكون شخصاً مثل مصطفى بارزاني الذي هو أعظم عسكري في عصرنا وأنبغهم(١١٦).

في أواخر آذار ١٩٦٣، سافر وفد كُردي برئاسة عضو المكتب السياسي للحزب الديموقراطي، آنذاك، جلال طالباني الى بغداد. لكن هذه المحادثات لم تفضِ الى نتائج عملية على رغم أن طالباني إلتقى ضمن وفد شعبي عراقي بالرئيس المصري في القاهرة والرئيس الجزائري أحمد بن بلله في الجزائر.

والواقع أن الكُرد أملوا في أن تفضي الأجواء الجديدة التي هيأها إنقلاب الثامن من شباط الى إيجاد حل سلمي لمشكلتهم. لكن السلطات البعثية

(١١٥) رينيه موريس، المصدر نفسه، صفحة ٤٩.
(١١٦ المصدر أعلاه، صفحة ١٠٨.

سرعان ما إنقلبت على دعوات الحل السلمي وأخذت تنتهج سياسة إبادة بشرية وإقتصادية مروعة ضد الكُرد.

في هذا الإطار، دمّرت السلطات العراقية ١٢٠٠ منزل لعوائل كُردية داخل مدينة كركوك النفطية في حزيران ١٩٦٣. كما دمرت القوات العراقية في الفترة نفسها ٢٤ قرية في أطراف المدينة، خصوصاً في منطقة (دوبز) شمال غربي كركوك. وفي نهاية حزيران شنت القوات العراقية الخاصة هجوماً مدمراً على قصبة كويسنجق شرق أربيل، وأعدمت عشرات المدنيين بعد ربطهم الى أعمدة الكهرباء وإطلاق النار عليهم. هذا طبعاً بالإضافة الى حملات عسكرية أخرى في السليمانية حيث دفنت السلطات مجموعة من أعضاء الحزب الديموقراطي الكُردستاني أحياءً في مقبرة جماعية واحدة. كذلك كان الحال في سهل أربيل وسهل سليفاني في أطراف دهوك.

هذه الممارسات الحكومية أدت الى تجدد القتال في كُردستان العراق. لكن اللافت أن إيران بدأت تلعب في ظل الظروف الشائكة التي أحاطت بالكُرد، لعبة مزدوجة في مواقفها تجاه تطورات الأوضاع في العراق. والواقع أن إيران كانت تنفست الصعداء بعد سقوط نظام عبدالكريم قاسم، ووصول البعثيين الى الحكم. لكنها في الوقت عينه بدأت تشعر بالمخاوف من توجه البعثيين العراقيين نحو الوحدة مع سورية البعثية ومصر الناصرية، خصوصاً بعد مشروع الوحدة بين الدول الثلاث في نيسان من العام نفسه.

لهذا كانت طهران ترعى مع الغنم وتنام مع الذئب عن طريق مواصلة علاقاتها الخفية مع تيار المكتب السياسي من جهة، وإرسال ضباطها الى غرفة العمليات العسكرية العراقية في كركوك للتنسيق مع البعثيين في مواجهة الإنتفاضة الكُردية من جهة أخرى[١١٧].

العامل الإيراني، معطوفاً على الممارسات العراقية، أسهما في تجدد القتال في ١٩٦٣. إلا أن بارزاني ظلّ متطلعاً الى خيارات السلام، خصوصاً بعد أن

(١١٧)
The Historical Place of the Kurdish National Liberation Movement. Published by The International Relations Committee of the Kurdistan Democratic Party. The Kurds Series No. 3. Calvert`s Press. September 1977. P5.

أطاح عبدالسلام محمد عارف بالنظام البعثي في الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩٦٣. وتبدت رغبته السلمية في موافقته، في العاشر من شباط، على هدنة مع الحكومة العراقية لم تسفر بعد مضي عدة أشهر عن نتيجة ملموسة.

عاد الجيش العراقي الى عملياته القتالية بعد إنهيار الهدنة. وما زاد من حدة تلك العمليات أن عبدالسلام محمد عارف أخذ ينتهج طريق التقرب من القاهرة ويزيد من وتيرة تجييش الدولة العراقية، إضافة الى تقربه من موسكو عن طريق مصر. وكان من شأن هذه التوجهات أن تمنع رأب الصدع بين العراق وإيران، ما دفع بطهران الى تشديد تدخلاتها في الشأن الكُردي.

في هذا الخصوص، يذكر عيسى بزمان أنه زار مقر المكتب السياسي بعد سماعه بعزم بغداد وبارزاني على التوصل الى هدنة. وكان يعمل آنذاك مستشاراً عسكرياً في السفارة الإيرانية في بغداد ومسؤولاً عن نشاط جهاز الأمن الإيراني في العراق وعلى صلة ببعض العناصر القيادية في المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني. ويشير كذلك الى أنه تحدث الى إبراهيم أحمد وحضّه على رفض الهدنة. وحين عاد الى طهران وقابل الشاه وطلب منه الأخير قطع علاقاته مع الكُرد عقوبة على عزم بارزاني عقد هدنة شباط، أكد بزمان أنه إتفق مع بعض أعضاء المكتب السياسي على معارضة الهدنة حتى إذا أدى ذلك الى إنشقاق الحزب الديموقراطي ومحاربة بارزاني[١١٨].

لاحقاً، حين تحدث بزمان الى بارزاني، أكد له الأخير أنه عاقد عزمه على الهدنة مع عبدالسلام محمد عارف نظراً لحاجة شعبه ومقاتليه الى فرصة لإلتقاط أنفاسهم.

بعد الإتصال الإيراني بالمكتب السياسي دعا إبراهيم أحمد الى مؤتمر حزبي، سرعان ما تم عقده، بحضور غير كامل، في قصبة (ماوەت) في ٤ نيسان ١٩٦٤ جرى فيه بحث تجريد بارزاني من صلاحياته كرئيس للحزب[١١٩].

(١١٨) أنظر: بزمان، عيسى: أسرار عقد إتفاقية الجزائر ١٩٧٥.
(١١٩) تفاصيل أخرى في كتاب سنجاري، علي: الحركة التحررية الكُردية، مواقف وآراء، الطبعة الأولى، مطبعة خبات، كُردستان، دهوك ١٩٩٧ .

في مقابل هذا الإجراء الذي لم يحظ بتأييد القاعدة الحزبية ولا على موافقة أغلبية اعضاء اللجنة المركزية، أضطر بارزاني الى عقد مؤتمر آخر تمخض عن طرد أغلبية أعضاء المكتب السياسي القديم، وإنتخاب مكتب سياسي جديد لإدارة أعمال الحزب الديموقراطي الكُردستاني. أما تيار إبراهيم أحمد فإنه أضطر الى سحب مؤيديه ومقاتليه الى داخل إيران حيث اسكنتهم السلطات الإيرانية في معسكر خاص في مدينة همدان. في فترة لاحقة، أُعيد هؤلاء الى كُردستان العراق بعد قرار بارزاني العفو عنهم في ١٩٦٥ بتدخل إيراني.

لكن بعد مقتل عبدالسلام محمد عارف في حادث سقوط طائرته الهليوكوبتر في قرية النشوة قرب البصرة في السادس عشر من أيلول عام ١٩٦٦، حاولت طهران إعادة مدّ الجسور مع بغداد. وما شجعها على تلك الخطوة أن عبدالرحمن محمد عارف، شقيق عبدالسلام، الذي حل محله، تمتع بحس عروبوي أخف. كما أنه كان أقل حماساً للتعاون مع القاهرة ودمشق، إضافة الى توجهه الى الإعتماد على عناصر مدنية في تسيير أمور الدولة. وكانت الإشارة في هذا الإتجاه تكليفه الدكتور عبدالرحمن البزاز بتأليف الوزارة، وزيارته اللاحقة الى العاصمة الإيرانية.

في هذه الأجواء الجديدة بدأت بغداد بدورها تتطلع الى حلّ مشكلاتها مع إيران عن طريق التفاوض. وكان ذلك، في حال تحققه، يمهد الطريق أمام قيام حلف عراقي-إيراني ضد الحركة الكُردية. لهذا لم يتردد بارزاني في الموافقة على عرض عراقي للتفاوض في مطلع حزيران ١٩٦٦. والأرجح أنه أراد من موافقته هذه أن يصيب عدة أهداف في آن واحد. فمن جهة تمكنه المفاوضات مع بغداد من إستثمار الإنتصار العسكري الكبير الذي حققته القوات الكُردية في معركة هندرين سياسياً. ومن جهة ثانية تمكنه المفاوضات من دعم التيار المدني الذي مثله البزاز للعب دور بارز في السياسة العراقية. وكانت عودة الحكم العراقي الى كنف المدنيين، في حال تحققها، تشكل مكسباً مؤثراً بالنسبة الى الكُرد الذين أصابتهم خسارة كبيرة من إنتقال الحكم في بغداد الى يد العسكر.

لم تسفر هذه المحطة التفاوضية بدورها عن نتيجة سياسية ملموسة، خلا

سماح الحكومة العراقية بصدور صحيفة (التآخي) الناطقة بلسان الحزب الديموقراطي الكُردستاني في ٢٩ نيسان ١٩٦٧.

لكن التطور السلبي الآخر الذي عكّر صفو الأجواء أمام الحركة القومية الكُردية أن تيار المكتب السياسي سرعان ما إختار الإنضواء تحت راية السلطة المركزية. وتجسد ذلك بعد هروبهم في ١٩٦٦ وشروعهم في التعاون العسكري مع بغداد ضد الحركة القومية الكُردية.

والأرجح أن تفضيل تيار المكتب السياسي التعاون مع بغداد على حلّ خلافاتهم سلمياً مع بارزاني، هو الذي رسخ لدى الأخير قناعة سياسية مفادها أن أخطاء العلاقة بين العرب والكُرد في العراق لاتنبع من عوامل ومؤامرات خارجية وإستعمارية كما تنظّر لها جهات سياسية وثقافية عربية، إنما من عوامل ذاتية وداخلية مرتبطة بالعرب والكُرد أنفسهم[١٢٠]. وكان هذا التفكير في حد ذاته، حلقة جريئة في أفكار بارزاني في الوقت الذي كانت الحركات والأحزاب السياسية في الشرق الأوسط لاتفسر الأشياء إلا في إطار نظرية (المؤامرات الخارجية).

إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠

بعد الإنقلاب البعثي الثاني في ١٧ تموز ١٩٦٨، ركزت الحكومة العراقية هجماتها العسكرية ضد الكُرد. وفي الفترة ذاتها ،أخذت بغداد تحوِّلُ من توجهاتها نحو اليسار والمحور السوفياتي. وكان هذا التحول الذي لقي هوى كبيراً في قلب موسكو، على صلة بتفاقم خلافات العاصمة العراقية مع إيران الشاهنشاهية، وميلها نحو إستثمار أجواء الإحباط العربي التي نشأت بعد نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧ لمصلحتها الذاتية. هذا طبعاً بالإضافة الى

(١٢٠) يشير السكرتير السابق للحزب الديموقراطي الكُردستاني حبيب محمد كريم في مقال له الى أن صدام حسين (كان آنذاك نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة العراقي) حين زار بارزاني في اوائل ١٩٧٠ تحدث معه عن المشاكل المحتدمة بين العرب والكُرد، ملقياً باللائمة على الاستعمار الذي خلق، على حد قول صدام حسين، تلك المشاكل. لكن بارزاني خالفه الرأي، مشدداً على أن المسؤول الرئيسي عن المشاكل بين العرب والكُرد هم العرب والكُرد أنفسهم في الدرجة الأولى.

رغبتها في ضمان الدعم السياسي والعسكري والإستخباراتي الشرقي، السوفياتي والألماني الشرقي على الخصوص، لتثبيت حكمها وتجربتها الإنقلابية.

في هذه الأجواء، بادرت بغداد الى الإتصال ببارزاني الذي لم يرفض الحوار كعادته في تجارب سابقة[١٢١]. وقد يصح القول أن الزعيم الكُردي كان يواجه بدوره صعوبات داخلية وإقليمية عدة لا أقلها فشل محاولاته في ضمان دعم أميركي لحركته من جهة، وتزايد درجة التعاون العسكري بين القوات العراقية وجماعة أحمد-طالباني من جهة ثانية. وكان بارزاني زار، سراً، طهران في صيف عام ١٩٦٨ وإلتقى الشاه بصحبة ممثله في العاصمة الإيرانية شمس الدين مفتي. وكانت الخلافات لاتني تتعمق بين بغداد وطهران، خصوصاً بعد إنسحاب بريطانيا من الجزر الخليجية في ١٩٦٩.

من جهة أخرى، تحملت القوات العراقية عدداً من الهزائم العسكرية طوال عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ في حربها ضد المقاتلين الكُرد، إضافة الى صعوبات سياسية وإقتصادية جمّة.

في خصوص المصاعب الإقتصادية التي دفعت بغداد الى خيار المفاوضات مع الحركة الكُردية في ذلك الوقت، أشارت دراسة نشرتها مجلة (نيو ميدل إيست) البريطانية الى أن الحرب العراقية ضد الكُرد كلّفت ميزانية العراق في ١٩٦٩ نحو ٣٠ في المئة[١٢٢]. أما بالنسبة الى الصعوبات السياسية فلا أدل من الإشارة الى أن السلطات العراقية واجهت في كانون الثاني ١٩٧٠ محاولة إنقلابية واسعة. وكانت بغداد تخشى من تعاظم دور إيران في المنطقة، خصوصاً بعد إعلان الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون في جزيرة غوام في المحيط الهادي في تموز ١٩٦٩ تصميم إدارته على دعم الأنظمة المؤيدة لبلاده لتأخذ على عاتقها دوراً رئيسياً في قمع الدول المتمردة وتخفيف العبء عن واشنطن[١٢٣]. والأرجح أن بغداد لم تكن مخطئة في تقديرها أن إيران هي في

(١٢١) فندي، عبدالكريم: المصدر نفسه ١٧٨.
(١٢٢) New Middle East, P25, London 1970
(١٢٣) شكر، زهير: السياسة الأميركية في الخليج العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٢، صفحة ٥٧

مقدم الدول التي قصدها نيكسون بالأنظمة المؤيدة، بينما العراق في مقدم الدول المتمردة.

أما الكُرد فإنهم واجهوا طوال العقد السادس من القرن الماضي خسائر مادية ونفسية كبيرة جراء نشاطات الإنتفاضة. وينقل الباحث البريطاني ماكداول عن تقرير أعدته لجنة تابعة للأمم المتحدة أن القتال الكُردي العراقي في الفترة بين ١٩٦١-١٩٧٠ أسفر عن تدمير أربعين ألف منزل في سبعمائة قرية كُردية. وتشريد ما يقرب من ثلاثمائة ألف شخص، إضافة الى مقتل وإصابة نحو ستين ألفاً آخرين[١٢٤].

وافق بارزاني على العرض الحكومي العراقي. وبعد مفاوضات شاقة إستمرت طوال أشهر عدة، نجح وفد كُردي برئاسة الدكتور محمود عثمان، في التوصل الى إتفاقية مع بغداد تضمنت بنوداً أُعلن عنها في ١١ آذار ١٩٧٠ وأخرى سرية لم يكشف النقاب عنها سوى بعد إنهيار الإتفاقية.

تفاءل بارزاني ببنود الإتفاق على رغم شكوكه حيال نوايا البعثيين[١٢٥]. وهنا، يروي الدكتور محمود عثمان[١٢٦]، أن الزعيم الكُردي أفضى إليه بمخاوفه من نوايا البعثيين عند مطالعته لنصوص الإتفاق. لكنه وافق في النهاية على مسودة الإتفاقية، ربما لثلاثة أسباب رئيسية بحسب الدكتور عثمان:

الأول: تطوير الحركة الكُردية الى مرحلة نضالية أرقى بعد إنتزاع إعتراف رسمي من بغداد بحق الكُرد في الحكم الذاتي.

والثاني: القضاء على التعاون القائم بين مجموعة طالباني والحكومة العراقية.

والثالث: إثبات أن الحركة القومية الكُردية عامل رئيسي في معادلات العراق السياسية. وكان إنكار هذه الحقيقة من قبل الدول الكبرى والإقليمية، في تلك الحقبة، أحد أهم العقبات السياسية أمام إيجاد

(١٢٤) ماكداول، ديفد: المصدر نفسه، صفحة ٩١.
(١٢٥) أنظر: ادمون غريب ص ٨٩.
(١٢٦) المقابلة أعلاه.

حل سياسي للمشكلة الكُردية. عدا هذا كان بارزاني لا يرى أفقاً في التعاون مع البعثيين[١٢٧].

في السياق ذاته، كانت تخوفاته وشكوكه من نوايا البعثيين العراقيين في محلها. إذ لم تمض سوى أشهر عدة حتى تعرض نجله إدريس، في منتصف كانون الأول ١٩٧٠، الى محاولة إغتيال في العاصمة العراقية في الوقت الذي كان والده أوفده لتهنئة الرئيس السابق أحمد حسن البكر بعيد الأضحى. وفي أيلول من العام نفسه، رفضت بغداد عرضاً قدمته الأمم المتحدة لتنفيذ مشاريع إنمائية في كُردستان العراق بقيمة مائة مليون دولار أميركي[١٢٨].

لم تأت ردود بارزاني على هذه الممارسات العراقية على شكل عنفي. فإضافة الى قناعته بقدرة السياسة على حل المشكلات العويصة، كان في طبعه الشخصي رجلاً كارهاً لسفك الدماء وإيذاء أعدائه على رغم قيادته لإنتفاضات دموية عدة طوال نصف قرن وإشتهاره بالجرأة والحنكة العسكرية وطول الصبر.

وللدلالة على هذا، يروي أحد مرافقيه أن بارزاني أراد إجتياز ممر جبلي كانت تحرسه وحدة عسكرية عراقية. وكان المنطق يفرض عليه أن يهاجم الوحدة بغتة لشق طريقه عبر الممر. لكنه فضّل إرسال رسول الى قائد الوحدة يطلب منه تخلية الممر لحين مرور قواته. وحين رفض القائد طلبه، أضطر الى محاصرة الوحدة وتهديدها بالهجوم إذا لم تنفذ إنسحاباً موقتاً لفسح الطريق أمام قواته للعبور. وكان مساعدوه يلحون عليه أن الفرصة مهيأة للهجوم على أفراد الوحدة وإبادتهم وغنم أسلحتهم.

في حادث آخر يروي الكاتب والصحافي الأميركي جوناثان راندل أن بارزاني أصيب بحالة من الغضب والألم حين وصلته معلومات مفادها أن قواته استطاعت قتل أكثر من ثلاثة آلاف عسكري عراقي خلال ليلة واحدة في هجوم على مواقع عسكرية عراقية في جبل هندرين. ويشير راندل الى ان

(١٢٧) مقابلة مع الدكتور محمود عثمان في لندن في ١٠ نيسان ٢٠٠١.

(١٢٨) On the Kurdish Question at the United Nations, Published by the Information Department of the Kurdistan Democratic Party, Vol. 2, June 1974, p35.

بارزاني استكثر العدد وقال إن مثل هذا العدد الكبير من الضحايا بين القوات العراقية قد يقطع عليه طريق حل المشكلة الكُردية سلمياً[١٢٩].

لكن مع هذا، كانت الحركة القومية الكُردية تواجه في تلك الفترة مفترق طريق صعب. فبغداد تلحُّ على سياساتها وتواصل عدم الإذعان لحل الخلافات سلمياً مع الكُرد. في الوقت عينه لاتني موسكو عن توسيع رقعة تحالفها الإقتصادي والعسكري والسياسي مع بغداد، بعد أن مهّدت الحكومة العراقية الطريق أمامها لتحقيق حلم القياصرة: الوصول الى المياه الدافئة في الخليج عبر العراق. وكانت الإشارة الأوضح في هذا الخصوص توقيع إتفاقية التعاون والصداقة التي ضمت بنوداً عسكرية في التاسع من نيسان عام ١٩٧٢.

في خضم هذه التعقيدات، أضطر بارزاني الى البحث عن تحالفات جديدة تضمن له حماية الكُرد من الهجمة البعثية-السوڤياتية المرتقبة. وكانت إيران والولايات المتحدة أهم حليفتين تطلع إليهما من خلال تفاقم إحتمالات تجدد القتال. وعلى رغم ما يؤخذ على سياسته التحالفية، في هذا المقطع الزمني، إلا أن فداحة الثقل الواقع على صدر الحركة الكُردية في تلك الفترة، وتعقيدات السمات الجيوسياسية لكُردستان، لم يدعا أمامه، على ما يبدو، غير الخيار الإيراني والاميركي[١٣٠].

والواقع أن إيران بدأت تبدي مواقف أكثر ليونة مع الكُرد العراقيين. وكانت بغداد في تلك الفترة تعزز تعاونها مع موسكو، بما في ذلك التوقيع على معاهدة الصداقة والتعاون في ١٩٧٢، والإعتراف بألمانيا الديموقراطية (الشرقية) المنحلة، وتأميم النفط عام ١٩٧٣، وأخيراً إقامة جبهة سياسية مع الحزب الشيوعي العراقي.

(١٢٩) راندل، المصدر نفسه.

(١٣٠) ينقل راندل عن أحمد چلبي في مقابلة أجراها معه في ١٠ آب ١٩٩٦ في لندن أن بارزاني إستطاع في تشرين الثاني ١٩٧١ إقامة علاقة مع المسؤول السياسي في السفارة الأميركية في بيروت توماس كارولان. لكن واشنطن شددت على وجوب أن يقتصر دور كارولان في هذه العلاقة على الإستماع الى ما يقوله الكُرد وعدم تقديم النصح اليهم، وبالطبع عدم تقديم أي وعود بمساعدتهم. هامش ٧، الفصل الخامس، صفحة ٤٢٨.

كانت الخلافات العراقية الإيرانية في تلك الأثناء تشهد مزيداً من التدهور، خاصة بعد فرض إيران سيطرتها على الجزر الخليجية الثلاث، طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى، نهاية تشرين الثاني ١٩٧١، وحصول مصادمات عسكرية بين المخافر الحدودية للدولتين وإنقطاع علاقاتهما الديبلوماسية.

في مقابل تلك التطورات، فاتح شاه إيران الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون ومستشار أمنه القومي هنري كيسنجر، عند زيارتهما طهران في نهاية أيار ١٩٧٢، بإستقبال وفد كُردي في واشنطن. وبالفعل استقبل الاميركيون في حزيران من العام نفسه وفداً رأسه نجله إدريس.

في مطلع آذار ١٩٧٤، وصلت التوترات بين بغداد والحركة الكُردية درجة الإشتعال، خصوصاً بعد أن أخذت بغداد تتجه الى إعلان مشروعها المنفرد لحكم ذاتي يتعارض في مفاصله الأساسية مع بنود إتفاقية ١١ آذار. والواقع أن بارزاني حاول، في هذه الفترة، إقناع بغداد بالتخلي عن قرارها إعلان المشروع من طرف واحد. وأوفد لهذا الغرض إدريس الى بغداد للإجتماع بصدام حسين وإقناعه بضرورة إستئناف المحادثات السلمية وتأجيل إعلان الحكم الذاتي عاماً واحداً. لكن بغداد التي حظيت بدعم موسكو ظلّت مصرة على موقفها، ما أدى الى أن يتجدد القتال في كُردستان العراق في مطلع نيسان من عام ١٩٧٤، أي بعد أسبوعين من مهلة أعلنتها بغداد لموافقة الحزب الديموقراطي الكُردستاني على مشروعها من دون نقاش.

لم يرق الإعلان الحكومي لا لبارزاني وحزبه، ولا للقسم الأعظم من الأهلين الكُرد الذين إعترتهم حالة رهيبة من الخوف من نوايا السلطات المركزية العراقية. لهذا إلتحقت أعداد كبيرة من المدنيين بالمقاتلين في الجبال. وفي هذا الإطار يذكر ماكداول أن القوات الكُردية التي إلتفت حول زعامة بارزاني في بداية ذلك العام، بلغ عددها أربعين ألف مقاتل مع ستين ألفاً آخرين قوات إحتياط. وضمّ هذا العدد، الضخم في حجمه بالنسبة الى حركة تحرر قومية في الشرق الأوسط، ستين طبيباً وأربعة آلاف وخمسمائة معلم ومدرس، وخمسة آلاف رجل شرطة، ومائة وستين مهندساً ومائة ضابط عسكري[١٣١]، إضافة

(١٣١) ماكداول، المصدر نفسه، صفحة ٩٧.

الى عدد كبير من اساتذة الجامعات والأكاديميين ونحو مائة أديب وصحافي.

وكان بارزاني بتكوينه القائم على تراث من التسامح والعقلانية، يرى أن الحركة الكُردية نسيج واسع يمكن للجميع أن يشاركوا فيه. لهذا ضمّ هذا العدد الهائل خليطاً من الكُرد والتركمان والآثوريين، بل وحتى ضباط ومراتب عسكرية ومدنية عرب[١٣٢].

في هذا الخصوص، يقول الصحافي الفرنسي رينيه موريس إن المسيحيين كانوا في مقدم القطاعات السكانية التي شاركت في إنتفاضة أيلول. ويضيف أن في وسعه، بعد زيارته كُردستان في ١٩٦٦ ولقائه بمسيحيين، أن يقدم شهادة رسمية بعدم وجود أي مشكلة للمسيحيين في كُردستان، وأن إنبعاث قضيتهم كان بفضل مشاركتهم التامة في الإنتفاضة الكُردية تحت أمرة مصطفى بارزاني[١٣٣].

إنفجر القتال في مطلع نيسان ١٩٧٤ بضراوة شديدة. وكان للدعم السوفياتي دور غير قليل في تفاقم الضغوط العسكرية على بارزاني، ما جعله في حاجة فعلية وملحة الى دعم عسكري إيراني، خصوصاً في ميدان الأسلحة الدفاعية كأنظمة الدفاع الجوي.

وعلى رغم أن هذه السياسة التحالفية مع إيران لم تخلُ من أخطاء وعثرات، إلا أن اللافت أن القسم الأعظم من الكُرد، بمن فيهم من إنتقدوا بارزاني لاحقاً على سياسته هذه، لم يعترضوا على الدور الإيراني في حينه، بل أيّدوه ورأوا أن لا خيار أمامهم سوى التوجه الى إيران لموازنة الهجمة البعثية المدعومة

(١٣٢) في هذا الصدد، يذكر عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي، السكرتير العام للحزب الشيوعي الكُردستاني كريم أحمد في كلمته في الذكرى التسعينية لميلاد بارزاني في ١٩٩٣، أن موقف الأخير كان مختلفاً في عام ١٩٦٣ من موقف أكثرية أعضاء المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني حين أضطر الشيوعيون للإلتحاق بجبال كُردستان العراق هرباً من بطش البعثيين. ويؤكد أحمد أن بارزاني رحب بهم، لكن أكثرية أعضاء المكتب السياسي رفضوا ذلك، ودعوا في بيان أصدروه ضد الشيوعيين، الى إبادتهم. وإذ يثني المسؤول الشيوعي على موقف بارزاني، فإنه يصف موقف أعضاء المكتب السياسي بأنه لم يختلف عن موقف البعثيين الذين دعوا الى إبادة الشيوعيين.

(١٣٣) رينيه موريس: المصدر نفسه، صفحة ١٠٠

سوفيتياً.

لكن اللعبة السياسية في الشرق الأوسط، في ظل شروط الحرب الباردة، كانت في حقيقتها أكبر من طاقة الكُرد وأوسع في تعقيداتها من الهامش السياسي الضيق المتوفر أمامهم. لهذا ما أن وجدت بغداد أن المواجهات العسكرية لن تفلح في القضاء على إنتفاضة بارزاني، حتى بادرت الى إعطاء إشارات مفادها الإستعداد للخروج عن الطوق السوفياتي والتنازل أمام المطالب الإيرانية في الحدود والمياه. وكانت الولايات المتحدة في هذه الفترة في حاجة الى ورقة العراق في معالجة القضايا العالقة في ملف الصراعات العربية الإسرائيلية خصوصاً على مسارها السوري. فالعراق في حال إصطفافه مع إيران بعيداً عن دمشق، سيخفف الضغط المحتمل على إسرائيل في جبهتها السورية.

لهذا لم يتردد شاه إيران في توقيع إتفاقية ٦ آذار مع صدام حسين في مؤتمر قمة منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) في الجزائر في ١٩٧٥. كما أن واشنطن لم تتردد بدورها في تأييد الإتفاق والتخلي عن كُرد العراق في مرحلة من أعقد مراحل حياتهم القومية وأصعبها.

بعد توقيع الإتفاقية مباشرة، زار بارزاني طهران وإلتقى شاه إيران بعد عودته من الجزائر في الثاني عشر من آذار. والأرجح أنه فهم بعد هذا اللقاء أن إيران قررت بالفعل وقف دعمها للحركة الكُردية، وأن الولايات المتحدة غير معترضة على هذه الخطوة الإيرانية. وبالفعل كان الشاه لمّح الى بارزاني بموافقة الدول الصديقة، ويقصد بها الولايات المتحدة، على إتفاقه مع بغداد، ومتحمسة لرؤية تعاون إيراني عراقي وثيق في مختلف المجالات(١٣٤).

في السياق نفسه، يؤكد الضابط الإيراني المختص بالشأن الكُردي عيسى بزمان أن الشاه أكد لبارزاني عند إجتماعهما بعد إعلان إتفاقية ٦ آذار أن هذه الإتفاقية لاتضع حداً للخلافات العراقية الإيرانية فحسب، إنما تؤشر الى بدء طهران وبغداد التعاون المشترك من أجل إستقرار المنطقة. ويضيف بزمان أنه إتضح من كلام الشاه أنه مستعد للتعاون مع بغداد من أجل تطويق الحركة

(١٣٤) بزمان، عيسى: أسرار عقد إتفاقية الجزائر ١٩٧٥.

الكُردية في العراق في حال عدم وقفها القتال ضد الحكومة العراقية.

من هنا، وجد بارزاني أن حماية الشعب الكُردي من تكالب عسكري وسياسي إقليمي ودولي مقبل، يتطلب منه جرأة في إتخاذ قرار سياسي يحمي الكُرد من تعاون إقليمي مدعوم من الولايات المتحدة. لهذا قرر وقف إنتفاضته. وتوحي روايات مقربيه أنه كان مدركاً لتعرضه الى إنتقادات ممن لن يفهموا موقفه المسؤول. لكنه في الوقت نفسه، كان مقتنعاً بأن قراره ليس سوى حالة من التنحي جانباً من أجل تجنب عاصفة مدمرة مقبلة قد تقتلع شعبه من الجذور.

أشار فرنسو حريري، في حديث مع كاتب هذه السطور، الى أن بارزاني صارحه بعد النكسة بأيام وبعد عودته من طهران، بأن شهر العسل القائم بين بغداد وطهران، في ظل إتفاقية ٦ آذار لن يدوم، وأن على المقاتلين الكُرد أن يُبدوا صبراً لمدة ستة اشهر أو سنة حتى تستقر الأمور وتتوضح الرؤية، مؤكداً أن قرار الإنسحاب لايعني فقدان الأمل، لأن الإنسحاب سيحفظ مصير شعب كُردستان برمته. وأنه لايريد تعريض شعبه الى الإبادة كما حدث في أواخر الستينات لشعب بيافرا(١٣٥).

والحقيقة أن أطرافاً كثيرة إعتقدت بعد نكسة آذار في ١٩٧٥، أن تطلعات الكُرد الى التمتع بحقوقهم الذاتية أصيبت بضربة قاتلة، وأن الإتفاق العراقي-الإيراني أغلق كلّ الأبواب أمامهم لإطلاق حركة مسلحة جديدة للمطالبة بحقوقهم. وكانت الحكومة العراقية في مقدم تلك الأطراف. لهذا رفضت بغداد برقية من المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني في ١٦ آذار، أي بعد عشرة أيام من توقيع إتفاقية الجزائر، لإستئناف المفاوضات السلمية بين الطرفين. كما إنها شرعت في تنفيذ إحدى أفظع حملاتها المنظمة لتدمير المجتمع الكُردي وتفتيت بنيانه الإقتصادي وخصائصه الذاتية. وكان تدمير قرى كُردستان الحدودية مع إيران وتركيا بعمق عشرين كيلومتراً، وتعريب المناطق الكُردية الإقتصادية الغنية بالنفط والثروات الزراعية في أطراف كركوك وأربيل ودهوك، إضافة الى ترحيل القرويين الى معسكرات

(١٣٥) محادثة مع الكاتب في أربيل ١٨ آب ٢٠٠١.

قسرية أقيمت قرب المدن الكبيرة الواقعة تحت سيطرة الحكومة المركزية جزءً من تلك الحملة المنظمة.

ولا أدل على بشاعة الحملة من التذكير، مثلاً، بإحدى إجراءاتها الثقافية التي تمثلت في تعليمات صارمة أصدرتها السلطات العراقية منعت بموجبها الأدباء والكتّاب والصحافيين الكُرد من إستخدام كلمات معينة في نتاجاتهم وأعمالهم، بينها (الحرية، النضال، التاريخ، البندقية، الخنجر، المستقبل الزاهر، الشمس) وعدد كبير من الكلمات الأخرى ذات إيحاءات كبيرة في حياتهم. والأرجح أن السلطات العراقية حاولت عن طريق هذا الإجراء محو أي إشارة الى التطلع القومي في الذهن الكُردي.

وسط هذه الأجواء، لم يوجّه بارزاني الذي كان تجاوز السبعين من عمره، جهوده الى توجيه اللوم الى المسؤولين الأميركيين لتخليهم عن حركته. إنما خصص، الى جانب تحميله الجانب الأميركي جزءً من مسؤولية ما حدث، جهداً كبيراً من طاقته في إتجاه درء المخاطر المستقبلية عن الحركة القومية الكُردية. وكان معروفاً عن بارزاني دأبه منقطع النظير على تحويل أجواء الإنتكاسات التي تصيب حركاته الى نقطة جديدة لإنطلاق قومي كُردي.

من هنا، يروي كثيرون، ومنهم مساعده محسن دزهيى، أن توجيهات بارزاني وتوصياته لعبتا دوراً كبيراً في سرعة إعادة السخونة الى أوصال الحزب الديموقراطي الكُردستاني وحركة المقاومة الكُردية. لكن، مع هذا، لم تسمح أحكام العمر له بمواصلة العمل، إذ بعد أقل من ثلاثة أعوام على نكسة آذار ١٩٧٥، خلد بارزاني الذي يصفه الكُرد عند ذكر إسمه بـ(الخالد) الى الراحة الأبدية في إحدى المستشفيات الأميركية في فلوريدا.

الفصل الثالث

إدريس بارزاني – النشأة والبدايات

طفولة الكهف والمنفى

ولد إدريس في فترة عصيبة ومعقدة من مقاطع التاريخ الكُردي المعاصر. فعلى الصعيد العالمي كانت الحرب الثانية على وشك أن تضع أوزارها بإنتصار دول الحلفاء وهزيمة دول المحور، ما فتح، مع مطلع أربعينات القرن الماضي، آفاقاً جديدة وواسعة أمام دفق جديد من أفكار التحرر القومي والوطني في الشرق.

هذا في حين كان العراق عرضة لهزات داخلية غير قليلة نتيجة علاقاته التحالفية مع بريطانيا من جهة، وإتساع أحزاب المعارضة وتعمق النقمة الإقتصادية والسياسية في البلاد من جهة ثانية، خصوصاً بعد إعلان بغداد دخولها الحرب الى جانب بريطانيا. والواقع أن بروز حركة مايس التي قادها ضباط وسياسيون قوميون عرب بينهم يونس سبعاوي وصلاح الدين صباغ، ومن ثم المواجهة الحربية التي جرت بينها وبين طائرات القوة الجوية الملكية البريطانية، في أيار ١٩٤١، كان في حد ذاته أحد المظاهر المباشرة لتلك الهزات.

أما على صعيد المنطقة الكُردية، فإن تزايد النشاط السياسي والثقافي الكُردي ونشوء جمعيات قومية في بغداد والسليمانية وأربيل، ومن ثم إندلاع إنتفاضة ١٩٤٣، أشّر الى بداية مرحلة سياسية جديدة في الحركة القومية الكُردية.

وما زاد من بريق تلك البداية أن قصة النفي الطويل التي عاشها البارزانيون منذ ١٩٣٤ تحولت في تلك الأعوام الى مصدر رئيسي لتغذية الذهن السياسي الكُردي بوعي قومي متزايد، خصوصاً بعد أن أجبرت إنتفاضة ١٩٤٣ حكومة بغداد على الدخول في محادثات سياسية معها.

قبل أسابيع قليلة من ولادة إدريس، أضطرت السلطات الحكومية التي نفت وسجنت العشيرة البارزانية وشيوخها، بمن فيهم عائلة إدريس، لأكثر من عشر سنوات، الى الإفراج عنهم. وعلى رغم أن قرار الإفراج جاء تلبية حكومية لأحد المطالب الثانوية لزعيم الإنتفاضة، مصطفى بارزاني، إلا أنه في الحقيقة

كان تعبيراً عن رضوخ حكومي أمام تصاعد وتيرة الدعوة الشعبية، الكُردية والعربية في العراق، الى الإفراج عن البارزانيين.

في ظلّ هذه الأوضاع، وفي كهف جبلي قريب من قرية بارزان، ولد إدريس في اليوم الرابع من آذار عام ١٩٤٤. وكانت عائلته تعيش، عندذاك، مع بقية العوائل البارزانية في الجبال المحيطة بقرى بارزان، تجنباً لقصف الطائرات البريطانية والعراقية ضد مواقع المقاتلين والقرى الآهلة بالسكان في المنطقة.

قضى إدريس العام الأول من طفولته وسط صخور الكهوف ورصاص الإنتفاضة، خصوصاً بعد تجدد القتال في كُردستان في ١٩٤٥ إثر تراجع الحكومة العراقية عن محادثاتها السياسية مع بارزاني. لكن بعد نحو عام على تجدد القتال الذي أحرز فيه المقاتلون الكُرد إنتصارات عسكرية لافتة، أضطر والده، في الحادي عشر من تشرين الأول من العام نفسه، الى وقف إنتفاضته المسلحة وسحب مقاتليه الى داخل كُردستان إيران.

بعد قرار الإنسحاب، إنتقل المقاتلون والعوائل البارزانية في مسيرة شاقة الى الجبال الحدودية. ويؤكد الكاتب الكُردي كريم زند الذي كان على إتصال مع البارزانيين في تلك الفترة، أن ١٥٠ بارزانياً توفوا في الطريق الى إيران نتيجة الجو القارس في الجبال الحدودية[١٣٦].

بعد ذلك، إنتقل المقاتلون، ومعهم عوائلهم، الى أطراف قصبة شنو (أشنويه). وكان الزعيم الديني للعشيرة، الشيخ أحمد، وأنجال بارزاني وأفراد عائلاتهم ضمن تلك المسيرة الراجلة.

والواقع، أن قصة إنتقال المقاتلين مع عوائلهم الى الجانب الإيراني من الحدود بدت في حد ذاتها رواية أسطورية باعثة على الإعجاب والتقدير لدى الكُرد. وكان التاريخ الحافل للبارزانيين أضفى هالة من القدسية على نظرة الكُرد تجاههم، واعتبار نضالاتهم بمثابة المفتاح الرئيسي لحل المشكلة الكُردية.

بعد إنتقاله الى إيران ومكوثه فترة قصيرة في قصبة شنو وجبالها، توجه بارزاني مع مقاتليه وعوائلهم الى مدينة مهاباد التي عاشت في ظل سنوات

(١٣٦) زند، كريم: المؤتمر الذكرى التسعين لميلاد البارزاني الخالد، مطبعة خبات، دهوك، كُردستان ١٩٩٧، صفحة ٨١١ .

الحرب العالمية الثانية فترة إنبعاث سياسي لافت. وكان الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني قد تأسس لتوه في تلك الفترة على أنقاض منظمة (ژ.ك) التي كان الزعيم الكُردي قد إتصل بها قبل إنتقاله الى مهاباد وأقام معها علاقات طيبة.

وفي مهاباد التي وصفها السفيران الأميركيان، المستشرقان، ويليام إيگلتن وآرتشي روزفلت بأنها تشبه خلية نحل ناشطة، إستقبلت هيئة قيادية من الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني[١٣٧] الوافدين الجدد بعمائمهم الحمراء وبنادقم الطويلة وبسالتهم الأسطورية.

إستقر بارزاني مع عائلته في منزل كبير في غرب المدينة خصصته له قيادة الحزب الديموقراطي. وسرعان ما تحول المنزل الى منتدى سياسي كبير، خصوصاً أن الروابط التي جمعت النزيل الجديد مع زعيم الحزب، رئيس جمهورية مهاباد لاحقاً، قاضي محمد، كانت قوية ومتينة. وقد شهد المنزل في الفترة التي سبقت تأسيس جمهورية مهاباد، عشرات الإجتماعات السياسية والعسكرية. كما إنه كان الحاضن الذي ولدت بين جدرانه فكرة تأسيس حزب عصري لكُرد العراق على غرار الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني.

عاش إدريس في أحضان مهاباد نحو عام. وشهد في سنواته الأولى الدور العسكري الكبير الذي إضطلع به والده وأقرباؤه وأبناء عشيرته في تأسيس الجمهورية والدفاع عنها. وكان كثير التردد، في الوقت نفسه، على منزل عمّه الكبير الشيخ أحمد.

وعلى رغم أنه كان صغيراً على استيعاب ما يجري حوله، إلا أن العلاقات الدافئة التي رعى بها بارزاني أفراد عائلته وعشيرته، حتى في أوقات إنشغاله بأعباء العمل السياسي والعسكري، جعلت الطفل الصغير على مقربة من أحداث وتطورات سياسية كبيرة عكست، في ما بعد، تأثيراً عميقاً لا على شخصيته فحسب، بل على الحركة القومية الكُردية برمتها.

لكن المشكلة أن جمهورية مهاباد لم تعش طويلاً، إذ إنهارت بعد أقل من عام على قيامها نتيجة خيانة عدد من رؤساء العشائر من ناحية، وتخلي

(١٣٧) گاداني، جليل: مؤتمر الذكرى التسعين...، صفحة ٣٩.

الإتحاد السوفياتي عن دعمها إثر إتفاق موسكو مع طهران على شراكة نفطية من ناحية أخرى. هذا إضافة الى التهديد العسكري الكاسح الذي وجهته القوات الإيرانية بإكتساح المدينة في حال عدم إستسلامها. وكانت جمهورية آذربيجان الديموقراطية في تبريز، شمال مهاباد، إنهارت، من دون أي مقاومة، قبل إنهيار الجمهورية الكُردية بأيام.

وعلى رغم أن بارزاني حاول جهده وقف تفتت الجمهورية، وبثّ روح المقاومة في أوصالها الممزقة، إلا أن الإنهيار كان كبيراً، خصوصاً بعد قرار قاضي محمد تسليم نفسه للقوات الحكومية حفاظاً على أرواح وممتلكات المدنيين من مكروه الجيش الإيراني.

أشار فرنسو حريري[١٣٨] الى أن بارزاني لم يعتريه اليأس بعد إنهيار الجمهورية، إنما على العكس حاول الإتصال برؤساء عشائر كُرد إيرانيين، في مقدمهم الشيخ القادري عبدالله گيلاني. وكان الهدف من إتصاله هذا إقناعهم بالتعاون من أجل إعلان جمهورية جديدة على أنقاض الجمهورية المنهارة في المناطق التي كانت لاتزال تحت سيطرة البارزانيين.

لكن الهجمة العسكرية الإيرانية كانت كبيرة. وإعدام قادة الجمهورية في ٤ نيسان ١٩٤٧، كان لايزال طريّاً في الأذهان. والأرجح أن رؤساء العشائر تجنبوا بفعل هذين السببين إبداء أي إستعداد للتعاون مع بارزاني في سبيل إدامة المقاومة. وهذا ما إضطره الى الإنسحاب الى الجبال القريبة من الحدود العراقية.

والواقع أن طهران، التي أرادت إطفاء كل بؤرة كُردية قابلة للإنفجار، أدركت من جانبها خطورة بقاء البارزانيين في كُردستان إيران مع إحتفاظهم بالأسلحة. لذلك إتصلت ببارزاني ودعته الى العاصمة وتحدثت اليه بهدف ثنيه عن المقاومة والقبول بإلقاء السلاح والإستقرار في مناطق تحددها الدولة الإيرانية له ولبقية العوائل والمقاتلين.

لكن الزعيم الكُردي لم يأتمن جانب إيران، ولم يرضخ لإقتراحاتها، مفضّلاً الإنسحاب الى الجبال على الإستقرار تحت قبضة الحكومة الإيرانية. وكانت

(١٣٨) محادثة مع كاتب هذه السطور في أربيل في ١٨ آب ٢٠٠٠.

ذكريات قتل الزعيم الكُردي إسماعيل آغا شكاك في ١٩٣٣ عن طريق مؤامرة إستدراج من النوع نفسه، وشنق قاضي محمد بعد إستسلامه لطهران، بعضاً من أسباب عدم ثقة بارزاني بالحكومة الإيرانية.

كان إدريس، وهو لايزال في الثالثة من عمره، مع شقيقه مسعود، الاصغر منه بعامين، ضمن جموع البارزانيين المنسحبين الى المناطق الحدودية. لكن مع إقتراب الشتاء، لم يعد من الممكن للعوائل والأطفال والنساء والشيوخ أن يظلوا في عراء الجبال، خصوصاً أن بغداد وطهران، ومعهما أنقرة، أخذتا تنسقان من أجل فرض طوق عسكري على البارزانيين في المناطق الحدودية والقضاء عليهم.

اعتبر بارزاني أن مواصلة القتال ضمن تلك الشروط إنتحار ذاتي قد لايسفر في النهاية سوى عن إندحار عسكري وسياسي للحركة القومية الكُردية برمتها. لهذا تشاور مع شقيقه الأكبر الشيخ أحمد، ومساعديه، وقرر على ضوء تلك المشاورات أن تعود العوائل والنساء والعاجزون الى العراق، على أن يظل معه المقاتلون القادرون على تحمل الصعاب والمقاومة وظروف الشتاء القارص، للمسير نحو الإتحاد السوفياتي (السابق) طلباً للجوء السياسي[١٣٩].

كان أفراد عائلة بارزاني بين من عادوا الى العراق مع الشيخ أحمد عبر بوابة (كيله شين) الحدودية. لكن السلطات العراقية التي إنتظرت عودتهم سرعان ما اعتقلتهم بعد دخول الحدود مباشرة ونفتهم الى مدينة الموصل. أما الشيخ أحمد وعائلة مصطفى بارزاني وأنجاله، بمن فيهم إدريس، فقد أودعتهم في السجن. وعلى رغم أن الحكومة أرادت من خطوتها هذه تقييد نشاط شيوخ بارزان ومنع تأثيرهم السياسي على مسارات الحركة القومية الكُردية، إلا أن زجّ الشيخ أحمد وعائلة بارزاني في السجن، تحوّل على مرّ السنين الى مصدر أساسي لشحذ الوعي القومي بين مختلف القطاعات السكانية الكُردية.

(١٣٩) يذكر الدكتور كمال مظهر أحمد في الهامش السادس من كتاب فؤاد عارف أن الإحصاء الرسمي العراقي ثبت أن العائدين كانوا ١٥٥٠ رجلاً و١٦٨٦ إمرأة و١٣٢٩ طفلاً. صفحة ١٥٨.

في هذه الفترة، أخذ بارزاني يشق مع خمسمائة من مقاتليه الطريق نحو الحدود السوفياتية وسط مواجهة عنيفة ومعقدة مع الطائرات والقوات التركية والإيرانية والعراقية. ويصف مؤرخون ومهتمون بالشأن الكُردي هذه المسيرة في ١٩٤٧ بأنها المسيرة المذهلة التي اثبت خلالها البارزانيون كونهم عشيرة شديدة المراس وقادرة على حمل أعباء مقاومة قومية صعبة وفادحة الأثمان.

ظلت العوائل البارزانية تتنقل في منافي الوسط والجنوب. إذ بعد مكوث أفرادها في الموصل نقلتهم الحكومة في عام ١٩٥٢ الى البصرة. وفي هذه المدينة الجنوبية الغنية بحياتها التعليمية والثقافية، دخل إدريس المدرسة الإبتدائية عندما بلغ السادسة من عمره[١٤٠]. وبعد عامين، أي في ١٩٥٤، عادت الحكومة ونقلتهم ثانية الى الموصل، حيث إستأنف إدريس دراسته الإبتدائية هناك على رغم صعوبة الأحوال المعيشية التي عاشتها عائلته في تلك الأثناء. وفي ١٩٥٦ نقلتهم السلطات الحكومية الى بغداد حيث أطلقت سراح عمه واشقائه وأفراد عائلته من السجن، لكنها فرضت عليهم جميعاً الإقامة الجبرية في منزل بمنطقة رأس الحواش، شارع الضباط، بالأعظمية.

عاش إدريس في العاصمة، في منزل عمّه الشيخ أحمد، مواصلاً دراسته الإبتدائية، ومن ثم دراسته الثانوية بعد إنتسابه الى المتوسطة الغربية في الأعظمية. وكان أحد ألمع تلاميذها، ومعروفاً بمطالعاته وذكائه ولباقته في الكلام، وكان موضع إحترام مدرسيه[١٤١]. ويروي شقيقه مسعود بارزاني الذي درس في المدرسة نفسها أنه كان متفوقاً في الدروس الأدبية والانسانية الى درجة لفتت إنتباه أعضاء الهيئة التدريسية[١٤٢].

تموز ١٩٥٨ وإنتفاضة ١٩٦١

شهدت الحركة القومية الكُردية في العراق في الفترة بين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٨ فترة إزدهار نسبي. لكن مع هذا، لم تستطع أن تخرج، في غياب

(١٤٠) مقابلة شخصية مع مسعود بارزاني في ١٢ آب ٢٠٠٠.
(١٤١) مقابلة مع شمس الدين مفتي في ٩ نيسان ٢٠٠١. إتفق الدكتور محمود عثمان مع مفتي في تقويمه لشخصية إدريس. مقابلة في ١٠ نيسان ٢٠٠١.
(١٤٢) المقابلة نفسها مع مسعود بارزاني.

رئيسها، عن معطف جماعات المعارضة العراقية التي كانت تتنازعها قوى اليسار واليمين. واللافت أن أهم ملمح في هذا الصدد تجسد في تعمق الصراعات الداخلية بين الشرائح المدينية في الحزب، خصوصاً بين تياري اليسار الشيوعي بقيادة السكرتير العام حمزة عبدالله، والقومي اليساري بقيادة عضوي المكتب السياسي إبراهيم أحمد وجلال طالباني. والواضح أن التيار الأخير كان متأثراً الى درجة كبيرة بطروحات عبدالناصر القومية العروبوية في القاهرة، وأكرم الحوراني البعثية في دمشق.

لكن عودة رئيس الحزب من منفاه السوفياتي في ١٩٥٨ أسهمت في شكل كبير لا في تغيير واقع الحزب فحسب، بل في إغناء مسارات الحركة القومية الكُردية برمتها. وكان وقف الصراعات الداخلية وإعادة الهوية القومية غير المؤدلجة الى الحزب الديموقراطي، بعد نحو عام من عودته، الدليل الواضح في ذلك الإتجاه.

أما بالنسبة الى إدريس، فإن عودة والده المنفي، أشّرت الى نقطة إنعطاف كبيرة. والواقع أن هذه العودة جعلته، بعد أحداث ثورة عبدالكريم قاسم، أكثر قرباً من نبض الحركة القومية الكُردية. وكان للإستقبال الحافل الذي حظي به والده عند وصوله الى بغداد، والبارزانيون في ميناء البصرة، دور غير قليل في تمكينه من رؤية الصورة الكُردية في تفصيل أوسع بعد سنوات طويلة من النفي والتشريد والحياة الجبلية منذ طفولته.

وما زاد من إتساع رؤيته السياسية أن الحركة القومية الكُردية دخلت بعد تموز ١٩٥٨ مرحلة إزدهار كبير. فالحزب الديموقراطي الكُردستاني الذي أضاف الى حضوره ثقل زعيمه العائد منتصراً من منفاه الاشتراكي، أخذ يشهد إتساعاً كبيراً في قاعدته التنظيمية في أجواء نسبية من الحرية والعلانية. وكان قياديو الحزب المتواجدون في بغداد، خصوصاً شمس الدين مفتي وجلال طالباني وطاهر الشيخ جلال، يزورون عائلة بارزاني ويلتقون أنجاله ويتحادثون معهم ويضعونهم في صورة التطورات السياسية الجارية، خصوصاً ما يتعلق منها بالوضع الكُردي. أما بارزاني فإنه كان على علاقة جيدة مع أفراد عائلته وأنجاله.

في هذه الفترة دخل إدريس معترك السياسة على رغم أنه ظلّ بعيداً عن الحياة الحزبية لإنشغاله بالدراسة. وكان بارزاني الأب حريصاً على أن يواصل أنجاله دراستهم. كما أن ظروف المراقبة الدقيقة التي فرضتها السلطات الأمنية على تحركاتهم شكّلت بدورها سبباً آخر لتجنبه الإنهماك في الحياة الحزبية. لكن مع هذا لم يستطع أن يظل بعيداً. فالعراق كان يمور بالغليان السياسي، بينما تحول منزلهم الى بؤرة للنشاط السياسي والإجتماعات المتتالية بفضل دور والده القيادي أولاً، وإنغماس أخويه، عبيدالله ولقمان (١٩٣٠-١٩٨٠)[١٤٣] في الحياة السياسية ثانياً.

إستطراداً حوّلت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ العراق الى ساحة رئيسية من ساحات القطبية الثنائية بين الشرق الشيوعي والغرب الرأسمالي في الشرق الأوسط. وكان نزول القوات الأميركية في لبنان بعد الثورة العراقية، وإنشداد عروق إيران الشاهنشاهية خوفاً من إمتداد النفوذ السوفياتي الى حدودها الغربية من خلال قناتي عبدالكريم قاسم والحزب الشيوعي العراقي، إضافة الى تنامي قوة عبدالناصر بعد حرب السويس وتصاعد تحالفه مع موسكو، مؤشرات واضحة الى تعقيدات ذلك الصراع العالمي الذي تركزت إنعكاساته، في ذلك الشطر الزمني، في بغداد كما لم تتركز في أي عاصمة شرق أوسطية أخرى.

وعلى رغم أن هذه الحال، حال ثورة ١٤ تموز، أسهمت في منح الحركة القومية الكُردية دفقاً جديداً من التطور. لكنها، في الوقت نفسه، أدت الى وضع تلك الحركة أمام إختبارات عسيرة لم يخرج منها الكُرد سوى بعد دفع أثمان باهضة من دمائهم، خصوصاً بعد مرور ثلاث سنوات على قيامها.

خضّت شوارع بغداد بعد ١٤ تموز تيارات مؤدلجة عديدة، بدءً بالهتافات والشعارات الشيوعية، الى الطروحات البعثية وخطابات عبدالناصر وبرامج حركة القوميين العرب والحزب القومي السوري. وكان من الطبيعي أن يعكس هذا التلاطم الآيديولوجي جزءً من تأثيراته على الشباب الكُردي الذي بدأ ينخرط في شكل أوسع في الحياة السياسية في ظل الحريات التي وفرّتها تموز.

(١٤٣) أعدمتهما السلطات العراقية في ١٩٨٠.

لكن الملاحظ أن إدريس الذي كان يواصل دراسته في مدارس بغداد، ظل بعيداً عن تلك التيارات، مفضلاً الإستمرار في قراءاته ومتابعاته من جهة، والحفاظ على إرتباطه الوثيق بالنهج السياسي العقلاني والهاديء لوالده في زعامة الحركة القومية الكُردية من جهة أخرى.

مع هذا، كان الوضع الكُردي في شكل خاص، والعراقي في شكل عام، يعيش في تلك الحقبة، مرحلة فوران كبيرة. وكانت الخلافات والصراعات سمة تلك المرحلة التي بدأت فيها الآمال بقيام نظام ديموقراطي على أنقاض الملكية، تتراجع الى الوراء. وقد تمثل جزء رئيسي من هذه الحالة في الخلافات التي دبّت بين الحزب الديموقراطي الكُردستاني وعبدالكريم قاسم اعتباراً من نهاية الخمسينات. وكان الأخير يحاول جهده شقّ الحزب الديموقراطي وإعاقة تطوره والتراجع عن الوعود الدستورية الخاصة بتطبيق حقوق الكُرد[١٤٤]. وكان هذا كلّه مؤشرات الى عزم النظام الجديد على إنتهاج خيار القوة العسكرية لمعالجة المشكلة الكُردية.

في هذه الأثناء أضطر بارزاني، كما سبق القول، الى مغادرة بغداد في أوائل آذار ١٩٦١ والإقامة في قريته بارزان. وكان إدريس بين أفراد عائلته الذين رافقوه.

وعلى رغم أن قاسم لم يدع خياراً آخر لحل المشكلات والخلافات القائمة غير الخيار العسكري، خصوصاً بعد الغارات الجوية التي شنتها طائرات حربية عراقية على عدة مواقع في كُردستان العراق، إلا أن بارزاني لم يغلق الباب أمام الحلول السلمية. ففي الثاني عشر من الشهر نفسه، أي بعد يوم واحد على القصف الجوي الحكومي، أبرق الى قاسم يدعوه الى مفاوضات سلمية[١٤٥].

ليس من المعلوم ما إذا كان زعيم ثورة ١٤ تموز إستلم البرقية أم لا[١٤٦]. لكن الواضح أن الطائرات العراقية شنّت في السادس عشر من أيلول، أي بعد

(١٤٤) ابراهيم أحمد، مقابلة شخصية في لندن في ١٨ كانون الأول ١٩٩٠.
(١٤٥) مفتي، المقابلة نفسها.
(١٤٦) مفتي، المقابلة أعلاه.

أربعة أيام من البرقية، غارة جوية شديدة ضد قرية بارزان. لهذا أضطر بارزاني الى الإلتجاء للخيار العسكري، وقام من أجل الإعداد لذلك بجولة شملت منطقة بهدينان.

حين غادر والده المنطقة في جولته المشهورة بين العشائر الكُردية، ظلّ إدريس في منطقة بارزان. وكان أفراد عائلته يعيشون في أحد الكهوف القريبة من القرية[١٤٧]. وفي هذا المقطع الزمني تولى، وهو لايزال في السابعة عشر من عمره، الإشراف على إدارة المنطقة الى مطلع عام ١٩٦٤ أما شقيقه الأصغر، مسعود، فقد كان إلتحق بالإنتفاضة في العشرين من مايس ١٩٦٢.

بعد إلتحاقه الرسمي بالإنتفاضة، أصبح إدريس يعمل اعتباراً من عام ١٩٦٥ مساعداً لوالده في الشؤون العسكرية والإجتماعية[١٤٨]. وكان قبل ذلك بعام تزوج من كريمة إحدى الأسر الكُردية العريقة في السليمانية.

والواقع أن الحركة الكُردية مرّت في تلك الفترة بصعوبات جمة. فمن جهة، أخلّت الحكومة العراقية بالهدنة التي عقدتها مع بارزاني في العاشر من شباط من عام ١٩٦٤، وعاد الجيش العراقي الى شن هجوم كبير على كُردستان في الرابع من آذار عام ١٩٦٥. كما أن إنشقاقاً خطيراً حدث في صفوف الحزب الديموقراطي الكُردستاني بعد إصدار جناح في المكتب السياسي تزعمه إبراهيم أحمد بياناً دان فيه هدنة شباط.

بدأ إدريس، وشقيقه مسعود، حياتهما الجديدة داخل الحركة الكُردية بتولي مسؤولية المكتب الخاص لوالدهما. هذا المكتب أصبح يعرف بين الكُرد منذ ذلك الوقت بـ(بارگاي بارزاني) أي مقر بارزاني، وكان المكتب يختص في أول إنشائه بتسيير مراجعات المواطنين والمقاتلين والإشراف على الأمور الإدارية للحركة الكُردية.

وبعد أقل من عام بدأ إدريس بالإنخراط المباشر في القيادة العسكرية. وكانت الحركة القومية الكُردية تواجه مخاطر جديدة نتيجة إزدياد سطوة مؤسسة الجيش على السياسة العراقية في بغداد، خصوصاً بعد تولي العقيد

(١٤٧) مسعود بارزاني، المقابلة نفسها.
(١٤٨) مسعود بارزاني، المقابلة أعلاه.

القومي العربي، عبدالعزيز العقيلي حقيبة وزارة الدفاع في حكومة رئيس الوزراء العسكري ناجي طالب.

في هذه الفترة قام بجولة عسكرية تفقد خلالها القوات الكُردية في مناطق سهل أربيل وأطراف شقلاوة ومنطقة زرارَتي في شمال غربي أربيل. وكانت هذه الجولة بداية إنطلاقته في العمل العسكري لإنتفاضة أيلول[١٤٩].

وفي مايس ١٩٦٦ تولى إدريس الإشراف على المكتب العسكري للحزب الديموقراطي الكُردستاني، وقاد إحدى أهم المعارك في تاريخ الحركة الكُردية المعاصرة (معركة هندرين) بشجاعة نادرة.

والواقع أن الصحافي الفرنسي رينيه موريس الذي كان في كُردستان العراق وقت إندلاع المعركة، أكد أن إدريس قاد معركة هندرين من كهف جبلي قريب من جبهة القتال[١٥٠].

معركة هندرين

إستقرت قيادة الحركة الكُردية في ربيع عام ١٩٦٤ في وادي بالَكايَتي[١٥١] على طول طريق هاملتون[١٥٢] وإتخذته مقراً ثابتاً ودائماً لنشاطاتها. وكان هذا الإستقرار في حد ذاته إشارة الى التطور الحاصل في الهيكل العسكري والتنظيمي والسياسي للحركة بعد نجاحها في إخراج مساحات غير قليلة من الأراضي الجبلية في كُردستان من قبضة القوات العراقية.

(١٤٩) عيسى، محمد: مقابلته في صحيفة برايەتى الصادرة في أربيل، العدد ٢٢٦٦ في ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٧ .

(١٥٠) رينيه، موريس: المصدر نفسه.

(١٥١) وادي بالكايتي أحد وديان سلسلة جبال زاگروس، يبدأ عنقه الغربي من حوض رواندوز لينتهي شرقاً في حاج عمران في أقصى الحدود العراقية الإيرانية.

(١٥٢) الطريق الرئيسي الذي يبدأ من أربيل مخترقاً حوض رواندوز ووادي بالكايتي، ليصل في نهايته الى الحدود الإيرانية في نقطة (شينوك) شمال شرقي حاجي عمران. إسم الطريق هو إسم المهندس البريطاني الذي شقّه في عام ١٩٢٦: أرشيبالد ماين هاملتون.

والحقيقة أن الأهمية الاستراتيجية لهذه الرقعة الجغرافية تجسدت في نقاط أساسية:

الأولى: إنها تشكل جسراً برّياً بين منطقتي سوران (أربيل والسليمانية وكركوك) وبهدينان (دهوك وزاخو وعقرة)، ولايمكن للإنتفاضة المسلحة التي تعتمد في أساليبها الحربية على تضاريس الأرض، أن تتواصل في شكل متناغم إذا فرضت القوات العراقية سيطرتها على هذا الجسر البرّي.

الثانية: إنها تشكّل بوابة طبيعية ملائمة للحصول على المؤن والأغذية، وفي ما بعد، على الأسلحة والمساعدات العسكرية من إيران. واللافت أن السلطات العراقية فرضت منذ السنوات الأولى حصاراً إقتصادياً على المناطق الكُردية التي نشط فيها مقاتلون كُرد.

والثالثة: إنها تشكل منطقة وعرة من ناحية تضاريسها الجبلية، ما يجعل من أمر السيطرة عليها من قبل القوات العراقية إحتمالاً بعيداً. وهذا بالطبع يمنح القيادة الكُردية فرصة أوسع للتخطيط والنشاط والإتصالات.

بعد أن إتخذت الحركة الكُردية بالَكايَتي مقراً لمركزها القيادي، إنتبهت بغداد الى الأهمية العسكرية لهذا الوادي الجبلي. وكان بارزاني نجح في طرد القوات العسكرية العراقية منها منذ عام ١٩٦٢.

لهذا قررت المؤسسة العسكرية العراقية شن هجوم كبير على الوادي بهدف السيطرة عليه. وكانت الحكومة العراقية في ظلِّ النفوذ القويّ للجيش، تعتقد أن الإنشقاق الحاصل في صفوف الحزب الديموقراطي الكُردستاني قد أضعف سيطرة بارزاني على مقاليد الإنتفاضة، وجعل من أمر القضاء عليها عملية سهلة.

حشّدت الحكومة العراقية لهجومها المرتقب أكثر من فرقتين جبليتين وعدّة ألوية من قواتها الخاصة وكتائب مدفعية ثقيلة في منطقتي رواندوز وديانا اللتين تقعان في العنق الجنوبي للوادي، إضافة الى طائرات حربية. وكان جبل هندرين الواقع على الجانب الأيمن لطريق هاملتون، مقابل رواندوز وديانا، عقدة

رئيسية يمكن للسيطرة عليه أن تسهل توغل القوات العراقية في بقية أجزاء وادي بالَكايَتي صعوداً الى الحدود الإيرانية.

وفي مقابل الحشد العراقي، جمعت الحركة الكُردية نصف قواتها (حوالي ألفي مقاتل) في المنطقة. وتولى إدريس، بأمر من بارزاني والمكتب السياسي للحزب، القيادة الميدانية لمواجهة القوات العراقية، ساعده في ذلك قائد ميداني آخر هو (فاخر ميرگەسوري). هنا، يشير (عزت سليمان بك)، وهو أحد القادة الميدانيين الذين شاركوا في قيادة معركة هندرين أنه لايزال يملك الخطة العسكرية التي وضعها إدريس لصفحات المعركة باللغة العربية[١٥٣].

قبل بدء المعارك في ١٢ مايس ١٩٦٦، حرص إدريس، بعد مشاورة والده وقيادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني، على إشراك مقاتلي الحزب الشيوعي العراقي في المعركة الى جانب مقاتلي حزبه. وكان الشيوعيون صعدوا الى الجبال بعد أن لاحقتهم سلطات إنقلاب ٨ شباط في ١٩٦٣. لكن فرصة مشاركة فاعلة في عملية المقاومة العسكرية لم تتح لهم إلا في معركة هندرين. والأرجح أن الهدف الرئيسي من إشراك الشيوعيين كان قطع الطريق على مزاعم حكومية بتعاون الحركة الكُردية مع إيران من جهة، وتأكيد الطابع التعددي للإنتفاضة من جهة ثانية، وتحريك السوڤيات في إتجاه دعم حركة المقاومة الكُردية من جهة ثالثة. وكانت موسكو تعيش في تلك الفترة صراعاً ملحوظاً مع الحكومة العراقية على رغم تتطلعها الى إقامة تحالف معها عن طريق العلاقات المميزة التي ربطت بغداد، في زمن عبدالسلام محمد عارف، بالقاهرة الناصرية.

والواقع أن إدريس تميز بعلاقاته الطيبة مع الشيوعيين. وكان بارزاني الأب فتح أبواب الحركة الكُردية أمام مشاركة الشيوعيين وإستقبلهم بحرارة وروح عالية من التسامح على رغم أن بعض أعضاء مكتبه السياسي أصدروا بياناً ضدهم في ١٩٦٣. في هذا الخصوص يروي كريم أحمد عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي، سكرتير الحزب الشيوعي الكُردستاني حالياً، وهو

(١٥٣) سليمان بك، عزت: صحيفة (برايەتى) اليومية الناطقة بإسم الحزب الديموقراطي الكُردستاني، أربيل، كُردستان، العدد ٢٢٦٦ الصادر في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٧.

من أوائل القادة الشيوعيين العراقيين الذين إلتقوا بارزاني بعد إنقلاب ٨ شباط، يروي أن الزعيم الكُردي أثبت عن طريق استقباله للشيوعيين وترحيبه بمشاركتهم في الحركة الكُردية، أمانته كزعيم مسؤول عن شعب بأكمله[١٥٤].

إعتقد إدريس أن معركة هندرين تمثل محطة سياسية كبيرة يتوقف على نتائجها حسم عدد من الأهداف السياسية التي عملت من أجلها الحركة الكُردية، خصوصاً ما يتعلق منها بطبيعة الحكم القائم في بغداد. ففي حال حصول هزيمة عسكرية كُردية في معركة هندرين، فإن الجيش العراقي الذي أخذ يعزز من مواقع أقدامه في المؤسسة السياسية، لن يتردد في تفتيت الشعب الكُردي وإقفال الباب كلياً أمام أي حل سلمي لمشكلته القومية في العراق. أما في حال الإنتصار في المعركة، فإن نفوذ الجيش داخل المؤسسة السياسية في بغداد سيواجه ضربة كبيرة، ما يفتح الباب واسعاً لا أمام الحلول السلمية للمشكلة الكُردية فحسب، بل أمام إنفتاح ديموقراطي داخل العراق نفسه.

لهذا أصدر إدريس أوامره الى القادة الميدانيين بضرورة حسم المعركة لمصلحة الحركة الكُردية. وبالفعل إنتهت معركة هندرين الى إنتصار عسكري كُردي كاسح جنى منه الكُرد ثماراً سياسية ملموسة، بينما أصيب الجيش العراقي بأشنع هزيمة في تاريخه حتى ذلك الوقت[١٥٥].

والواقع أن حدس إدريس كان صائباً. إذ ما أن وضعت المعركة أوزارها بإنتصار الطرف الكُردي حتى بادرت الحكومة العراقية الى الإتصال ببارزاني داعية إياه الى وقف القتال والدخول في محادثات سياسية. ثم لم تمض فترة طويلة حتى تراجع دور الجيش في المؤسسة السياسية العراقية في شكل لافت، خصوصاً بعد أن تولت الشخصية السياسية المدنية الدكتور عبدالرحمن البزاز رئاسة الوزراء في بغداد.

ويصف الصحافي الفرنسي رينيه موروبيس الذي كان موجوداً في كُردستان العراق في وقت المعركة، يصف إدريس بأنه أثبت جدارة فائقة في إدارة صراع عسكري واسع ومتعدد الصفحات مع الآلة الحربية العراقية، مضيفاً أنه كان

(١٥٤) أحمد، كريم: مؤتمر الذكرى التسعين... صفحة ١١٣.
(١٥٥) رينيه، موروبيس، المصدر نفسه، صفحة ١٠٥.

شاباً حاد الذكاء، حصيفاً، يتسع أفقه للمفاهيم الحديثة، وأن الجميع لهجوا بذكائه وشجاعته ورجاحة عقله على رغم سنه المبكرة. الى ذلك، زاد الصحافي الفرنسي أن إدريس كان يخطط ويقود المعركة من كهف في أحشاء الجبل على ضفة النهر في قرية واركون ما بين جبلي هندرين وزوزك[١٥٦].

بعد فترة قصيرة زار الرئيس العراقي الجديد عبدالرحمن محمد عارف بارزاني في معاقله الجبلية في وادي بالَكايَتي، وإتفق معه على ضرورة إيجاد حل سلمي للمشكلة الكُردية. ثم أعلن رئيس وزرائه الدكتور البزاز، بعد مباحثات سياسية أجراها مع ممثلي الحركة الكُردية، بيان ٢٩ حزيران ١٩٦٦ الذي مهّد، في فترة لاحقة، لإنفراج سياسي ولو ضيّق. وكان صدور صحيفة التآخي لسان حال الحزب الديموقراطي الكُردستاني في بغداد اعتباراً من ٢٧ نيسان ١٩٦٧ أحد سمات هذا الإنفراج السياسي.

كانت الفترة بين عامي ١٩٦٦– ١٩٧٠ بمثابة مدرسة سياسية كبيرة لإدريس تعلم خلالها من والده، كما تعلم من مقاتليه ومساعديه وقادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني. الى ذلك، كانت الفترة بالنسبة اليه مرحلة متابعة فكرية وسياسية غنية.

ويروي عنه رينيه موربيس أن جهاز الراديو لم يفارقه في جبهة القتال في هندرين وكان حريصاً على الإستماع ومتابعة الأخبار على رغم القصف الجوي والمدفعي المستمر.

في الوقت ذاته، كان هذا الشطر الزمني بمثابة مدرسة عسكرية كبيرة له. فإضافة الى معركة هندرين، قام في ١٩٦٩ بجولة في سهل أربيل وشقلاوة، وأشرف على معارك دفاعية ناجحة في هذه المناطق. كذلك أشرف في العام ذاته على عملية كبيرة لتفجير حقل كركوك النفطي. وكان القائد الميداني لهذه العملية سامي عبدالرحمن، نائب رئيس حكومة اقليم كُردستان العراق حالياً. وقد أدت العملية الى وقف تصدير النفط من حقول كركوك مدة غير قصيرة.

ويروي مثقفون وأدباء كُرد كانوا في صفوف الثورة عن إدريس حرصه على الجلوس معهم ومناقشتهم في أمور أدبية وثقافية عامة. وهو، الى ذلك، كان

(١٥٦) رينيه موربيس: المصدر نفسه.

يشجع على التعلّم والدراسة، حيث حرص خلال سنوات إنتفاضة أيلول على فتح مجموعة مدارس ابتدائية في القرى المحررة. كما أنه حثَّ على الإهتمام بالأكاديميين واساتذة الجامعات والأطباء والمهندسين. والواقع أن موقفه المشجع على إستمرار الطلاب في دراستهم الجامعية، كان وراء إصراره على فتح جامعة كُردية في المناطق المحررة. والواقع أن القيادة الكُردية أنشأت جامعة بديلة لطلاب جامعة السليمانية في قصبة قلعة دزه عام ١٩٧٤. لكن الطائرات العراقية قصفت الجامعة في ٢٤ نيسان من العام نفسه، ما أدى الى مقتل نحو ١٣٠ طالباً وجرح نحو مائتين آخرين.

ويروي المؤرخ الكُردي الآثوري جرجيس فتح الله أنه عرف إدريس بعد إلتحاقه بالإنتفاضة ومجالسته عدة مرات. ويشير عند حديثه عنه الى أنه تيقن بأن إدريس أكبر عقلاً وذكاءً من سنّه بكثير، وأن الأوضاع غير الاعتيادية التي مرّت بها عائلته لم تؤثر على إستعداده وإستعداد شقيقه مسعود على التعلم والدراسة، بل شحذت فيهما قدراتهما العقلية، مضيفاً أن ما يثبت ذلك أنهما كانا متفوقين في أية مدرسة يدخلانها على البقية من أقرانهما، وكانا الأوائل بين الطلبة مع أنهما درسا في الموصل وبغداد والبصرة حيث لغة الدراسة ليست لغتهما الأم[١٥٧].

الى مشاغله السياسية والعسكرية، حرص إدريس على التواصل مع المقاتلين والفلاحين في مناطق الإنتفاضة ومقابلتهم والإستماع الى مشاكلهم ومحاولة حلّها. وفي هذا الخصوص يتفق الدكتور محمود عثمان وشمس الدين مفتي وفرنسو حريري وآخرون ممن كانوا قريبين منه على أن إدريس كان شغوفاً بحل مشاكل الناس وتلبية مطالبهم. كما أنه كان في أداء مهامه بمثابة كتلة نابضة من الطاقة والنشاط والحيوية. والأرجح أن هذه الصفات هي التي أدت بوالده الى وضعه على رأس مكتبه الخاص، إضافة الى تقدمه اللاحق في المراتب الحزبية والقيادية بعد معركة هندرين.

(١٥٧) مقابلة مع جرجيس فتح الله، أجراها بدران أحمد حبيب في ١٢ نيسان ٢٠٠١ في صلاح الدين بكُردستان العراق.

آذار ١٩٧٥: محطة سياسية رئيسة

في الفترة بين عامي ١٩٦٦- ١٩٧٠ أثبت إدريس مقدرته كقائد عسكري ميداني بارز. لكن مقدرته السياسية بدأت تتجلى في شكل أوضح في أواخر عام ١٩٦٩، حين نشط في شكل رئيسي في المحادثات التي جرت مع الحكومة العراقية في الأشهر التي سبقت إعلان إتفاقية آذار ١٩٧٠.

إستطراداً، جاء إقتراح البدء في المفاوضات السياسية من جانب الحكومة العراقية، وذلك في الربع الأخير من عام ١٩٦٩. ويؤكد الدكتور محمود عثمان، الذي شغل في المفاوضات حقيبة رئاسة الوفد الكُردي، أن الإتصال الأول جاء حين إلتقى مرتضى عبدالباقي[١٥٨] العضو السابق للقيادة القطرية لحزب البعث، المقرب من صدام حسين آنذاك، بالكادر الطلابي الكُردي عبدالقادر محمدأمين[١٥٩] عضو مكتب سكرتارية إتحاد طلبة كُردستان العراق آنذاك. وكان عبدالباقي يدرس في كلية الحقوق الى جانب وظيفته الحكومية، بينما كان عبدالقادر يدرس في كلية الآداب، قسم اللغة والآداب الكُردية.

إلتقى عبدالباقي بمحمدأمين وقدّم له ورقة غير رسمية موجهة الى بارزاني تضمنت مجموعة رؤوس أقلام، مضيفاً أن الحكومة العراقية إقتنعت بخطل الخيار العسكري في حل المشكلة الكُردية، وأنها مستعدة لإجراء مفاوضات سياسية مع الحزب الديموقراطي الكُردستاني للتوصل الى حل سلمي.

والواقع أن القوات العسكرية العراقية، عاشت في تلك الفترة ظروفاً سيئة نتيجة أمرين: الأول الهزائم التي واجهها الجيش في جبهات القتال مع المقاتلين. والثاني بدء السلطات العراقية بعملية تبعيث الجيش العراقي وهيئاته القيادية، ما أدى الى نشوء شكل من أشكال الفوضى في أوساطه.

الى ذلك، واجهت الحكومة البعثية الجديدة محاولة إنقلابية في كانون الثاني

(١٥٨)أعدمته السلطات العراقية في ١٩٧٩ مع مجموعة أخرى من القياديين البعثيين بتهمة التآمر.

(١٥٩) يقيم منذ ١٩٧٥ في الولايات المتحدة ويرأس تحرير مطبوعة كُردية شهرية بإسم بارزان.

١٩٧٠، شارك فيها عدد كبير من الضباط أعدمت السلطات البعثية سبعين منهم.

هذه الأسباب دعت بالرجل القوي في القيادة العراقية، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، آنذاك، صدام حسين، الى إعتقاد مفاده أن بغداد ليس في إمكانها القضاء العسكري على الحركة الكُردية بإمكانياتها العسكرية والمالية والإقتصادية في تلك الفترة، إنما يجب، في الخطوة الأولى، إحتواءها من الناحية السياسية، وذلك عن طريق تلبية بعض مطالبها[١٦٠] إنتظاراً لفرصة مناسبة في المستقبل.

الى ذلك كان النظام البعثي لايزال جديداً على حكمه في الجولة الثانية. كما أنه كان يعاني مشكلات لا أقلها عدم الإستقرار الداخلي، إن في أروقة الحزب الحاكم أو في أروقة الحكومة. وكان الإنقلاب العسكري الذي حدث في كانون الأول ١٩٦٩ دليلاً على ذلك الحال. هذا طبعاً إضافة الى خلافاته مع إيران وشعاراته اليسارية التي بدأت تشير الى إبتعاده مجدداً عن المحور الأميركي البريطاني لصالح التحالف مع الإتحاد السوفياتي.

لهذا كلّه، تصور صدام حسين أن الدخول في محادثات سياسية مع الكُرد والإتفاق معهم، قد يمهد الطريق أمامه للتخلص من مشكلاته الداخلية أولاً، والإستمرار في الحكم ثانياً وتهيئة الأجواء أمام القضاء على المشكلة الكُردية عن طريق الآلة الحربية التي يوفرها له الإتحاد السوفياتي.

والحقيقة أن جهود مرتضى عبدالباقي لم تكن المحاولة الوحيدة في إتجاه بدء التفاوض. إنما إتصل ضابط كبير إسمه العقيد الركن طارق إبراهيم وكان يعمل آمراً للواء عسكري في قصبة رواندوز، بالقيادة الكُردية ناقلاً رسالة شفهية من القيادة العراقية الى بارزاني مفادها الإستعداد لإجراء مفاوضات سياسية. ويضيف الدكتور محمود أنه في هذا الوقت بالذات، دخل السوفيات على الخط وقدموا من خلال مراسل صحيفة پراڤدا في الشرق الأوسط، آنذاك، المستشرق، رئيس الوزراء الروسي في ما بعد، يفگيني پريماكوف، مشورة الى بغداد مؤداها أهمية الإتفاق مع بارزاني بالنسبة الى ترتيب البيت الداخلي

(١٦٠) الدكتور محمود عثمان. المقابلة نفسها.

العراقي. وكان بريماكوف في تلك الفترة أحد أهم ضباط الإستخبارات السوفياتية في الشرق الأوسط.

تلقفت بغداد موافقة القيادة الكُردية على إجراء المفاوضات بسرعة كبيرة. والواقع أن المفاوضات لم تكن توفر الحلول لمشاكل بغداد السياسية فحسب، بل كانت تهيء أيضاً حلولاً أخرى لمشاكل الكُرد الداخلية والإقليمية، ومنها صراعاتهم الداخلية. وهي الى ذلك كانت تؤشر، بالنسبة اليهم، الى إمكان إستثمار ضعف السلطة العراقية في إتجاه الحصول على إعتراف رسمي بحقوقهم القومية والسياسية في العراق.

لم تنتظر القيادة الكُردية طويلاً في تهيئة ردها المرحب بالخطوة العراقية. وبعد الترحيب الكُردي بفترة قصيرة، وصل أول وفد عراقي الى (ناوپردان) في وادي بالَكايَتي على طريق هاملتون الاستراتيجي، حيث مقر المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني. وبعد ثلاثة أيام من زيارة الوفد توجه وفد كُردي الى بغداد لإستكمال مباحثات ناوپردان[١٦١].

إضطلع إدريس، مع شقيقه مسعود، بدور أساسي في مباحثات الوفد الكُردي في بغداد. وسافرا الى العاصمة العراقية ضمن الوفد في مراحل أساسية من المفاوضات، آخرها الزيارة التي أسفرت عن إعلان الرئيس العراقي الراحل أحمد حسن البكر إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠ في حشد جماهيري واسع في ساحة التحرير في بغداد. ويؤكد جرجيس فتح الله أن بارزاني إعتمد في

(١٦١) قال الدكتور محمود في مقابلته مع كاتب هذه السطور إن الوفد الكُردي تألف من نوري شاويس (توفي في ١٩٨٧) ودارا توفيق (أعتقل في ١٩٨٠ وأعدم لاحقاً). سامي عبدالرحمن (عضو المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني، نائب رئيس حكومة إقليم كُردستان العراق في الوقت الحالي)، ومحسن دزهيي (الممثل الشخصي للرئيس مسعود بارزاني في الوقت الحاضر)، نافذ جلال (توفي في حادث سيارة في ١٩٧٣)، صالح اليوسفي (عضو المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني الى عام ١٩٧٥ والسكرتير العام للحزب الاشتراكي الكُردستاني منذ عام ١٩٧٧ الى إغتياله في بغداد على يد السلطات العراقية في ١٩٨٣)، ورئيس الوفد الدكتور محمود عثمان.
أما صحيفة (برايەتى) فتضيف في عددها ٢٢٦٦ الصادر في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٧ أن إدريس ومسعود كانا بالفعل ضمن الوفد الكُردي.

هذه المفاوضات على ذكاء إدريس وفطنته وقابليته الديبلوماسية الكبيرة[١٦٢].

لم يكن إدريس عضواً في اللجنة المركزية للحزب الديموقراطي الكُردستاني الى بداية السبعينات. لكن المؤتمر الثامن الذي عقده الحزب في ناوپردان بعد إعلان الإتفاقية الكُردية-العراقية في ١٩٧٠ إنتخبه، وشقيقه مسعود، الى عضوية اللجنة المركزية. وأكد الدكتور محمود وشمس الدين مفتي في المقابلتين المنفردتين معهما أن وصول إدريس ومسعود الى قيادة الحزب لم يكن بسبب كونهما نجلين لبارزاني، بل بسبب نشاطهما ودأبهما وأهليتهما الكاملة. أما الدكتور محمود فقد أضاف أنه كان من أشد المتحمسين لإنتخابهما في المؤتمر الثامن لأن حزب البعث الحاكم إشترط إجراء المفاوضات مع الحزب الديموقراطي الكُردستاني وليس مع ثورة أيلول الكُردية. وكان من شأن هذا الأمر أن يضع قيادة الحزب الديموقراطي أمام حاجة مفادها ضرورة رفد القيادة الحزبية بعناصر شابة وذكية مثل نجلي بارزاني.

تولى إدريس بعد وصوله الى اللجنة المركزية مسؤولية الإشراف على المكتب العسكري للحزب، إضافة الى إشرافه على الشؤون الإدارية والمالية. وفي مراحل لاحقة أصبح مشرفاً على العلاقات الدولية والإقليمية بعد أن أنيطت مسؤولياته الإدارية والمالية الى أعضاء آخرين في اللجنة المركزية. والواقع أن نجاحه اللافت في المهمتين سرعان ما دفع بالقيادة الحزبية الى ضمّه الى المكتب السياسي في ١٩٧١.

بعد إعلان إتفاقية ١١ آذار، إقترحت الحكومة العراقية على القيادة الكُردية، تعيينه نائباً لرئيس الجمهورية، مع وعد بمنحه صلاحيات كبيرة لايتمتع بها مسؤولون عراقيون آخرون. لكن القيادة الكُردية رفضت الإقتراح ورشحت من جانبها السكرتير العام للحزب الديموقراطي الكُردستاني حبيب محمد كريم لشغل المنصب[١٦٣]. والأرجح أن سبب رفض بارزاني إقتراح بغداد إتصل بعدم ثقته بالنظام العراقي. والأرجح أيضاً أن الزعيم الكُردي كان محقاً في عدم ثقته بالبعثيين، إذ ما أن إنقضت أشهر عدة على هذا الإقتراح، حتى

(١٦٢) جرجيس فتح الله، المقابلة نفسها.
(١٦٣) الدكتور محمود عثمان، المقابلة نفسها.

بادرت السلطات العراقية عن طريق بعض عملائها الى تنظيم محاولة لإغتيال إدريس في بغداد.

والواقع، أن الفترة بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٤ كانت إحدى أخصب الفترات، وأعقدها في الوقت نفسه، في تاريخ الحركة القومية الكُردية المعاصرة في العراق. ففي ذلك الوقت إستطاع الكُرد في ظل إتفاقية ١١ آذار تنظيم إدارة ذاتية ناجحة على جزء كبير من كُردستان العراق. وفي هذه الأثناء أيضاً إنتعشت حركة ثقافية وأدبية وفنية واسعة بينهم، خصوصاً بعد إنشاء مؤسسات كُردية كالمجمع العلمي الكُردي والمديرية العامة للدراسات الكُردية وإتحاد الأدباء الكُرد، إضافة الى العديد من الفرق والجمعيات الفنية.

الى ذلك أصبحت الحركة القومية الكُردية تمتلك جيشاً من المقاتلين، في إطار حرّاس الحدود، فاق عدد أفراده خمسة وعشرين ألف مقاتل. كما توسعت تنظيمات الحزب الديموقراطي الكُردستاني في كل المدن الكُردية وبغداد وبقية المدن العراقية التي سكنها الكُرد. وأصبح العالم عن طريق الآفاق السياسية والإعلامية الجديدة التي إنفتحت أمام الحركة القومية الكُردية على دراية أوسع بطبيعة هذه الحركة وأهدافها ومطالبها. والحقيقة أن دور إدريس كان بارزاً في كل هذه المجالات. بل إنه كثيراً ما كان يوصي المسؤولين الكُرد في أجهزة الحكومة العراقية بضرورة الإبتعاد عن المغريات والإمتيازات التي يهيئها وجود مسؤولين حزبيين في مواقع السلطة.

لكن المشكلة التي عكست مزيداً من التعقيدات على النسيج السياسي العام، أن الحكومة العراقية أخذت في تلك الفترة تخلق عراقيل ومعوقات إضافية أمام تطبيق إتفاقية آذار. وكان لقرارها تأميم العمليات النفطية في العراق وتزايد عائداتها المالية جراء ذلك في ١٩٧٢، دور كبير في تراجعها عن الوعود المقطوعة للكُرد في إطار الإتفاقية.

واللافت أن السلطات العراقية لم تتوقف في ذلك المقطع الزمني عند حدّ تهجير السكان الكُرد من مناطق غنية بالموارد الإقتصادية فحسب، إنما بدأت منذ عام ١٩٧٣ بتنفيذ حملة واسعة من سياسة التبعيث، أي إجبار السكان الكُرد، خصوصاً في المدن الكبيرة على الإنتماء للحزب الحاكم. كما انها بدأت

بإستخدام الوحدات العسكرية في تعريب مناطقهم أو تطويق القرى وملاحقة سكانها وطردهم من ديارهم.

في الوقت ذاته، إستخدمت الحكومة العراقية طائراتها الحربية في قصف منطقة بارزان في ١٩٧٢. وكانت بدأت منذ ١٩٧١ بحملة تهجير واسعة للعوائل الكُردية الفيلية المقيمة في بغداد الى الأراضي الإيرانية بتهمة تبعيتهم لإيران(١٦٤). وتشير تقديرات المراكز الثقافية الفيلية في أوروبا الى أن الوجبة الأولى من المهجرين بلغت أكثر من مئة ألف شخص(١٦٥).

في العام نفسه، أنشأت السلطات العراقية لجنة حكومية في مدينة كركوك سمّتها (لجنة إستقبال الوافدين) وذلك كمقدمة لمرحلة جديدة من تعريب المدينة وإسكان العوائل العربية فيها. في هذا الخصوص، بدأت الحكومة أولى خطواتها بإنشاء ثلاثة أحياء سكنية للعوائل العربية الوافدة الى كركوك هي أحياء المثنى والكرامة و٧ نيسان. واللافت أن هذه اللجنة إشترطت أن تنقل العوائل العربية تسجيلات أحوالها الشخصية في الإحصاء السكاني لعام ١٩٥٧ من مناطقها الأصلية الى كركوك(١٦٦).

الى ذلك، دمرت السلطات العراقية نحو ثلاث وعشرين قرية كُردية في أطراف قصبة سنجار(١٦٧). وصعّدت من عمليات قتل الأهلين الكُرد في قصبة خانقين في عام ١٩٧٢، ما دعا بهؤلاء الى إعلان إضراب عام تركوا على أثره المدينة الى الجبال والقرى المحيطة(١٦٨).

هذه التصرفات السياسية والعسكرية العراقية، والإستفزازات المتكررة، ولّدت لدى الكُرد إنطباعاً منذ نهاية عام ١٩٧١ مفاده أن بغداد غير عازمة

(١٦٤) التقرير المركزي للمؤتمر القطري التاسع، حزيران ١٩٨٢ كانون الثاني ١٩٨٣، صفحة ٥١.

(١٦٥) نداء الكرد، صحيفة دورية عامة مستقلة تعبر عن لسان حال الكُرد الفيليين، تصدر في لندن، العدد الأول، شباط ٢٠٠١. مقالة في الصفحة الخامسة من الصحيفة بقلم عبدالمجيد عبدالحميد زنكنه.

(١٦٦) الدكتور اسماعيل، خليل، في مقابلة تلفزيونية مع قناة كُردستان الفضائية في ليلة ٢١ آذار. ٢٠٠١.

(١٦٧) On the Kurdish Question... bid, p82.

(١٦٨) الدكتور فؤاد حسين، محادثة تلفونية في ٢٧ آذار ٢٠٠١ .

على تطبيق إتفاقية آذار، خصوصاً أن الإتفاقية تضمنت بنداً أكد على ضرورة إجراء إحصاء سكاني في مناطق متنازع عليها مثل كركوك وخانقين، وذلك لتحديد طبيعتها وعائديتها القومية خلال العام الأول من بدء تطبيق الإتفاقية. لكن عمليات التعريب والتهجير والترحيل القسري كانت تؤشر في هذه الفترة الى عزم بغداد على عدم الإلتزام بهذا البند الرئيسي في صلب إتفاقية آذار.

لكن هذه المشكلات لم تكن الشغل الشاغل الوحيد للكُرد. فالقيادة الكُردية كانت حصلت على معلومات مفادها بدء العراق في إمتلاك ترسانة كيمياوية محظورة دولياً. وفي هذا الصدد لفتت نشرة أصدرها قسم الإعلام في الحزب الديموقراطي الكُردستاني في عام ١٩٧٤ الى أن الحزب إكتشف في أوائل ١٩٧٢ حصول الحكومة العراقية على كميات غير قليلة من الأسلحة الكيمياوية. وأن المواد المستخدمة في هذه الأسلحة هي على نوعين: الأول يؤدي الى موت الإنسان عن طريق إستنشاقه، والثاني يؤدي الى شلل موقت لمدة ثماني وأربعين ساعة. وأكدت النشرة أن الحكومة العراقية تخبيء هذه الأسلحة في معسكر التاجي غرب بغداد، وفي قيادة الفرقة الثانية في كركوك وقيادة الفرقة الرابعة في الموصل، مشيرة الى بدء تدريبات عسكرية عراقية على إستخدام خمسين ألف قناع وقاية[١٦٩].

في هذه الأجواء، شعرت الزعامة الكُردية أن بغداد أصبحت تندفع بخطوات سريعة نحو موسكو، خصوصاً بعد تدفق أحدث الأسلحة السوفياتية على العراق. وكان الواضح أن التقارب العراقي السوفياتي يضم في طيّاته عزم بغداد على القضاء على الحركة الكُردية، خصوصاً بعد إعلان الجبهة بين الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث الحاكم في تموز ١٩٧٣، مع إشارات واضحة الى قرار الطرفين إستبعاد الحزب الديموقراطي عن الجبهة.

لكن اللافت أن الزعامة البارزانية لم تبادر الى ردود فعل عنفية، على رغم أن الإيرانيين والإسرائيليين كانوا يلحون على الكُرد ضرورة إشغال القوات

(١٦٩) نشرة باللغة الانكليزية أصدرها مكتب الخارج للحزب الديموقراطي الكُردستاني في ١٩٧٤، ص ٣٥.

العراقية في صراعات داخلية بهدف تخفيف الضغوط على جبهتهم مع سورية في ظل إجتماع غيوم حرب عربية-إسرائيلية في سماء المنطقة. على العكس من هذا الإلحاح الخارجي، دعا الحزب الديموقراطي الكُردستاني في الخامس والعشرين من آب ١٩٧٣ الى إعتصام مدني في كُردستان ضد حملات التعريب في كركوك وبقية المناطق، مؤكداً في تعليماته الى الحزبيين وأصدقائهم ضرورة الحفاظ على الأمن، والحرص على تجنب أي شكل من أشكال العنف والمواجهات العسكرية مع السلطة المركزية وشرطتها وأجهزتها الأمنية والعسكرية.

لكن بغداد التي أغرتها الأسلحة السوفياتية، والدعم الشعبي العربي الواسع الذي حصلت عليه نتيجة مواقفها المتشددة في تأييد المقاومة الفلسطينية، واصلت سياستها التدميرية ضد الكُرد، وسط صمت سوفياتي ودولي وإقليمي عميق. وكان من شأن ذلك أن يدفع بالزعامة الكُردية نحو زاوية ضيقة لا خيار فيها سوى الإستجابة لمطلب إيران في إعادة بناء جسور تحالف غير متكافيء.

هنا قد تفيد الإشارة الى أن السبب الرئيسي في رغبة إيران العودة الى العلاقات مع الكُرد، تمثل في معاهدة الصداقة والتعاون بين موسكو وبغداد في التاسع من نيسان ١٩٧٢. وكانت هذه الإتفاقية تتضمن بنوداً عسكرية خشي الإيرانيون أن تكون بلادهم هدفا رئيسياً من أهدافها.

والأرجح أن بارزاني تطلع بالفعل الى الورقة الإيرانية لموازنة الضغط العراقي. لكنه حرص، في الوقت نفسه، على عدم الرضوخ لمطلب طهران الداعي الى إثارة المشاكل العسكرية ضد بغداد. وكان قبل ذلك رفض مطالب عراقية مماثلة لتوريط مقاتليه في عمليات ضد نظام الشاه داخل إيران.

قد لايتطلب الأمر نظرة تدقيقية فاحصة لمعرفة أن بارزاني كان يواجه معادلة سياسية في غاية الصعوبة والتعقيد في عالم حكمته قوانين الحرب الباردة وألاعيب القطبية الثنائية.

وفيما كان العالم على ما هو عليه من موازين سياسية في أواسط السبعينات، لم يجد بارزاني أمامه من هامش للمناورة السياسية سوى العمل

على طريقين:

الأول: إقناع بغداد بتطبيق بنود إتفاقية آذار، أو على الأقل إقناعها بإطالة أمد المفاوضات السياسية بغية الوصول الى حل سلمي عملي بالإستفادة من عامل الزمن.

والثاني: في حال عدم إقتناع بغداد لا بالحل السلمي ولا بإطالة المفاوضات السلمية، التعاون مع إيران في شكل فعلي، على أن يراعى في هذا التعاون مصالح الوطن العراقي من جهة، ووجود ضمانة أميركية تمنع تخلي طهران عن الحركة الكُردية لحين سقوط النظام البعثي، من جهة أخرى.

لم ترضخ بغداد لخيار الحل السياسي على رغم الدعوات السلمية وجهود قادة الحزب الديموقراطي وإجتماع إدريس مع صدام حسين في مطلع آذار ١٩٧٤، بل على العكس أخذت تشدد من مواقفها العدائية لتشمل إقتلاع العنصر الكُردي في العراق، وليس إيذاء الحركة الكُردية المسلحة فحسب.

لهذا لم يبق أمام الزعيم الكُردي المحاط بعوامل جيوسياسية مدمرة، سوى خيار الورقة الإيرانية. لكن المشكلة أن إيران لم تكن موضع ثقته. بل أنه كثيراً ما أفضى الى مقربيه بمخاوفه من ان تدير طهران ظهرها لكُرد العراق في أول فرصة تتهيأ أمامها لحل خلافاتها الحدودية مع العراق[١٧٠].

من هنا، بدأ يوجه ضغوطاً الى إيران لدفعها نحو إقناع الولايات المتحدة بالتعاون مع الحركة الكُردية. والأرجح أن تعاون هذه الحركة مع إسرائيل، في بعض مراحلها، كان في جوهره جزءً مكملاً لمسعى بارزاني في إتجاه إقناع واشنطن بالتعاون مع الحركة الكُردية. وكان إعتقاده أن إيران وإسرائيل حليفتان قويتان للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ولايمكن لأي جهد تبذلانه لفتح قناة للتعاون بين الكُرد وواشنطن أن يذهب سدى. ويتفق الدكتور محمود عثمان مع الرأي القائل أن مقاصد بارزاني من علاقاته مع واشنطن وتل أبيب كانت رغبته في توفير ضمان لعدم تخلي الإيرانيين عن شعبه[١٧١].

(١٧٠) مقابلة مع الدكتور محمود عثمان في كانون الأول ١٩٩٦.
(١٧١) المقابلة نفسها مع الدكتور محمود عثمان .

تحدث الشاه في ربيع ١٩٧٢ الى كل من الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنري كيسنجر حول ضرورة دعم الحركة الكُردية في وجه المد السوفياتي الذي أصبح العراق أحد قواعده الرئيسية في الشرق الأوسط، وذلك عندما زارا طهران في طريق عودتهما من الصين.

وافقت واشنطن على إقامة تعاون ضيّق مع الحركة الكُردية في كُردستان العراق. ولهذا الغرض زار إدريس، يرافقه الدكتور محمود عثمان العاصمة الأميركية سراً في حزيران من العام نفسه. وعقدا بعد وصولهما الى واشنطن إجتماعاً مع ريتشارد هيلمز رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية حضره نائبا وزيري الخارجية والدفاع الأميركيين. وأكد الدكتور محمود، في مقابلته مع كاتب هذه السطور، أن الوفد الكُردي لم يحصل سوى على وعود أميركية صغيرة مفادها تقديم مساعدات عسكرية ومالية متواضعة الى الكُرد عن طريق إيران[١٧٢]. لكن الكتيب الذي اصدره مكتب إعلام الحزب الديموقراطي الكُردستاني في ١٩٧٧ أشار الى أحاديث أميركية في الإجتماع عن تزويد المقاتلين الكُرد بدبابات ومقاومات دروع متطورة، بل وحتى طائرات، إضافة الى وعود بعدم التخلي عن دعم الحركة الكُردية وعدم السماح للآخرين، أي إيران، بإتخاذ مثل هذه الخطوة الى حين سقوط النظام العراقي[١٧٣].

لعب إدريس في هذه الزيارة دوراً رئيسياً ونشطاً في إقناع الأميركيين بضرورة مساعدة الكُرد المعرضين الى حرب شاملة بدعم سوفياتي على رغم أن الشكوك ظلت تراوده في مدى صدقية الأميركيين. لهذا حاول تطوير هذه العلاقات الجديدة، لكنه ظلَّ في الوقت نفسه حريصاً على تجنب عودة القتال مع الحكومة العراقية، وحريصاً أيضاً على حلِّ الخلافات مع الأخيرة عبر الطرق السلمية. وقد تبدّى ذلك من زيارته المفاجئة الى بغداد في آذار ١٩٧٤ ولقائه بصدام حسين ومطالبته بتأجيل إعلان الحكم الذاتي عاماً آخر لإفساح المجال أمام محادثات سلمية إضافية.

(١٧٢) الدكتور محمود عثمان، مقابلة ثانية معه في ١٠ نيسان ٢٠٠١
(١٧٣) نشرة مكتب الخارج للحزب الديموقراطي الكُردستاني، صفحة ٧.

لم يُسفر اللقاء مع صدام حسين عن أي شيء. فالجانب الحكومي كان متعنتاً في عدم موافقته على إعطاء المحادثات السياسية فرصة إضافية. وكان من المفروض أن يلتقي إدريس بالسفير السوڤياتي في بغداد في اليوم الثاني، لكن بعد أن تبين له أن الحكومة العراقية عاقدة عزمها على تجديد القتال بدعم من الإتحاد السوڤياتي، فضل العودة الى كُردستان وعدم لقاء السفير[١٧٤].

كُردستان: تجدد الحرب الدامية

في الحادي عشر من آذار ١٩٧٤ أعلنت الحكومة العراقية مشروعاً من طرف واحد للحكم ذاتي لم يتضمن الحد الأدنى من المطالب الكُردية. ودعت في الوقت نفسه القيادة الكُردية الى قبول المشروع من دون تعديلات خلال أسبوعين.

الأرجح أن قيادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني إعتقدت أن الدعم الإيراني الذي وعد به الشاه يمكن أن يغني عن القبول بمشروع ناقص، أو في أضعف الحالات أن يجبر بغداد على العودة الى طاولة المفاوضات السياسية.

لكن الرد الحكومي على ذلك كلّه، كان توجيه الطائرات الحربية الى قصف كُردستان العراق بعد إنتهاء المهلة المحددة. وكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى لتجدد قتال دموي شرس أبدى فيه المقاتلون الكُرد شجاعة نادرة في الوقوف بوجه الآلة الحربية العراقية.

تبدت فداحة العنف الحكومي في جولة القتال الجديدة من أن الطائرات العراقية قصفت في الفترة بين نهاية آذار ١٩٧٥ وبداية أيار من العام نفسه خمس عشرة قصبة كُردية بينها زاخو وقلعة دزه وآغجلر وروانduz وعقرة، إضافة الى ٢٠٤ قرى في أطراف أربيل والسليمانية ودهوك وكركوك.

الى ذلك، بدأ الجيش العراقي بإستخدام أسلحة محرمة دولياً في جبهات القتال بضمنها القنابل العنقودية والقنابل الفوسفورية الحارقة. وكانت الطائرات الحربية العراقية تركز في قصفها العشوائي على القرى والتجمعات السكانية والمناطق الآهلة والجسور وطرق المواصلات في محاولة لإجبار أكبر

(١٧٤) الدكتور محمود عثمان، المقابلة نفسها.

عدد ممكن من الكُرد وعوائلهم على الإنتقال الى داخل إيران[١٧٥]... ويروي حارس إدريس الخاص محمد عيسى الذي رافقه مدة ثلاثة وعشرين عاماً أن القوات العراقية كانت تركزّ دائماً قصفها المدفعي وغاراتها الجوية على المناطق التي كان يتواجد فيها إدريس في محاولة لقتله[١٧٦].

قاد إدريس في هذه المرحلة العمليات العسكرية الكُردية بشكل فعّال. وكان قراره دمج الضباط العسكريين الكُرد الملتحقين بالإنتفاضة في صفوف المقاتلين خطوة أثبتت نجاحاً باهراً حين بدأت القوات الكُردية تخوض حرب جبهات واسعة في أطراف رواندوز وديانا. وهو الى ذلك، إستطاع بدعم مباشر من والده وقيادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني بناء مؤسسات إدارية عديدة على شكل أمانات عامة تولت إدارة النشاطات التربوية والمالية والإجتماعية والصحية في المناطق المحررة. كما نجح في إيلاء إهتمام خاص ببناء فرع حزبي نشط في أوروبا لتولي العمل الاعلامي والديبلوماسي في الخارج إنطلاقاً من قناعته بأهمية هذا النوع من النشاط في حركات التحرر الوطني.

والواقع أن الإيرانيين أمدّوا الكُرد في هذه المرحلة بمساعدات عسكرية، لكن هذه المساعدات كانت في حقيقتها محدودة وذات طابع دفاعي بينها شبكتان للمضادات الجوية ووحدتين صغيرتين للمدافع الجبلية الثقيلة. أما الثقل الاساسي في ميادين القتال فقد تحمله المقاتلون الذين لم يكن صعباً على أي مراقب ملاحظة عدم تكافؤ إمكاناتهم العسكرية واسلحتهم مع الآلة الحربية العراقية.

مع هذا لم تأت نكسة آذار ١٩٧٥ لأسباب عسكرية أو سياسية، إنما جاءت نتيجة إقدام إيران على عقد إتفاق في الجزائر مع العراق في السادس من آذار ١٩٧٥ لإنهاء خلافاتها مع بغداد. وكانت القوات العسكرية العراقية تكبدت خسائر بشرية كبيرة. كما أن بغداد واجهت في تلك الفترة مشكلة أخرى مفادها الفشل في تحريك الأقليتين العربية والكُردية ضد حكومة الشاه في

(١٧٥) شهد كاتب هذه السطور أكثر هذه الممارسات الحكومية لكونه أحد المشاركين في الإنتفاضة في ١٩٧٤ .

(١٧٦) صحيفة برايەتى اليومية التي تصدر في أربيل، مقابلة مع محمد عيسى، العدد ٢٢٦٦ الصادر في ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٧.

جنوب البلاد وغربها. وكانت المحاولات في هذا المنحى كلفت بغداد حوالي ٥٠ مليون دولار في ١٩٧٤[١٧٧].

شكّلت الأيام بين السادس (توقيع الإتفاق العراقي الإيراني وإعلانه) والتاسع عشر من آذار (موعد إنسحاب القوات الكُردية الى داخل إيران)، محطة أخرى برزت فيها شخصية إدريس وبراعته وقدرته الكبيرة على القيادة في الظروف الصعبة.

فعلى الصعيد العسكري أشرف في تلك الأيام بإعتباره مسؤولاً عن المكتب العسكري على سلسلة من المعارك الكبيرة فاقت في عنفها وضراوتها جميع المواجهات العسكرية السابقة مع القوات العراقية. بل أن الكُرد لازالوا يفخرون بالإستبسال الذي أبداه مقاتلوهم في تلك المرحلة الصعبة في نواحيها السياسية والعسكرية والنفسية.

وعلى الصعيد السياسي أشرف إدريس بإعتباره عضواً في المكتب السياسي على سلسلة إجتماعات لقيادة الحزب جرت في جو من الهدوء والإنتظام وضبط الأعصاب على رغم اجواء القلق النفسي الذي طغى على الجميع بفعل الإتفاقية العراقية-الإيرانية. وقد تم في هذه الإجتماعات دراسة الإحتمالات الممكنة وكيفية مواجهة التطورات المقبلة.

أما على الصعيد التعبوي فإن إدريس أشرف على خطة دقيقة وبسرعة قياسية لإنسحاب المقاتلين والعوائل وأهالي القرى الى داخل الأراضي الإيرانية، مع السماح لمن يريد أن يسلم نفسه الى العراق بالتوجه نحو المناطق العراقية.

في هذا الخصوص، لايزال الكُرد يتذكرون بكثير من الإعجاب إشرافه الشجاع على نقل ما يقرب من أربعة آلاف شخص بينهم أطفال ونساء وشيوخ، من وادٍ في منطقة (ميرگەسور) شمال قصبة ديانا، الى الجانب الإيراني من الحدود. وكان هؤلاء قد حاصرتهم الثلوج في منطقة جبلية نائية لم

(١٧٧) Taheri, Amir: Politics of Iran in Persian Gulf, Abbas Amirie, Institute of International and Economic Studies. Tehran 1975, p257.

تنفع معها سوى عملية إنقاذ كبيرة شارك فيها عدد من طائرات الهيليوكوبتر الإيرانية.

الى ذلك، حرص إدريس على الإشراف في شكل مباشر على ترتيب عمليات إنسحاب المقاتلين من الجبهات العسكرية وتدمير الأسلحة الثقيلة، إضافة الى تنظيم إنتقال الأهلين الى الجانب الإيراني من الحدود، وإطلاق السجناء، ونقل الأوراق والمستمسكات والوثائق والأجهزة العائدة للإنتفاضة بحيث لم تقع في أيدي القوات العراقية سوى عدد ضئيل من الأسلحة الخفيفة. ولا أدل على حرص إدريس على تنظيم إنسحاب سلس من الإشارة الى انه كان ضمن الوجبة الأخيرة من المقاتلين والمسؤولين الذين إنسحبوا من المناطق الكُردية المحررة.

من عاش تلك الأيام، كما هي حال كاتب هذا السطور، يعرف بأنها كانت أياماً مؤلمة وعصيبة ومليئة بالإحباط والغضب. لكن عند التدقيق في حقائق الامور على الأرض، خصوصاً بعد مرور نحو ربع قرن على تلك الأيام، يتضح أن النكسة لم تكن في حقيقتها هزيمة عسكرية أو سياسية، إنما إنسحاباً منظماً أمام تطور مفاجيء ودراماتيكي من تطورات السياسة في الشرق الأوسط، لم تتحمله القدرة السياسية والعسكرية المحدودة لكُرد محاصرين بعوامل جيوسياسية قاهرة.

واللافت أن إدريس الذي كان في قلب تلك الأحداث والتفاعلات، أثبت قدرة فائقة على أهليته للزعامة، خصوصاً في الفترة التي كان والده، بارزاني الأب، في طهران لمشاورات مع شاه إيران حول إتفاقية ٦ آذار.

كان وجوم وذهول لافتين يطغي على الكُرد في فترة الأيام التي أعقبت ٦ آذار ١٩٧٥. وكانت الأسئلة كثيرة، والقلق من مستقبل غير معلوم يطغى على الجميع، ولا أحد يعرف ما يمكن أن تكون عليه تأثيرات الإتفاقية على الحركة القومية الكُردية؟ لكن مع هذا، حرص إدريس على منع تحول التطور الجديد الى إنهيار عسكري وسياسي.

مع هذا كله، كانت نكسة آذار ١٩٧٥ نقطة تحول كبيرة في تاريخ الحركة القومية الكُردية. نقطة ملؤها اليأس والإحباط والشعور بالمرارة. وقد بدأت التأثيرات الفعلية لهذا التطور الدراماتيكي تتضح في فترة لاحقة، ومن

أهمها:

أولاً: بدأت الحكومة العراقية في مرحلة ما بعد النكسة بتحويل ممارساتها العدائية تجاه الكُرد الى حرب إبادة منظمة ومنهجية. والواقع أن هذه الحرب لم تعد تقتصر على تدمير البنية السياسية والعسكرية للحركة الكُردية فحسب، إنما تعدتها الى تفتيت خصوصيات الكُرد القومية وبنيانهم الإجتماعي والإقتصادي وهزّ شخصيتهم الإثنية المستقلة. وكانت عمليات التعريب والترحيل تشكل صفحات أساسية في هذا المنحى، خصوصاً بعد شروع السلطات العراقية في تدمير جميع القرى الواقعة في نطاق شريط حدودي مع إيران وتركيا بلغ عرضه عشرون كيلومتراً(١٧٨).

ثانياً: لم تعد الحركة الكُردية، بعد النكسة، قادرة على مقاومة المخططات العراقية بزخمها السابق. فالحكومة العراقية التي خرجت منتصرة من معركتها مع الكُرد أصبحت تحظى بعد آذار عام ١٩٧٥، على دعم أميركي وسوفياتي في وقت واحد، وتملك ترسانة عسكرية هائلة اساسها العوائد النفطية الكبيرة التي وفرها تأميم النفط في ١٩٧٣.

والأهم أن المقاومة باتت أمراً معقداً الى درجة لافتة في ظل شنّ بغداد حملتها المدمرة ضد الكُرد تحت يافطة قانون (الحكم الذاتي) الذي أعلنته في آذار ١٩٧٤. والواقع أن هذا الأسلوب، مضافاً الى روح الإحباط التي استشرت بين قطاعات كُردية، ووسائل التخويف التي تبنتها السلطات العراقية، وفرت أمام الحكومة قطاعاً من السكان الكُرد المؤيدين لها ولسياساتها.

(١٧٨) لمعرفة مدى فظاعة الاساليب التي إستخدمتها الحكومة العراقية لتنفيذ سياستها الخاصة بتخلية القرى وترحيل سكانها، نذكر أن القوات العراقية كانت تطوق قرية أو عدداً من القرى في ساعات الفجر وتجبر سكانها على ركوب شاحنات معدة لغرض نقلهم الى تجمعات قسرية أو ما كانت تسميه بالقرى العصرية قرب المدن الكبيرة، ثم تقوم بزرع الديناميت والمتفجرات في منازل القرية ومسجدها ومدرستها رابطة كلها في شبكة تفجير واحدة. ثم تقوم بإغلاق ينابيع الماء في القرية بصبها بالاسمنت، وإحراق الأشجار والحقول، ومن ثم تفجر القرية لتتحول خلال دقائق الى خراب كامل.

وثالثاً: أن النكسة مهدت لإنشطارات سياسية جديدة في المجتمع السياسي الكُردي الذي إعتاد الإلتفاف حول قيادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني طوال أربعة عقود. وقد تجسدت هذه الإنشطارات في فترة لاحقة في إكتظاظ الساحة الكُردية بأحزاب ومنظمات وجمعيات سياسية عدة.

وعلى رغم أن هذه الحال شكّلت ظاهرة سياسية تعددية طبيعية، إلا أن بروزها المفاجيء في الوقت الذي عانت فيه الحركة الكُردية من ضعف وتراجع وتصاعد حدّة إستغلال الدول الإقليمية، خلق صعوبات جمّة أمام تنغيم التعددية الجديدة في صورة متجانسة.

وسط كل هذه الأجواء المفعمة بالسواد، إستغلت السلطات العراقية فرصة الإنتكاسة لشن أفظع حملة تدمير شهدها التاريخ الكُردي المعاصر ضد الإثنية الكُردية في العراق. واللافت أن هذه الحملة لم تقتصر على حصد الأرواح الكُردية عن طريق القتل والإعدام والملاحقة، إنما طالت أيضاً الحالة الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والبنيان النفسي للإنسان والمجتمع الكُرديين.

قصارى القول أن المجتمع الكُردي بات في أعقاب نكسة ١٩٧٥ على وشك تفتت شامل نتيجة قمعية السلطة من جهة، وبؤس الوضع الداخلي الذي اصاب الإنسان الكُردي من جهة أخرى. ولا أدل على سوء أحوال الكُرد في تلك الحقبة من الإشارة الى تصريح لوزير الاعلام العراقي، آنذاك، طارق عزيز في مقابلة مع صحيفة بريطانية أكد فيها أن الكُرد (إقترفوا جريمة ضد الشعب العراقي والسيادة العراقية ويجب أن يدفعوا ثمناً سياسياً لما اقترفوه)(١٧٩).

وفيما الحال على هذه الشاكلة، ظل إدريس في الجانب الآخر من الحدود، مدركاً لأهمية القيام بحركة ما. فسياسة الإبادة الحكومية كانت تستمد أهم مبرراتها من خلو الساحة السياسية من قوة فاعلة قادرة على النشاط والمقاومة.

في الجانب الآخر من الحدود كان إجتمع نحو ربع مليون كُردي، عاد منهم

(١٧٩) Finnancial Times, 14 July 1975.

الى العراق خلال شهر نيسان حوالي مائة ألف شخص. لكن الآخرين ظلّوا يتطلعون الى فرصة سانحة للعودة الى خنادقهم المهجورة في كُردستان العراق.

من هذا المنطلق، بادر إدريس، مع شقيقه مسعود، الى مشاورة والده والكوادر القيادية في الحركة القومية الكُردية للبحث في ما يمكن عمله. بعد فترة غير طويلة تم الإعلان في ٢٦ آيار ١٩٧٦ عن تأسيس القيادة الموقتة للحزب الديموقراطي الكُردستاني.

الى ذلك، أشرف إدريس في شكل سرّي على إرسال كوادر عسكرية وسياسية الى سورية التي كانت لاتتمتع بعلاقات طبيعية مع العراق وإيران، وكان الهدف من ذلك تهيئتهم في ظروف أفضل من ظروف إيران للعودة الى كُردستان العراق وإطلاق إنتفاضة جديدة. وكانت قيادة قطر العراق لحزب البعث الحاكم في سورية وجهت برقية الى الحزب الديموقراطي الكُردستاني في التاسع من آذار ١٩٧٥، أي بعد إتفاقية السادس من آذار بثلاثة أيام، عبرت فيها عن تعاطفها مع الحركة الكُردية في مواجهة التطور الحاصل بين العراق وإيران.

في فترة لاحقة، دعت الحكومة السورية مسعود بارزاني في منتصف كانون الأول ١٩٧٦ الى دمشق للبحث معه في أوجه التعاون الممكن بينها وبين كُرد العراق أولاً، وبين هؤلاء وجماعات المعارضة العراقية التي كانت تتخذ من دمشق مقراً، ثانياً.

لكن المشكلة أن الزعامة البارزانية، في تلك الفترة، واجهت عراقيل كبيرة، من أهمها: إيران التي بدأت تتجه في خطى متسارعة ودفع لافت من الولايات المتحدة، نحو تحالف متين مع الحكومة العراقية. وكان سماحها لوفود حكومية وبعثية عراقية، رأسها العضو السابق في القيادة القومية لحزب البعث الحاكم، رئيس الجبهة الوطنية في العراق نعيم حداد، بالمجيء الى إيران والتجوال في معسكرات اللاجئين الكُرد وحثّهم على العودة الى العراق صورة من ذلك التعاون.

في الوقت عينه، بدأت السلطات الإيرانية تضييق الخناق على الزعماء البارزانيين، وتحاول الحد من نشاطاتهم السياسية. والواضح أن هذا الإجراء

كان في حقيقته جزءً من إتفاق عراقي-إيراني سري ملحق بإتفاقية عام ١٩٧٥. ويؤكد الصحافي الأميركي المختص بالشؤون الكُردية جوناثان راندل في كتابه أن الشاه لم يقتصر على منع إدريس ومسعود من النشاط السياسي فحسب، إنما حاول إعادة بارزاني الأب من الولايات المتحدة التي كان يتعالج فيها الى إيران بهدف منعه من القيام بأي نشاط سياسي هناك[١٨٠].

لكن مع هذا، لم يتوقف إدريس ومسعود عن نشاطهما السياسي. وما زاد من صعوبة هذه النشاطات أن إدريس شعر، بعد سفر والده الى الولايات المتحدة لتلقي العلاج برفقه شقيقه مسعود، أن الواجب أصبح يقضي بتخصيص جزء من وقته لرعاية اللاجئين وتوفير مستلزمات إستقرارهم، إضافة الى تذليل المشاكل التي يلاقونها في تعاملهم مع السلطات الإيرانية. وكانت طهران في هذه الفترة لاتبدي سوى القليل من التعاون نظراً لرغبتها في عودة الكُرد الى العراق.

ويروي مساعدون لإدريس أن وقته في هذه الفترة كان موزعاً بين عمل دؤوب من أجل إعادة بناء الحزب وتهيئة الأرضية الملائمة لإطلاق إنتفاضة جديدة، والعمل في الوقت نفسه وفي ظروف بالغة التعقيد، على حل مشكلات اللاجئين وتلبية مطالبهم.

يشير جرجيس فتح الله الى أن إدريس كان يكلفه، في تلك الفترة، بكتابة الرسائل وتوجيه المذكرات الى البعثات الديبلوماسية والأمم المتحدة والمنظمات الدولية، خاصة الى اللجنة الدولية للصليب الاحمر لشرح الكوارث التي تحيق بالكُرد[١٨١]. والأرجح أنه كان على دراية تامة بأهمية تغذية هذه المنظمات العالمية غير الحكومية خصوصاً في الدول الغربية بمعلومات عن الوضع الكُردي.

مع هذا لم ينس إدريس ضرورة العمل على حفظ وحدة الحركة السياسية الكُردية. ويذكر فرنسو حريري أن نجل بارزاني إلتقى أكثر من مرة في عام

(١٨٠) جوناثان راندل، المصدر نفسه.

(١٨١) مقابلة أجراها الزميل بدران أحمد حبيب مع جرجيس فتح الله في ١٢ نيسان ٢٠٠١.

١٩٧٥ بإبراهيم أحمد الذي كان إنتقل مع اللاجئين الى الجانب الإيراني من الحدود. وأنه توصل معه وبعلم بارزاني الأب الى إتخاذ خطوات بهدف منع بروز الصراعات الكُردية مستقبلاً [١٨٢].

وسط هذه الأوضاع المعقدة، حاولت الحكومة الإيرانية، إقناع إدريس بالإبتعاد عن النشاط السياسي عن طريق محاولة إغداق الهدايا والإمتيازات عليه. لكنه رفض الإغراءات مفضلاً البقاء مع شعبه. وفي هذا الصدد يشار الى أن السلطات الشاهنشاهية الإيرانية حددت إقامته في ضاحية كرج القريبة من العاصمة طهران. لكنه مع هذا كان يستغل كل فرصة ممكنة لقضاء أكثر أوقاته في القرى الحدودية التي تجتمع فيها الكوادر الكُردية العراقية. ومن هذه القرى التي شهدت البدايات الأولى لإعادة تأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني قريتي راژان وزيوه.

لاحقاً بدأت السلطات الأمنية الإيرانية تلاحقه وتضيّق عليه وتستدعيه الى دوائرها للإستجواب. كذلك كانت الحال مع شقيقه مسعود، خصوصاً بعد أن إعتقلت السلطات الإيرانية الكادرين القياديين في الحزب الديموقراطي الكُردستاني محمد رضا عزيز وعارف طيفور.

لكن إدريس مع هذا ظلّ قوياً ينصح مساعديه بضرورة الصبر والتطلع الى الإمام والعمل الدؤوب من أجل إطلاق إنتفاضة جديدة تعيد لكُرد العراق كرامتهم وعزتهم وهويتهم الذاتية[١٨٣]. وفي هذا الصدد يشير أكثر من شخص ممن رافقوه في تلك الفترة أنه كان يدافع بشدة عن مواقف حزبه والبيانات التي يصدرها في الخارج ينتقد فيها حكومة الشاه الإيراني وسياساتها. وكانت طهران جدّية في تحالفها مع بغداد ولم تتردد من تسليم مجموعة من الكُرد الى بغداد في تلك الفترة.

لهذا، لم يكن سهلاً على إدريس أن ينشط سياسياً في إيران نظراً للرقابة المتشددة التي فرضتها السلطات الأمنية على تحركاته. ويروي نجله نيچيرڤان،

(١٨٢) حريري، فرنسو: لكي لايكتب التاريخ محرفاً، دهوك، مطبعة خبات ١٩٩٧، ص٢٣.
(١٨٣) فرنسو حريري: مقابلة مع صحيفة برايەتى، العدد ٢٢٦٦.

الرئيس الحالي لحكومة اقليم كُردستان العراق، أن والده كان خصص جلّ وقته للمطالعة ومتابعة نشاطاته السياسية والحزبية وإن على شكل سري[١٨٤].

وفي إشارة الى صعوبة الظروف في تلك الأوقات يقول نيچيرڤان إنه لاحظ في يوم من تلك الأيام وجود مقاتل جريح مختفياً في بيتهم. وكان هذا المقاتل جرح في مواجهات مع القوات العراقية بعد عودته الى كُردستان ضمن المفارز الأولية في ١٩٧٦، وحيث أن الإيرانيين كانوا يمانعون في إيواء المقاتلين الكُرد ومعالجتهم داخل أراضيهم، فإن والده إضطر الى إخفائه في منزله مع إشرافه الشخصي على علاجه. وكان ذلك في حقيقته جرأة شخصية من إدريس. لكنه في الوقت ذاته كان خصلة أخلاقية ورثها من والده.

والواقع أن الزعامة البارزانية كانت أمرت قبل إنتقال المقاتلين الى الجانب الإيراني من الحدود في ١٩ آذار ١٩٧٥ ببقاء نحو ألف مقاتل في مناطق متفرقة في كُردستان العراق، خصوصاً في برواري ونيروه وهركي بنَجي[١٨٥]. وقد شكّلت هذه المجموعة النواة الرئيسة لإنتفاضة مسلحة جديدة أطلقتها القيادة المؤقتة للحزب الديموقراطي الكُردستاني في أيار ١٩٧٦. وكانت المعركة الأولى التي خاضتها هذه المجايع القتالية مع القوات العسكرية العراقية إندلعت في السادس والعشرين من آيار عام ١٩٧٦ حيث قتل فيها الكادر العسكري سيد عبدالله نبي.

عودة الخلافات القديمة

عاشت الحركة القومية الكُردية في هذه الفترة إحدى أكثر مراحلها صعوبة وتعقيداً. فمن جهة كانت السلطات العراقية لاتني تضييق الخناق على الكُرد في كُردستان العراق. ومن جهة ثانية كانت الخلافات لاتني تتعمق بين الكُرد أنفسهم، خصوصاً بعد أن عاد الحزب الديموقراطي الكُردستاني الى نشاطه

(١٨٤) مقابلة في صحيفة (برايەتى) العدد نفسه. إتفق جرجيس فتح الله في المقابلة مع هذا القول، وأضاف أن إدريس كان كثير المطالعة ولايتحرج من السؤال عما لايعرفه من الامور. وأن اسئلته كانت تنم عن ذكاء، وعن رغبته في أن يكون مستعداً للتعامل مع كل ما يمكن أن يواجهه من أسئلة واستفسارات.
(١٨٥) مقابلة أجراها الكاتب مع مسعود بارزاني في ١٨ حزيران ٢٠٠١.

السياسي في شكل خفي تحت إسم الحزب الديموقراطي الكُردستاني- القيادة الموقتة في نيسان ١٩٧٥.

يؤكد مسعود بارزاني أنه بدأ مع إدريس في إعادة الإتصال الحزبي مع مجموعة من الكوادر القيادية في الأسبوع الأول من نيسان ١٩٧٥. ويشير الى أن عدداً من هؤلاء بين اللاجئين في إيران، منهم شعبان غفّار برواري ومحمد خالد بوصلي وعبدالرحمن صالح وسيسو دري هركي، بدأوا العمل مع الزعامة البارزانية الشابة في شكل (دعاة إتصال) أو (قاصدين) للإتصال مع الآخرين. كما نشطت مجموعة أخرى من الكوادر القيادية في زعامة الحزب الديموقراطي بينهم جوهر نامق سالم وآزاد برواري وسامي عبدالرحمن وفاضل ميراني وعارف طيفور وكريم سنجاري وفرنسو حريري وكمال كركوكي والشيخ عزيز سرگلو والملازم يونس روژبياني وشيركو الشيخ علي. هذا في حين تمّ توزيع هذه الكوادر على مناطق عدة حيث تولى جوهر نامق وكريم سنجاري مسؤولية الإشراف على نشاطات الحزب في منطقة بهدينان، وعارف طيفور وكمال كركوكي في أطراف السليمانية ومحمود إيزيدي في دهوك وشيخان. بينما إنتدبت القيادة سامي عبدالرحمن للعمل في أوروبا وذلك للإشراف على إعادة تنظيمات الحزب في الدول الأوروبية ومساعدة مسعود في إدارة العلاقات الخارجية للحزب[١٨٦].

لكن يبدو أن الخلافات سرعان ما نشأت بين الحزبين الديموقراطي الكُردستاني والإتحاد الوطني الكُردستاني، خصوصاً بعد أن حاول الأخير إعادة مجموعة من مقاتليه عبر سورية الى داخل كُردستان العراق. هذا في الوقت الذي كانت المجاميع القتالية للحزب الديموقراطي الكُردستاني تنشط في شكل فعلي في مناطق عدة.

في هذه الفترة، جرت محاولات عدة لرأب الصدع بين الحزبين، خصوصاً من جهة التجمع الوطني العراقي وقيادة قطر العراق لحزب البعث العربي الحاكم في سورية ممثلة بعضو القيادة القومية العراقي باقر ياسين. ومن الشخصية الكُردية العضو السابق في المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني

(١٨٦) مسعود بارزاني، المقابلة نفسها في ١٨ حزيران ٢٠٠١.

الدكتور محمود عثمان[١٨٧]، إضافة الى الشخصية الكُردية علي سنجاري المقيمة، في تلك الفترة، في دمشق.

في الفترة التي كان فيها بارزاني الأب في الولايات المتحدة لتلقي العلاج، كان إدريس منهمكاً في بناء قاعدة إنتفاضة مسلحة جديدة إنطلاقاً من كُردستان إيران. أما مسعود فقد تولى إعادة بناء تحالفات حزبه الإقليمية الإشراف على النشاط الديبلوماسي الخارجي وحلّ الخلافات مع جلال طالباني في دمشق.

وصل مسعود بارزاني الى العاصمة السورية دمشق في التاسع عشر من كانون الأول ١٩٧٦ قادماً من الولايات المتحدة بدعوة رسمية من القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في سورية. وبعد وصوله مباشرة، عقد إجتماعاً مع طالباني حضره باقر ياسين. وكان قبل ذلك إلتقى طالباني في لندن في السادس عشر من تشرين الأول ١٩٧٦ بحضور علي سنجاري. وقد أسفر إجتماع دمشق في الأول من آذار عن إتفاق بين الطرفين لم يعش سوى أسابيع قليلة لتعقيدات تلك المرحلة ولإنتفاء الثقة بين الطرفين نتيجة إنشقاق ١٩٦٦.

كانت دمشق تمثل في تلك الفترة قاعدة إنطلاق ممتازة للحزب الديموقراطي الكُردستاني نتيجة عدد من العوامل أهمها: أن سورية كانت تمثل قاعدة العمل القومي العربي خصوصاً بعد حرب أكتوبر مع إسرائيل. وكان من شأن العلاقات التحالفية السياسية معها أن تخفف من وطأة الضربة الباهظة التي دفعها الحزب عبر علاقاته التحالفية السابقة مع إيران وإسرائيل والولايات المتحدة.

كما أن دمشق مثّلت بوابة ملائمة لإعادة التواصل مع جماعات المعارضة العراقية من جهة، ومع المنظمات الفلسطينية في لبنان من جهة ثانية، والحصول عبر القناتين على الأسلحة والإمكانيات العسكرية لمدّ الإنتفاضة

(١٨٧) وصل الدكتور محمود عثمان الى دمشق في السادس عشر من تشرين الأول ١٩٧٦ قادماً من إيران. وكان قبل ذلك أسس مع مجموعة من الكُرد بينهم شمس الدين مفتي مسؤول مكتب علاقات الحركة الكُردية في طهران الى عام ١٩٧٣ اللجنة التحضيرية للحزب الديموقراطي الكُردستاني في شكل سرّي.

الجديدة والمفارز التي كان يهيئها إدريس في إيران سراً ويوجهها الى جبال كُردستان العراق.

الى ذلك كلّه، كانت هوامش المناورة السياسية واجواء التهيئة العسكرية في إيران معقدة وصعبة ومحكومة بممانعة رسمية، بينما سورية كانت تمثل في تلك الفترة فسحة مفتوحة أمام المعارضتين الكُردية والعراقية للعمل ضد الحكومة العراقية نتيجة خلافات البعثَين في بغداد ودمشق. وعلى هذا الصعيد يؤكد الدكتور محمود أن نائب رئيس الوزراء الإيراني مسؤول جهاز الأمن الإيراني الفريق نعمةالله نصيري أبلغ وفداً كُردياً رفيع المستوى كان بينهم الدكتور محمود نفسه ومحسن دزهيى[١٨٨]، إلتقى به بعد النكسة بأيام، أبلغ الوفد أن منطوق إتفاقية السادس من آذار بين العراق وإيران يمنع على الكُرد مزاولة النشاطات السياسية ضمن حدود الدولة الإيرانية[١٨٩].

لهذا كلّه، أولت الزعامة البارزانية إهتماماً كبيراً بترتيب علاقات متكافئة مع السوريين، لكنها حرصت في الوقت نفسه على عدم تكرار تجربة التحالف مع إيران من ناحية تعميق التحالف الى حدود لا رجعة عنها. كما أنها حرصت على أن تكون هذه العلاقات مبنية في شكلها الأساسي على قاعدة التعاون مع جماعات المعارضة العراقية المستقرة في دمشق، وفي مقدمها قيادة قطر العراق لحزب البعث الحاكم.

يذكر أن الوجبة الأولى للمقاتلين والكوادر الحزبية التي عادت الى كُردستان العراق، وبينهم عدد من أكفأ الضباط الكُرد، عبرت الحدود السورية-التركية في أواخر نيسان ١٩٧٧. وكانت مفارز أخرى بقيادة سامي عبدالرحمن وجوهر نامق، السكرتير الحالي للحزب الديموقراطي الكُردستاني وآزاد برواري[١٩٠] وكريم سنجاري[١٩١] تنشط في مناطق قريبة داخل كُردستان العراق منذ أشهر. وكانت هذه المفارز والتشكيلات المسلحة والسياسية تتسلم أوامر تحركاتها من إدريس في الوقت الذي إنهمك فيه مسعود بإعادة ترتيب العلاقات الكُردية مع العالم الخارجي.

(١٨٨) الممثل الشخصي لمسعود بارزاني وأحد أقرب مساعدي بارزاني الأب في وقته.
(١٨٩) الدكتور محمود عثمان: مقابلة ثالثة في ٢٧ نيسان ٢٠٠١.
(١٩٠) عضو المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني.
(١٩١) عضو اللجنة المركزية للحزب الديموقراطي الكُردستاني.

الفصل الرابع

المحطة الأخيرة: المصالحة القومية

إيران والكُرد والتحولات

بعد أقل من أربع سنوات على نكسة ١٩٧٥، إستطاعت الزعامة البارزانية، ممثلة بالشقيقين إدريس ومسعود، أن تعيد الحركة القومية الكُردية في العراق الى أعتاب مرحلة جديدة من الإنتعاش والتجدد. من دون شك، لعبت جملة عوامل إقليمية ودولية دوراً ملحوظاً في تهيئة الأجواء أمام هذا التجدد والإزدهار، وفي مقدمها الثورة الإسلامية في إيران، لكن العمل الدؤوب لتلك الزعامة وصبرها وبعد نظرها وسياساتها العقلانية كان بمثابة العتلة الرئيسية في إنقاذ الكُرد من نكستهم.

في هذا الإطار، شهدت الأوضاع الداخلية الإيرانية في عام ١٩٧٨ تململاً واسعاً نتيجة تفاقم الأزمات السياسية والإقتصادية الداخلية. وكانت كُردستان الإيرانية إحدى المسارح التي شهدت تظاهرات كبيرة أفضت من خلال تعاظمها الى نشوء عدد من الجمعيات والمنظمات السياسية الكُردية، إضافة الى تجدد نفوذ الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني في المدن الكُردية الإيرانية. يذكر أن عدداً من قياديي الحزب[١٩٢] الذين نشطوا في السبعينات في بغداد عادوا الى كُردستان إيران عبر الحدود مع كُردستان العراق.

لكن مع هذا كلّه، ظلّ كُرد العراق في مناطق التظاهرات بعيدين عن مشاركة فعلية في أحداث إيران على رغم كرههم الشديد لنظام الشاه وتمنّيهم تطور الأحداث والتظاهرات الى سقوط النظام الشاهنشاهي الذي اعتبروا أنه غدر بهم غدراً كبيراً. وقد تنبأ إدريس بنهاية النظام الإيراني حين إستدعته السلطات الأمنية للتحقيق في بداية ١٩٧٨. ويروي أحد مرافقيه في تلك

(١٩٢) ومنهم سكرتير الحزب الدكتور عبدالرحمن قاسملو الذي قتل في ١٣ تموز ١٩٨٩ على مائدة المفاوضات مع ممثلين عن الحكومة الإيرانية في العاصمة النمساوية فينا. وكان قاسملو استقر في العاصمة العراقية منذ بداية السبعينات وعمل محاضراً في جامعة بغداد، لكنه قاد في الوقت نفسه نشاطات الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني الذي كان عدد من كوادره القياديين ينشطون في العاصمة العراقية منذ ١٩٦٨.

الفترة أنه أبلغهم بعد خروجه من دائرة الأمن بأن لا داعي للقلق لأن طهران لم تعد تتمتع بالقدرة التي تسمح لها بإيذاء كُرد العراق وأن أيام النظام الإيراني أصبحت معدودة[١٩٣].

والواقع أن سقوط نظام الشاه محمد رضا بهلوي في شباط ١٩٧٩ لم يمهّد لبداية مرحلة جديدة في تاريخ إيران فحسب، بل أشّر أيضاً الى بداية مرحلة مختلفة في تاريخ الحركة القومية الكُردية في العراق. فهذا السقوط المدوي الذي هزّ العالم والشرق الأوسط، وفّر فرصة مثالية أمام الحركة القومية الكُردية في العراق للإنتعاش مجدداً والعودة الى دورها ونشاطاتها بعد أربع سنوات من ظروف صعبة وقاهرة.

واللافت أن الكُرد إستبشروا بالثورة الإسلامية على رغم علمانية حركتهم السياسية. بل أنهم رأوا في سقوط الشاه إنتقاماً (إلاهياً) لما إقترفته يداه بحقهم في ١٩٧٥. كذلك إعتبروه تحققاً لنبوءة زعيمهم بارزاني الذي طالب شعبه في آذار من العام ذاته بالصبر والإنتظار، لأن الأوضاع لن تستمر كما هي عليه، وأن إتفاقية آذار لن تعيش طويلاً كما أسرّ لمقربيه[١٩٤].

كان مرد الإستبشار الكُردي أن سقوط الشاه أصاب الطوق الجيوسياسي المفروض على كُردستان العراق بشرخ عميق لأول مرة على مرّ التاريخ الحديث. كما خلق شروطاً محتملة أمام إنهيار الحلف الثنائي الذي أسسته الدولتان العراقية والإيرانية بعد إتفاقية السادس من آذار ١٩٧٥ وكان الهدف المباشر لهذه الإتفاقية تفتيت الحركة الكُردية في كُردستان العراق ومنع إنتقال إنعكاساتها الى كُردستان إيران، إضافة الى الحؤول دون نشوء حركة جديدة قد تفضي الى تعكير التحالف الثنائي بين الدولتين.

الى ذلك، هيأت عملية السقوط في حد ذاتها دهشة وفوضى في المواقف العالمية تجاه ما حدث في إيران. وكان من شأن هذه الدهشة والفوضى أن تلفت الإنتباه العالمي الى وضع الكُرد، خصوصاً بعد تعاظم الحركة القومية الكُردية في إيران.

(١٩٣) صحيفة برايەتى، العدد ٢٢٦٦ الصادر في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٧.
(١٩٤) فرنسو حريري: المقابلة نفسها.

كما هيأت في الوقت عينه فوضى عارمة أخرى داخل إيران تمخضت عن إنهيار كثير من مؤسسات الدولة وأجهزتها القمعية ودوائرها الأمنية والعسكرية والإدارية. وكان ذلك كلّه بمثابة فرصة جديدة أمام الكُرد في إيران والعراق لإستغلالها في إتجاه إعادة بناء الآليات السياسية والتنظيمية والعسكرية لحركتهم القومية.

كذلك، عمّقت عملية سقوط الشاه من آفاق التطلع الكُردي في العراق كما في إيران على حد سواء، الى التشبث بالحقوق القومية خصوصاً أن الثورة الإسلامية الإيرانية أطلقت مع مجيئها رياح الدعوات الدينية والراديكالية الى التكافوء وإنصاف المستضعفين والمساواة والعدالة الإنسانية.

في السياق نفسه، لم تكن الثورة الجديدة برجالها ورموزها صورة غريبة عن قادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني العراقي. فهؤلاء نجحوا في الفترة بين عامي ١٩٧٥-١٩٧٩، في بناء إتصالات حيوية مع المنظمات الإسلامية الإيرانية في سورية ولبنان وأوروبا. وكان موقف الشاه العدائي تجاه اللاجئين الكُرد في إيران، وإعتقاله كثيرين منهم وفرضه لرقابة صارمة على تحركات زعمائهم، أسهم في شكل واضح في تمتين العلاقات بين الإسلاميين الإيرانيين في الخارج وكوادر الحزب الديموقراطي.

هذا طبعاً بالإضافة الى المراجعة السياسية الإنتقادية التي شرعها الحزب بمبادرة من زعامته بالنسبة الى كيفية تقويم المواقف الأميركية تجاه الحركة القومية الكُردية خصوصاً مواقفها السيئة حيال الكُرد في ١٩٧٥ وتخليها عنهم في العراء.

والواقع أن النشاط المتميز الذي أبداه البارزانيون في خضم تلك الأوضاع الصعبة والمعقدة كان موضع استياء الحكومة العراقية التي لم تتردد في تنظيم محاولة لإغتيال مسعود بارزاني في الثامن من كانون الثاني ١٩٧٩ في العاصمة النمساوية ڤيينّا(١٩٥).

(١٩٥) ذكر مسعود بارزاني عند حديثه عن هذه المحاولة في مقابلة ١٨ حزيران ٢٠٠١ أن الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات قدّم له مساعدات كبيرة للخروج من النمسا بعد تعرضه لمحاولة الإغتيال، منها أنه أرسل مبعوثاً عنه الى فينا على وجه السرعة حمل اليه وثيقة سفر بإسم مستعار للخروج من النمسا.

كل هذا، معطوفاً على الصراحة التي تمتع بها الزعماء البارزانيون، خصوصاً إدريس، في الاعتراف بمسؤوليتهم عن الأخطاء التحالفية التي رافقت علاقات الحركة الكُردية مع إيران الشاهنشاهية والولايات المتحدة، ساعد في تسهيل عملية التفاهم بين القادة البارزانيين والنظام الإيراني الجديد.

مع هذا كلّه، ظل البارزانيون في منفاهم الإيراني حريصين على عدم الإقدام على أي شيء يوحي بتدخلهم في شؤون البلاد التي تستضيفهم، منتظرين ما يمكن أن تتمخض عنه الأوضاع الإيرانية من مستجدات وتطورات. وكان هذا في حد ذاته تعبيراً عن أمانتهم في التعامل السياسي مع الآخرين والإلتزام الأخلاقي الرفيع بعدم التدخل في أمور لاتخص شعبهم.

في مطلع آذار ١٩٧٩ توفي بارزاني الأب في أحد المستشفيات في الولايات المتحدة. وأعيد جثمانه الى إيران بعد يومين حيث دفن في مدينة شنو الكُردية الإيرانية في الخامس من آذار من العام عينه. وكان ذلك بمثابة كارثة نفسية كبيرة بالنسبة للكُرد. لكن حساسية المرحلة وفداحة التطورات وسرعتها لم تدع فرصة كبيرة للحزن. لهذا سرعان ما عاد نجله مسعود الذي كان يرافق والده في الولايات المتحدة الى إيران في الثالث من الشهر نفسه. وكان الهدف الرئيسي لعودته الإنهماك مع شقيقه في إستثمار التطورات الجديدة في إيران لصالح الوضع الكُردي العراقي. وفي آب من العام ذاته، عاد القتال بين الإيرانيين والحزب الديموقراطي الكُردستاني بقيادة قاسملو بعد فشل المفاوضات بينهما.

وفي العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٩ عقد الحزب الديموقراطي الكُردستاني مؤتمره التاسع في قرية (دربند) القريبة من الحدود مع كُردستان العراق، والذي إنتخب مسعود بارزاني رئيساً للحزب وإدريس عضواً في مكتبه السياسي، كما قرر إزالة صفة (القيادة الموقتة) من إسم الحزب، إضافة الى محاولته التركيز بشكل جدي على البحث عن الإمكانات المتاحة لنفض غبار النكسة عن الحركة القومية في كُردستان العراق بالإستفادة من الاوضاع الجديدة في إيران.

وما زاد من أهمية هذه الخطوة أن إجراءات التعريب والترحيل والتبعيث

العراقية ضد كُردستان العراق تفاقمت في شكل خطير عند نهاية السبعينات. بل أن العنصر الكُردي في العراق أصبح على شفى تفتت ثقافي وإقتصادي وإجتماعي مروّع. وكان الرئيس العراقي صدام حسين قرر في تشرين الأول من العام نفسه، أي بعد اشهر من توليه رئاسة الجمهورية، تشكيل مكتب خاص بالشمال، أي كُردستان العراق، في قيادة حزب البعث. وكان هذا القرار في حقيقته تعبيراً واضحاً عن عزم بغداد على تبعيث وتعريب المنطقة الكُردية وتشويه الخصال القومية للمجتمع والإنسان الكُرديين.

تمثلت إحدى أهم خطوات الحكم العراقي في هذا الصدد في تسفير وجبة ثانية من الكُرد الفيليين الى إيران في مطلع عام ١٩٨٠. وتشير مصادر كُردية وإيرانية الى أن المسفرين ضمن هذه الوجبة فاق عددهم مائتي ألف إنسان. كما أن هذه الحملة تميزت بعدم سماح السلطات العراقية أن تصطحب العوائل المسفرة ابناءها الشباب معها، بل قامت بإحتجازهم في سجون غير معلنة ومن ثم تغييب آثارهم.

لكن اللافت أن إدريس الذي أحسّ بأهمية التحول الحاصل في بنية إيران السياسية وتأثير هذا التحول على مسار الحركة القومية الكُردية في العراق، بادر قبل أي خطوة أخرى الى زيارة طهران والإلتقاء بالامام العائد لتوه من فرنسا المرحوم آية الله روح الله الخميني في نهاية شباط من العام نفسه. وعلى رغم أن بعض الأوساط الإيرانية، والكُردية العراقية أيضاً، حاولت عن طريق المذكرات الى القادة الإيرانيين من أمثال مهدي بزركان وأبو الحسن بني صدر، عرقلة قيام علاقات سياسية بين النظام الإسلامي الجديد والزعامة البارزانية، والتذكير الخبيث بعلاقات الحزب الديموقراطي الكُردستاني مع إسرائيل والولايات المتحدة والنظام الشاهنشاهي، إلا أن إدريس ومسعود إستطاعا إزالة أي إلتباس في هذا الصدد.

وكان الأخير الذي تولى رئاسة الحزب نجح في ترتيب علاقات واضحة وصريحة مع الفلسطينيين والسوريين، ما شكّل ضماناً كافياً لدى قادة الثورة الإسلامية الإيرانية للوثوق بتوجهات البارزانيين. أما الأول، إدريس، فإستطاع بمنطقه السياسي المقنع أن يشرح للقادة الإيرانيين أن كُرد العراق كما هو حال

الوطنيين والإسلاميين والثوار الإيرانيين، ضحايا أساسيين لسياسات الشاه المتهورة ومساوماته مع بغداد.

في الواقع، لم تكن إعادة الكلام عن دور إسرائيلي وإيراني وامبركي في الحركة الكُردية العراقية هي المشكلة الوحيدة التي واجهت إدريس وقيادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني في تلك الفترة. إنما المشكلة الأكبر تمثلت في محاولة بقية الأحزاب الكُردية العراقية، التي لم تكن مضت على تأسيسها سنوات طويلة، نقل خلافاتها وصراعاتها الى إيران.

في هذا الإطار، برز أحد أهم الفروق بين الطبيعة السياسية لكل من الزعيمين الشقيقين إدريس ومسعود من جهة وزعيم الإتحاد الوطني الكُردستاني جلال طالباني من جهة أخرى. إذ بينما إستغل الأخير فرصة الثورة الإسلامية الإيرانية في إتجاه التدخل في الشأن الإيراني الداخلي ومساندة جهة على حساب جهة إيرانية أخرى، والدخول في تحالفات سريعة وغير مدروسة مع أطراف كُردية إيرانية، إضافة الى مساعدته المباشرة في إقامة تنظيمات ماركسية وغير ماركسية في إيران، مع الاحتفاظ في الوقت عينه بعلاقاته مع طهران، ظل الزعيمان البارزانيان محتفظين بهدوئهما السياسي مع حرصهما على الإبتعاد عن التدخل في الشأن الإيراني، وتبني سياسة الوضوح والعقلانية في تعاملهما الهاديء البعيد عن الشعارات مع طهران.

وقد مهّدت هذه الفروق التي لاحظها أيضاً المختص الأميركي بالشؤون الكُردية مايكل گونتر[١٩٦] لجولة جديدة من الصراعات الدموية بين قوات إيرانية وميليشيات حزب قاسملو. ومن ثم اشتباكات بين الأخيرة ومقاتلي الحزب الديموقراطي الكُردستاني. وإشتباكات أخرى بين ميليشيات طالباني مع مقاتلي الحزب الديموقراطي الكُردستاني العراقي.

يذكر أن زعيم الديموقراطي الإيراني قاسملو أقام في تلك الفترة تحالفاً وثيقاً مع طالباني. وقامت مجموعة من كوادره بنبش قبر مصطفى بارزاني في قصبة

(١٩٦) أنظر: Gunter, Michael M: The Kurdish Predicament in Iraq

شنو. وقد تردد في حينه أن متعاونين مع العراق من داخل حزب قاسملو، مسؤولون عن الحادث.

تعامل إدريس مع هذه الصورة الكُردية المتناقضة بهدوء وروية. ودعا الى تجازوها وتجنب المزايدة والمناقصة السياسية في أمر التحالف مع الدول الإقليمية على حساب العامل الداخلي الكُردي. والواقع أنه كان يعتقد أن الفرصة مواتية لنهوض كُردي جديد، وأن الأنظار والإهتمامات الكُردية يجب أن تنصب على معالجة الوضع الداخلي الكُردي.

والأرجح أنه كان مدفوعاً بقناعته أن الفرصة التي تحدث عنها بارزاني بعد إتفاقية السادس من آذار ١٩٧٥ قد حلّت بعد أقل من أربع سنوات، ولم يعد أمام الزعامة البارزانية سوى خيار التحرك من أجل إستغلالها في شكل ناجع.

إعادة توحيد الصف القومي

لم تقتصر جهود إدريس في هذه الفترة على إعادة تنظيم صفوف الحزب الديموقراطي الكُردستاني فحسب، بل ركّز جانباً رئيسياً من جهوده في إتجاه بناء أجواء ملائمة أمام تقريب وجهات نظر الأحزاب الكُردية التي نشأت بعد نكسة ١٩٧٥.

وفي هذا الخصوص يشدد مرافقه لسنوات طويلة، نادر هورامي، على أن إدريس كان معروفاً بحماسه الكبير لإنهاء حال الإقتتال الداخلي وتحريمه بين الكُرد. وينقل هورامي عن رسالة شخصية كتبها إدريس اليه تأكيده أن العدو الوحيد للكُرد هو النظام العراقي. لهذا يجب على مقاتلي حزبه تجنب الدخول في مواجهات قتالية مع الأحزاب الأخرى، مشيراً الى أن عليهم أن يواجهوا بالمنطق السياسي من يريد محاربتهم بالسلاح، وإقناعهم بأن توحيد المواقف هو الطريق الوحيد المتاح أمام الكُرد[١٩٧].

في هذا الإطار، بدأ بإجراء إتصالات مع الحزبين الشيوعي العراقي والاشتراكي الكُردستاني الذي كان يقوده في تلك الفترة المرحوم رسول مامند.

(١٩٧) نادر هورامي: مقابلة مع صحيفة برايەتى اليومية الصادرة في أربيل، العدد ٢٢٦٦ في ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٧.

وكان هدفه من هذه الإتصالات وضع الأسس الضرورية لإقامة جبهة كُردية واسعة. والملاحظ أن طالباني توجّه في رد على هذه الجهود الى محور سورية لإقناع جماعات المعارضة العراقية الموجودة هناك بإقامة جبهة بديلة.

في المحصلة النهائية إقتصرت قيادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني على إعلان جبهة عُرفت بالجبهة الوطنية الديموقراطية (جود) في الثامن والعشرين من تشرين الثاني ١٩٨٠، وضمت الى جانب الحزب الديموقراطي الكُردستاني، الحزب الشيوعي العراقي والحزب الاشتراكي الكُردستاني. أما طالباني فسارع، كما سبق القول الى إعلان جبهته في السادس عشر من من تشرين الثاني من العام نفسه، تحت إسم الجبهة الوطنية القومية الديموقراطية (جوقد)، التي ضمت حزب البعث العربي العربي الاشتراكي- قيادة قطر العراق، والحزب الشيوعي العراقي وعدداً من الأحزاب الصغيرة الاخرى.

واللافت أن الحزبين الشيوعي العراقي والاشتراكي الكُردستاني كانا ضمن الجبهتين. لكن الصراعات الكُردية وتفاقماتها في ما بعد، أجبرتهما على الإقتصار في الإنتساب الى (جود) التي واجهت معارك داخلية مع ميليشيات طالباني بعد فترة قصيرة من تأسيس الجبهتين.

يشار الى أن هذا التأسيس جاء في أعقاب إندلاع الحرب بين العراق وإيران في ٢٢ أيلول ١٩٨٠[١٩٨]، وعلى رغم أن الدولتين لم تكونا قد حسمتا في تلك الفترة أمر تعاونهما مع الأحزاب الكُردية في الدولة الأخرى، لكن الواضح أن بروز الجبهتين لم يكن بعيداً عن تأثيرات العامل الإقليمي خصوصاً الإيراني والسوري.

والواقع أن إندلاع الحرب العراقية-الإيرانية جاء بمثابة فرصة مثالية أخرى أمام كُرد العراق لتوسيع دائرة مقاومتهم المسلحة وإعادة ترتيب بيتهم الداخلي وزجّ جهودهم ضد السلطات المركزية العراقية التي بدأت تغوص في أوحال

(١٩٨) يذكر أن العراق أعلن في السابع عشر من أيلول ١٩٨٠ إلغاء إتفاقية الجزائر ١٩٧٥ بين الدولتين. وبعد خمسة أيام من قرار الإلغاء شنّت القوات العراقية هجوماً واسعاً على الأراضي الإيرانية. وكانت قوات عراقية توغلت في السابع من الشهر نفسه في أراضي إيرانية الى عمق كبير، لكن التوغلات السابقة لم تعلن لأن العراقيين لم يلاقوا أي مقاومة أو تحصينات في طريق تقدمهم التجريبي الأول.

حرب دموية شرسة ضد الإيرانيين. لكن الإندفاع المتناقض الذي أبداه طالباني في تلك الفترة للقفز على دور بقية الأحزاب الكُردية عن طريق تعاونه، مع طهران من جهة ودمشق من جهة ثانية، وحزب قاسملو من جهة ثالثة، سرعان ما أدى الى تعكير الأجواء وتجدد الصراع الدموي بينه وبين الحزب الديموقراطي.

حاول إدريس في هذا المقطع الزمني وضع حدٍّ للصراعات الداخلية وذلك عبر محاولته التصالحية الأولى مع الإتحاد الوطني في ١٩٨١. لكن هذه المحاولة إنتهت بعد أقل من ستة أشهر الى بركة من الدماء حين هاجمت ميليشيات طالباني قوة من الحزب الاشتراكي الكُردستاني في وادي (ورتي) في حوض رواندوز. في صيف ١٩٨٢ عاد وحاول عبر وساطة الحزب الشيوعي العراقي تطبيع علاقات حزبه مع الإتحاد الوطني الكُردستاني. وقد تجلت هذه المحاولة في عدد من اللقاءات عقدها ممثلو الحزبين في سفوح جبل قنديل. وعلى رغم أن اللقاءات تمخضت عن توقيع إتفاق تصالحي بينهما أفضى في مراحل لاحقة الى قيام نوع من التعاون والتنسيق العسكريين، إلا أن التصالح لم يطل كثيراً، إذ بعد تدهور علاقات طالباني مع إيران وبقية الأحزاب الكُردية وتوجهاته اللاحقة نحو التفاوض السري مع بغداد اعتباراً من صيف ١٩٨٢ إنهارت الهدنة وعادت الصراعات المسلحة الى كُردستان العراق.

شنّت إيران في تشرين الأول من ذلك العام هجوماً واسعاً على محور (سردشت–خانه) بهدف ملاحقة مقاتلي الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني بعد إنهيار المفاوضات معهم. وعلى رغم أن بغداد استبشرت بهذا الهجوم لكونه هيأ دافعاً مثالياً أمام القوات الإيرانية للإنشغال بمشكلة داخلية متفاقمة، إلا أنها سرعان ما وجدت أن الهجوم مهّد الطريق لإنتصار إيراني سريع أفضى الى إلتجاء حزب قاسملو وبقية أحزاب ومنظمات المعارضة الإيرانية الى داخل الأراضي العراقية بعد معارك لم تستمر سوى أسبوعين. واللافت أن طهران لم تفوّت هذه الفرصة إذ استثمرتها في تقوية الروح المعنوية لدى قواتها المحاربة في جبهات القتال مع العراق.

والواقع أن حرص الزعامة البارزانية في هذه الفترة على نأي نفسها عن

الصراعات الداخلية الإيرانية، وحدوث اشتباكات بين مقاتليها ومقاتلي حزب قاسملو، مهّد الطريق أمام تمتين العلاقات الإيرانية مع الحزب الديموقراطي الكُردستاني. وفسّر طالباني هذه العلاقات بأن الغرض الأساسي منها هو التضييق عليه. هذا في حين كان الإيرانيون يخططون لفتح جبهة جديدة على الحدود الشمالية التي تمرّ عبر أراضي الكُرد. وكان الهدف الواضح من هذه المحاولة هو توسيع رقعة الحرب العراقية الإيرانية وإشغال القوات العراقية في جبهات متباعدة.

لهذا سارع طالباني الى عقد تحالف سريّ مع بغداد متخلياً عن أي أمل له في التصالح مع بقية الأحزاب الكُردية العراقية. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التحالف تجدد الصراع الداخلي في شكل عنيف بعد أن شنّت قوات طالباني هجوماً على مقرات الحزب الشيوعي العراقي والحزب الاشتراكي الكُردستاني والحزب الاشتراكي الكُردي في سفوح جبل قنديل الحدودية مع إيران في الأول من آيار ١٩٨٣. وتردد في حينه أن الحكومة العراقية أرسلت سراً كميات غير قليلة من المساعدات والأسلحة الخفيفة الى طالباني بهدف دعم موقفه في جبهة القتال الداخلي.

في الواقع، إستطاعت ميليشيات طالباني إحراز إنتصار سريع في معارك سفوح قنديل بعد أن أوقعت خسائر بشرية ومادية كبيرة في صفوف الأحزاب الكُردية. كما أن القوات المهاجمة لم تقتصر على تدمير قواعد هذه الأحزاب في قنديل فحسب، بل تحركت بعد أقل من أسبوع الى وادي باليسان شمال شرق أربيل حيث شنت هجوماً كبيراً على قواعد أحزاب جود بما فيها الحزب الديموقراطي الكُردستاني في الوادي.

مع حلول الشتاء، وبالذات في نهاية كانون الأول من العام نفسه، بدت ملامح المفاوضات العلنية تتضح بين الإتحاد الوطني الكُردستاني والحكومة العراقية. وفي كانون الثاني حطّت طائرة هيليوكوبتر عسكرية عراقية في قرية زيخان في وادي باليسان وأقلّت طالباني مع عدد من مساعديه الى كركوك ومنها الى بغداد لمواصلة المحادثات مع المسؤولين العراقيين.

كان هذا التطور بمثابة ضربة مؤلمة للحركة القومية الكُردية، خصوصاً في

مرحلة بدأت فيها الآلة الحربية العراقية تشهد توسعاً لافتاً في نوعيتها وكميتها. وعلى رغم تفاقم الحرب مع إيران وإختلال ميزانها العسكري ضد العراق، إلا أن الجيش العراقي الذي بدأ يعتمد على قوته الجوية المتطورة وصواريخه بعيدة المدى، وما اصبح يمتلكه من أسلحة دمار شامل، لم تفتر عزيمته في مواصلة الحرب ضد الكُرد.

واللافت أن الولايات المتحدة بدأت في هذا الشطر الزمني بفتح قنواتها الديبلوماسية مع العراق. ففي مطلع حزيران إنتقل الديبلوماسي الأميركي ديفد نيوتن من مقر عمله في دولة الإمارات الى بغداد وباشر مهمته كقائم بالأعمال الاميركية في العاصمة العراقية. وفي تشرين الأول من العام نفسه، أي ١٩٨٤، قررت الدولتان إستئناف العلاقات الديبلوماسية بينهما على مستوى السفراء، حيث عيّنت بغداد نزار حمدون سفيراً لها في واشنطن، بينما عيّنت الإدارة الأميركية نيوتن سفيراً لها في بغداد.

الى ذلك، شرعت الدول الخليجية، خصوصاً الكويت والسعودية اللتان تعرضتا أكثر من غيرهما من الدول الى مخاطر الحرب وشظاياها، في مدّ القوات العراقية بكل وسائل الدعم والتأييد والمساندة المالية.

والأرجح أن هامش المناورة السياسية لم يكن واسعاً أمام الزعيمين إدريس ومسعود لمعالجة الوضع أو التعامل معه بحرية وثقة كبيرتين، في الوقت الذي أخذ فيه ثقل الحرب بالإنتقال الى الحدود الشمالية. لهذا كرّسا جهدهما لتميتن التحالف الداخلي في إطار جبهة (جود). وقد صرّح إدريس في المقابلة التي أجرته معه مجلة (ماموستاي كورد) بأن إزدياد عدد الأحزاب والمنظمات السياسية على الساحة الكُردية دليل على التطور الحاصل في الوعي السياسي-الإجتماعي الكُردي من جهة، وإشارة الى حالة الثبات التي اصبحت تتمتع بها الحركة القومية الكُردية من جهة أخرى.

وفي هذا المعنى رأى إدريس، كما يرى الديموقراطيون في وقتنا الراهن، أن التعددية الحزبية والسياسية هما مصدر قوة وليسا مصدر ضعف للكُرد. أما إخفاق الحركة السياسية الكُردية في تنظيمهما والإستفادة منهما فهي إيحاء الى نقص في الشعور بالمسؤولية الذاتية داخل الحركة السياسية نفسها[١٩٩].

(١٩٩) مجلة ماموستاي كورد ٤-٥، ١٩٧٨ .

واصل الزعيمان البارزانيان جهدهما اللافت في هذا الخصوص على رغم أنهما اصبحا يعانيان من ألم ذاتي رهيب تمثل في تعرض عشيرتهما الى مأساة جديدة نتيجة إقدام الحكومة العراقية على إعتقال أكثر من ثمانية آلاف بارزاني في أربيل في يوم واحد. لكن إدريس الذي عُرف بأعصابه الهادئة في أوقات الشدة، ظلّ حريصاً على أن لايغلبه الحزن.

وكان رأيه منذ أن غيّب المرض، ومن ثم الموت، والده أن الفراغ الذي أحدثه غياب مصطفى بارزاني قد يصعب معالجته من دون زعامة بارزانية جماعية بالتكاتف مع شقيقه مسعود الذي كان يتولى رئاسة الحزب، على أن تشكل هذه الزعامة الجماعية نواةً لقيادة جماعية أوسع داخل الحركة القومية الكُردية. والواقع أن هذه الفكرة التي عبّرت عن بُعد نظر سياسي عصري مثّلت إحدى أهم خصاله السياسية طوال الفترة من وفاة والده في ١٩٧٩ الى وفاته هو في مطلع ١٩٨٧.

مأساة بارزانية أخرى

في الثاني والعشرين من تموز عام ١٩٨٣ شنت القوات الإيرانية هجوماً كبيراً على قاطع حاجي عمران في أقصى شمال شرقي كُردستان العراق. وكان الإيرانيون شنّوا قبل ذلك هجوماً آخر في قاطع مريوان-بينجوين جنوب خط الجبهة في كُردستان العراق. لكن الهجوم الأول لم يحقق الهدف الذي إبتغته طهران وهو نقل جزء أساسي من ساحة الحرب الى الجبهة الشمالية. لهذا نظّموا هجوماً كبيراً آخر في أقصى شمال خط الحدود حيث إستطاعوا أن يتقدموا الى عمق عشرين كيلومتراً، مهددين بالسيطرة الكلّية على حوض رواندوز وطريق هاملتون.

في الواقع كانت طهران تحاول في هذه الفترة إشغال الجيش العراقي في المناطق الشمالية بهدف تخفيف وجوده في الجبهتين الوسطى والجنوبية. وكان الإيرانيون يأملون في أن يؤدي هذا التخفيف في حال حصوله الى توفير الفرصة أمامهم لشنّ هجوم كاسح في جبهة البصرة وشرق دجلة.

لكن نقل الحرب الى الحدود الشمالية حيث مواطن الكُرد على جانبي الحدود

تطلب في شرطه الأول ضمان تعاون وثيق مع الأحزاب الكُردية التي كانت تنشط في تلك المناطق. لهذا وجدت طهران أن تحقيق اهدافها العسكرية والسياسية يقضي بالتحالف مع الأحزاب الكُردية على رغم التعقيدات وحالة التبعثر والإحتراب بين تلك الأحزاب. فالأراضي التي يسيطر عليها مقاتلو الحزب الديموقراطي في منطقة بهدينان تبعد عن الحدود الإيرانية مسافة غير قليلة. هذا في حين كان طالباني الذي إنتشر مقاتلوه في الأراضي المتاخمة للحدود مع إيران، يخوض مفاوضات سرية مع بغداد بوساطة مباشرة من زعيم الحزب الديموقراطي الكُردستاني الإيراني عبدالرحمن قاسملو.

جرت المرحلة السرّية من هذه المفاوضات في الفترة التي كان فيها طالباني مستقراً في منطقة (ناوزنك) المتاخمة للحدود العراقية الإيرانية. أما المرحلة العلنية منها فقد جرت بعد إنتقاله الى قريتي باليسان وَختي في وادي خوشناوتي. وكانت خطوته الأولى على طريق إعلانه مفاوضاته، كما سبق القول، قيامه بزيارة بغداد.

بعد إحراز الإيرانيين إنتصاراً في هجمتهم العسكرية في حاج عمران، زار صدام حسين منطقة رواندوز للإشراف على شن هجوم مضاد بهدف إخراج القوات الإيرانية من الجبال المحتلة في المنطقة. وأقرّ في خطاب ألقاه عبر التلفزيون العراقي بإنتصار عسكري إيراني في جبهة حاجي عمران، لكنه أرجع السبب في إنتصار الإيرانيين الى ما سمّاه بتعاون البارزانيين مع الحكومة الإيرانية، متوعداً بالإنتقام. وفي تطبيق عاجل لوعيده، طوقت قوات الحرس الجمهوري العراقي صبيحة يوم الثلاثين من تموز ١٩٨٣ معسكرين للبارزانيين المهجّرين في ناحية قوشتپه، خمسة عشر كيلومتراً الى جنوب أربيل، وقصبة ديانا[٢٠٠] ثمانين كيلومتراً الى شمال أربيل. وكانت السلطات العراقية أسكنت العوائل البارزانية في المعسكرين (أو ما أطلقت عليه في حينه القرى العصرية) بعد إعادتهم في ١٩٧٨ من منافي الجنوب. وكان بين سكنة المعسكرين نحو أربعين من أقارب إدريس ومسعود منهم شقيقهما صابر (١٩٤٧-١٩٨٣) وإبن عمهما الشيخ عثمان بارزاني.

(٢٠٠) حالياً محافظة سوران على طريق هاملتون شمال أربيل.

بعد عملية التطويق دخلت القوات العراقية المدججة بمختلف أنواع الأسلحة الى المعسكرين وإعتقلت جميع البارزانيين من عمر ١٢ عاماً الى ٨٠ عاماً. وقد بلغ مجموع المعتقلين الذين طافت بهم السلطات العراقية شوارع بغداد على أنهم (أسرى إيرانيون) أكثر من ثمانية آلاف بارزاني ضاعت آثارهم الى اليوم[٢٠١].

وفي مأساة بارزانية أخرى، قصفت الطائرات الحربية العراقية في التاسع من حزيران من العام نفسه معسكر زيوه الذي سكنه لاجئون بارزانيون في غرب مدينة أورمية الإيرانية المتاخمة للحدود مع العراق. وقد أدت عمليات القصف هذه الى مقتل ١٢٢ شخصاً وإصابة ٣٧٢ آخرين بجروح كانت إصابات أكثرهم بليغة.

وعلى رغم محاولات عدة قامت بها منظمات عالمية لمعرفة مصير البارزانيين الذين إعتقلتهم السلطات العراقية في حملة جماعية، واصلت بغداد صمتها تجاه إعلان مصيرهم، عدا عن إشارات مبعثرة من مسؤولين عراقيين أنهم لم يعودوا أحياء.

في هذا الخضم، لم تفض مفاوضات طالباني مع بغداد، بعد عام كامل من المحاولات والزيارات المتبادلة الى أية نتيجة. بل على العكس سرعان ما عاد القتال في شباط ١٩٨٥ على أشده بين الطرفين على رغم إستمرار قاسملو في وساطته.

ما يجدر ذكره، أن كثيراً من المهتمين بالشأن الكُردي ذهبوا الى القول إن أنقرة مارست ضغوطاً على بغداد لمنع توقيع إتفاق مع طالباني، وذلك عند زيارة وزير الخارجية التركي الى العاصمة العراقية قبل ثلاثة أيام من موعد التوقيع[٢٠٢]. لكن الأرجح أن الضغط التركي لم يكن في حقيقته سوى العامل الثاني مقارنة بالعامل الأول المتمثل في نجاح بغداد في ذلك العام في

(٢٠١) لمزيد من التفاصيل أنظر: What Has Happened to them? Report by: A Pre-paratory Committee, London, November 1987.

(٢٠٢) أنظر في هذا الخصوص كتب جوناثان راندل وديفد ماكداول.

إنتاج كميات كبيرة من الأسلحة الكيمياوية الفاعلة. وكانت القوات العراقية بدأت بإستخدام الأنواع الأولية من هذا السلاح على نطاق ضيق ضد القوات الإيرانية في صيف ١٩٨٣. لكن في صيف ١٩٨٤ إتجه الى إستخدام أنواع متطورة منها ضد الإيرانيين.

أدى إمتلاك بغداد لهذا السلاح المدمر، إضافة الى الصواريخ الباليستية والآلة الجوية القادرة على الوصول الى الجزر الإيرانية في الخليج[٢٠٣]، أدى في مجمله الى تخلخل واضح في موازين القوى لصالح بغداد ضد طهران. وكان من شأن هذا التخلخل الذي ترافق مع دعم أميركي وخليجي واسع، أن يشجّع بغداد على الإبتعاد عن أي إتفاق جدي مع حزب كُردي لم يعُد يمثل ورقة مربحة في حسابات الحرب العراقية الإيرانية.

أما العامل التركي، فإنه كان موجوداً نظراً لمعارضة الأتراك التاريخية لأي إتفاق تعقده أية حكومة مجاورة مع الكُرد، وذلك خوفاً من تأثيرات مثل هذا الإتفاق على الشريحة الكُردية في تركيا. لكن مع هذا، كان عامل الضغط التركي في تلك الفترة عاملاً ثانوياً مقارنة بعامل الآلة الحربية التي أصبحت القوات العراقية تتمتع بها. وكانت أنقرة توصلت الى إتفاقية ثنائية مع بغداد في ١٩٧٨ لم تعلن في حينها تسمح للطرفين بالتوغل لعشرة كيلومترات داخل حدود بعضهما البعض لملاحقة المعارضين. لكن بعد زيارة قام بها وزير الخارجية العراقي، آنذاك، طارق عزيز الى أنقرة تم توسيع رقعة التدخل الى خمسة وعشرين كيلومتراً وجرى الإعلان عن الصيغة المعدلة للإتفاقية الأمنية بين البلدين في تشرين الأول ١٩٨٤.

جولة أخرى من العلاقات المتناقضة

على إثر فشل المفاوضات، أخذ طالباني يتلمس طريقاً لإعادة تحالفاته ومدّ جسوره، إقليمياً مع إيران، وداخلياً مع أحزاب جبهة (جود) وفي مقدمها

(٢٠٣) شنّت الطائرات العراقية أكبر غاراتها الجوية في آب ١٩٨٥ ضد المنشآت النفطية الإيرانية في جزيرة خرج قرب مضيق هرمز. وكان هذا التطور في حد ذاته تحولاً لافتاً في مسار العمليات الحربية بين الدولتين.

الحزب الديموقراطي الكُردستاني. وكانت إيران تبحث في هذه الفترة في مد نفوذها الى داخل كُردستان العراق لإعتبارات تعلقت بموازين الحرب مع إيران.

في هذا الإطار أوفد طالباني في تشرين الأول ١٩٨٤ عضو مكتبه السياسي الدكتور فؤاد معصوم سراً الى إيران لمعرفة موقفها ومدى إستعدادها للتعاون مع حركته في حال فشل المفاوضات مع بغداد. كذلك أوفد في الوقت ذاته ثلاثة من أعضاء إتحاد أدباء كُردستان (الشاعر شيركو بيكس والفنان فريدون دارتاش وكاتب هذه السطور) الى قرية بارزان للقاء قيادات أحزاب جبهة جود ومعرفة درجة إستعدادها للتصالح معه في حال فشل المفاوضات.

في إيران إلتقى معصوم المسؤول السابق عن ملف العلاقات مع جماعات المعارضة العراقية في مجلس الأمن الإيراني آغا محمدي. أما الوفد الأدبي فقد إلتقى في بارزان يوسف القس حنا (أبو حكمت) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، آنذاك، الذي تولى نقل الرسالة التي حملها الوفد الى بقية أطراف جبهة جود.

لكن الطرفين، الإيراني والكُردي العراقي، رفضا البحث في أي صلح مع طالباني قبل وقف علاقاته ومفاوضاته مع بغداد. وكانت الخشية السائدة أنه يريد إستخدام ورقة الاتصالات مع الإيرانيين وأحزاب جود في إتجاه الحصول من بغداد على أكبر قدر من التنازلات.

دامت إتصالات طالباني المتناقضة مع جميع الاطراف ما يقرب من عام. ففي كانون الأول من العام نفسه وجه وفداً حزبياً للإتصال مع الشيوعيين في شرق السليمانية. كما وجّه أحد مبعوثيه، دلير سيد مجيد، الى طهران لإعادة الاتصال مع الإيرانيين. في الوقت عينه استقبل في قرية (مرگه) في أطراف قلعة دزه وفداً حكومياً برئاسة عضو القيادة القطرية لحزب البعث الحاكم المرحوم سعدي مهدي صالح.

هذه الإتصالات المتناقضة عبّرت عن عمق الازمة السياسية التي عاشها الإتحاد الوطني الكُردستاني في تلك الحقبة. وكان طالباني يحاول جهده إيجاد طريق للخروج من العزلة السياسية التي أصبح يعانيها نتيجة إنهيار مفاوضاته مع الحكومة العراقية.

لكن المشكلة أن إنعكاسات هذه الحالة لم تقتصر على حزبه، بل شملت ايضاً مجمل مساحات الحركة القومية الكُردية. لهذا رأت الزعامة البارزانية أن إنقاذ طالباني من ورطته السياسية يمكن أن يجنّب الحركة القومية الكُردية من إحدى أخطر أزماتها الداخلية.

لهذا لم يعترض الحزب الديموقراطي الكُردستاني على تجاوب أطراف في جبهة جود مع محاولة طالباني مدّ جسور التصالح معها. بل أن إدريس ومسعود فضّلا إستمرار بقية الأطراف في الإتصال مع طالباني وحضّه على التخلي النهائي عن خيار التطلع الى مفاوضات غير مجدية مع النظام العراقي. وكان الحزب الشيوعي العراقي والحزب الاشتراكي الكُردستاني شرعا في ١٩٨٥ تحت ضغط حاجتهما المالية في التحاور مع الإتحاد الوطني.

الى ذلك، قد يصح القول إن الزعامة البارزانية شعرت من ناحيتها أن الوقت حان لبناء فضاء كُردي متصالح. فالعراق بدأ يوغل في تلك الفترة في سياسة تدمير القرى الكُردية وقمع أي تطلع قومي سياسي. أما طهران فإنها أخذت بممارسة الضغوط على الزعامة الكُردية بهدف جرّها الى تنسيق سياسي وعسكري ضد العراق.

وفي هذا الخصوص يذكر الباحث البريطاني الهندي الأصل، ديليب هيرو، في كتاب أصدره في مطلع التسعينات عن الحرب العراقية الإيرانية، أن الحزب الديموقراطي الكُردستاني رفض في ١٩٨٥ طلباً إيرانياً لشن هجمات مشتركة على مواقع عراقية، مفضلاً الإستمرار في نهجه المتعلق بحرب عصابات بالإعتماد على إمكاناته الذاتية[٢٠٤]. والأرجح أن تجربة ١٩٧٤ في خصوص العلاقة التحالفية مع إيران كانت ماثلة في ذهن الزعماء البارزانيين.

في منتصف شباط ١٩٨٥ إنهارت المفاوضات بين بغداد وطالباني بعد هجوم عسكري مفاجيء شنّته قوات الأخير على مواقع للجيش العراقي قرب سد دوكان الاستراتيجي. وكان الهجوم في حقيقته بمثابة رسالة سياسية أراد منها طالباني تطمين إيران وأحزاب جبهة جود بأنه جاد في تخليه عن خيار

(٢٠٤) Hiro, Dilip: The Longest War, The Iran Iraq military conflict, Paladin, London 1990, p150.

الاستمرار في التفاوض مع الحكومة العراقية.

لهذا تلقفت الأحزاب الكُردية، وإيران ايضاً، موقف طالباني بترحاب مشوب بالحذر. لاحقاً لم تمانع الجهتان في فتح إتصالات جانبية معه بهدف مقايسة درجة جديّته. وفي تمهيد لافت لأجواء التصالح ونجاح الحوارات صرّح احد مسؤولي الحزب الديموقراطي الكُردستاني لصحيفة تركية في ١٩٨٦ بأن حالة العداء بين حزبه وحزب طالباني إنتهت لكون الأخير عاد الى مقاومة مخططات الحكومة العراقية[٢٠٥]. وكان إدريس بدأ يتحدث عن ضرورة تأسيس جبهة كُردستانية عراقية منذ تموز عام ١٩٨٥[٢٠٦].

في ما بعد، أكد فرنسو حريري، وكان أحد كبار مساعدي إدريس، أن سبب حماس الأخير لإعادة ضمّ طالباني الى صفوف الحركة الكُردية، رجع الى رغبته في عدم إجبار غريمه على العودة الى التفاوض مع بغداد والرضى بشروط تفاوضية مجحفة. فالرضى بمثل هذه الشروط قد لايؤدي في نهاية المطاف سوى الى تعميق شرخ الصراعات الداخلية وإلحاق أذى كبير بالحركة القومية الكُردية برمتها.

لكن الواضح أن إدريس كان مدركاً، في الوقت ذاته، لتعقيدات العلاقة بين حزبه وطالباني إن في الستينات أو السبعينات والثمانينات. لهذا بدا حذراً في تعامله مع التطور الجديد على رغم إصراره على ضرورة بناء تصالح أهلي جديد في إطار الحركة القومية الكُردية.

في هذا الوقت، كانت طهران تفكر في شكل جدي في تخفيف الضغط الحربي العراقي على جبهتها الجنوبية عن طريق تحريك الجبهة الشمالية. لهذا رأت القيادة الإيرانية أن من الممكن إحداث ثغرة استراتيجية في الجدار العراقي في منطقة السليمانية عبر التعاون مع طالباني. هكذا زار الأخير العاصمة الإيرانية في مطلع تشرين الثاني عام ١٩٨٦ بهدف التشاور وبحث التنسيق الميداني. في الوقت عينه زار إدريس طهران بناءً على دعوة من رئيس مجلس النواب، آنذاك، علي أكبر هاشمي رفسنجاني. وكان طالباني

(٢٠٥) صحيفة ترجمان التركية – ١٠ تشرين الاول ١٩٨٦ – الصفحة ٧.
(٢٠٦) أنظر مجلة ماموستاي كورد، العدد ٤–٥، ١٩٨٧.

فاتح الإيرانيين برغبته في عقد لقاء مع إدريس ومسعود لتوقيع إتفاق مصالحة مع الحزب الديموقراطي الكُردستاني[٢٠٧].

أجرى طالباني في هذه الزيارة محادثات منفردة مع المسؤولين الإيرانيين وتوصل معهم الى إتفاق سري للتنسيق والعمليات العسكرية المشتركة داخل كُردستان العراق. كما أنه عقد يومي السابع والثامن من تشرين الثاني إجتماعاً مع إدريس للتباحث في خطوات المصالحة الثنائية بين الحزبين. وبالفعل أسفر الإجتماع في اليوم الثاني عن توقيع إتفاق للمصالحة. أما في شأن الضغوط الإيرانية، فيعتبر حريري الذي كان ضمن حلقة القرار في الحزب الديموقراطي الكُردستاني في تلك الفترة، في المقابلة نفسها، أن الإيرانيين لم يمارسوا أية ضغوط على إدريس في شأن المصالحة مع طالباني، لسبب بسيط أنهم لم يرغبوا في مصالحة تمهد لجبهة كُردستانية كما كان يريد إدريس.

بعد عودة طالباني من طهران، حضّ إدريس قيادة حزبه على ضرورة زيارة وفد من المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الى منطقة (جافتي)، شمال شرقي السليمانية، التي كانت تضم مقر قيادة الإتحاد الوطني. وبالفعل وصل وفد ضمّ عدداً من قياديي الديموقراطي بينهم فاضل ميراني[٢٠٨] وفرنسو حريري، وبرفقة أعضاء بارزين في قيادة الحزب الشيوعي العراقي الى قرية (ياخسمر) في نهاية تشرين الثاني من العام نفسه، حيث أجرى محادثات مثمرة مع الطرف الآخر لتطوير أجواء المصالحة القومية الكُردية التي هندسها ورعاها إدريس.

إستطراداً، تميز إجتماع طهران بين إدريس ورفسنجاني وطالباني بتناقض أغراض المشاركين فيه. فرفسنجاني كان يتطلع الى مصالحة كُردية تساعده في توسيع رقعة الحرب العراقية الإيرانية الى الجبهة الشمالية بهدف تشتيت القوات العراقية. هذا في حين كان طالباني يريد كسر عزلته السياسية وإقناع الإيرانيين بأنه مستعد للتعاون معهم الى أقصى حدود التعاون العسكري والسياسي. أما إدريس الذي بدا حريصاً على الخروج بنتيجة مثمرة من

(٢٠٧) فرنسو حريري: مقابلة مع صحيفة برايەتى، العدد ٢٢٦٦.

(٢٠٨) يعمل حالياً وزيراً للداخلية في حكومة إقليم كُردستان العراق، وهو عضو في المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني.

الإجتماع فوافق على توقيع إتفاق المصالحة على أن يجري تطوير هذا الإتفاق على أساسين إثنين:

الأول: مفاده العمل من أجل تحويل المصالحة بين الحزبين الى قاعدة لبناء جبهة كُردستانية عراقية عريضة.

والثاني: مفاده العمل من أجل تحويل الجبهة الكُردستانية المنتظرة الى قاعدة لبناء جبهة عراقية شاملة تتولى مهمة مواجهة السلطة المركزية العراقية على أساس إطاحتها وإقامة عراق ديموقراطي.

في الحقيقة كان إدريس، كأسلافه من الزعماء البارزانيين، يتمتع بحسّ سياسي مترو وهاديء وواقعي. وكان يدرك أن القضية الكُردية التي تحكمها في العراق جملة عوامل جيوسياسية معقدة يستحيل حلها إلا في إطار عراقي وعبر تفاهم عربي-كُردي مشترك. لهذا ركّز على ضرورة بناء علاقات تحالفية متينة مع الأحزاب العراقية المعارضة. كما أنه شدد على ضرورة الحفاظ على الشعار الرئيسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني الذي يربط بين حصول الكُرد على حقوقهم القومية وقيام عراق ديموقراطي تعددي.

في هذا الإطار، تميز بعلاقات وطيدة مع التكوينات الاثنية والدينية في كُردستان العراق، خصوصاً الآشوريين والعرب والتركمان إن في سنوات إنتفاضة أيلول ١٩٦١ أو في الإنتفاضة الجديدة التي أعقبت نكسة ١٩٧٥.

والواقع أنه لعب دوراً رئيسياً في مؤتمر نصرة الشعب العراقي الذي عقدته أحزاب المعارضة الإسلامية العراقية في طهران في أواخر كانون الأول ١٩٨٦ حيث أكد في كلمته ونشاطاته في هذا المؤتمر على ضرورة التركيز على إطاحة النظام القائم في العراق وبناء عراق مستقبلي ديموقراطي وتعددي[٢٠٩]. وكان المؤتمر الذي نظّمه الإيرانيون بالتعاون مع المعارضة العراقية، يهدف الى حشد أحزاب المعارضة العراقية حول برنامج موحد هدفه إطاحة الحكم في بغداد وإقامة نظام تعددي ديموقراطي[٢١٠].

(٢٠٩) كلمة إدريس بارزاني في مؤتمر نصرة الشعب العراقي، كتاب فرنسو حريري: لكي لايكتب التاريخ محرفاً.

(٢١٠) عقد مؤتمر نصرة الشعب العراقي في طهران في كانون الأول ١٩٨٦ وشارك فيه أربعمائة مندوب من مختلف جماعات المعارضة العراقية.

في الفترة التي كان فيها إدريس منهمكاً في ترتيب الوضع الداخلي الكُردي على أسس من المصالحة، كان شقيقه مسعود يقوم منذ صيف ١٩٨٦ بجولة في مناطق كُردستان العراق. والواقع أن هذه الجولة إستمرت نحو عام حيث عاد في صيف ١٩٨٧ الى مقر قيادته قرب الحدود العراقية الإيرانية. وكان لوجوده بين مقاتليه في تلك الفترة العصيبة دور أساسي في الإشراف على عدد من المعارك الكبيرة التي خاضتها قوات الحزب الديموقراطي الكُردستاني مع القوات العراقية في وادي خواكورك ومنطقة بهدينان في صيف ١٩٨٧، والحدّ من التأثيرات النفسية لوفاة إدريس على مقاتليه. إضافة الى قيامه بدور أساسي في تنقية الأجواء النفسية بين مقاتليه وتوفير مستلزمات التعاون السياسي والعسكري لتطبيق إتفاق المصالحة الذي أنجزه إدريس بهدف تحويله الى جبهة كُردستانية.

لكن التطور المأساوي الكبير، في هذا الشطر الزمني الحساس، أنه في مساء الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٨٧ توقف قلب إدريس من الخفقان نتيجة سكتة قلبية مفاجئة في منزله في قرية سليفاني. وكان عاد لتوه من زيارة عمل الى طهران إلتقى خلالها بجلال طالباني ووقّع معه بحضور رفسنجاني إتفاقاً للتصالح، آملاً في أن يشكل هذا الإتفاق اساساً لتطويره الى جبهة كُردستانية عراقية. وعلى رغم أن الزعامة الجماعية التي أسهم إدريس في حياته في بنائها إستطاعت أن تديم زخم البارزانيين في الحركة القومية الكُردية من دون أن يؤدي غيابه الى إختلال في مسار تلك الحركة، إلا أن غيابه المفاجيء، في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الكُرد، كان في حقيقته خسارة فادحة شعر بآلامها كل الكُرد في إيران والعراق وأوروبا والولايات المتحدة. بل أن موته شكّل رنة حزن عميقة في نفوس الكُرد جميعهم بمن فيهم أعداءه كما كانت حالهم عند سماعهم خبر إعدام الشيخ عبدالسلام الثاني في الموصل في ١٩١٤.

واصل مسعود جهود بناء الجبهة الكُردستانية. إذ بادر الى دعوة الأحزاب الكُردستانية الى أول إجتماع خاص بتأسيس الجهة في ١٧ تموز ١٩٨٧ في مقر المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني في قرية راژان. وبعد مداولات وإجتماعات عدة أُعلنت الجبهة في أيار ١٩٨٨ حيث تولى مسعود

بارزاني رئاستها الفعلية في داخل كُردستان العراق. أما طالباني فقاد نشاطاتها الديبلوماسية في الخارج.

وكانت الجبهة بمثابة الأداة الرئيسية التي دخل بها كُرد العراق مرحلة تحديات جديدة وخطيرة في مطلع التسعينات. وقد ضمت الجبهة التي تعتبر في حقيقتها إحدى ثمرات جهود إدريس، في أول إعلانها، الى الحزبين الرئيسيين، ستة أحزاب أخرى هي:

الحزب الاشتراكي الكُردستاني بقيادة رسول مامند، حزب الشعب الديموقراطي الكُردستاني بقيادة سامي عبدالرحمن، والحزب الاشتراكي الكُردي بقيادة المرحوم آزاد مصطفى، وفرع إقليم كُردستان للحزب الشيوعي العراقي[٢١١]*، والحركة الآشورية الديموقراطية، وأخيراً حزب كادحي كُردستان بقيادة قادر عزيز.*

والواقع أن الجبهة الكُردستانية استطاعت أن تلعب دوراً رئيساً في تنشيط الحركة القومية الكُردية وتنسيق فاعلياتها القتالية والسياسية في مقطع معقد من مقاطع التاريخ الكُردي بين عامي ١٩٨٨-١٩٩٠ وكانت المعارك المشتركة التي قادتها الأحزاب الكُردية في تلك الفترة، خصوصاً في أطراف حلبجة قبل قصفها بالأسلحة الكيمياوية في ١٦ آذار ١٩٨٨، صفحة لافتة من تاريخ هذه الجبهة.

إدريس في عيون مرافقيه

يتفق جميع من رافق إدريس في تجربته السياسية طوال أيام عمله السياسي والعسكري الأول في إنتفاضة أيلول، أنه كان نموذجاً رائعاً في أخلاقه وسلوكه السياسي وتفكيره وحرصه على السلم الأهلي ونظرته التعددية، إضافة الى شجاعته وحرصه على الإستماع الى رأي الآخرين.

شوكت شيخ يزدين[٢١٢] يلفت في مقال كتبه عن إدريس الى أن الأخير عمل بروح إبداعية خلّاقة ووثابة من أجل إعادة إطلاق شرارة الإنتفاضة

(٢١١) تحول في ما بعد الى الحزب الشيوعي الكُردستاني.
(٢١٢) برايەتى، العدد نفسه. شوكت شيخ يزدين وزير ديوان مجلس الوزراء في حكومة إقليم كُردستان العراق.

المسلحة في أعقاب نكسة ١٩٧٥، مضيفاً أن هذه النكسة ضاعفت من شعوره بالمسؤولية، وحرصه على التصرف كمسؤول عن وقوعها[٢١٣].

يشدد يزدين في مقاله على الكفاءة الديبلوماسية التي تمتع بها إدريس. ويشير الى علاقاته الطيبة مع الأحزاب والقوى السياسية الكُردية والعراقية والأجنبية، مؤكداً أن الصفاء السياسي الذي تمتع به كان يجعله على الدوام موضع ثقة الآخرين. كما يلفت الى نظرته الواسعة وحرصه على التعامل مع الناس لا من منطلق قائد حزبي، إنما من منطلق زعيم كُردي مسؤول عن الجميع على مختلف مشاربهم الفكرية والسياسية.

هذا في حين يشدد خورشيد شيره الذي تولى إدارة مكتب سكرتاريته اعتباراً من عام ١٩٧٨ على أن إدريس كان قائداً ذا حسّ مرهف، حريصاً على معالجة مشاكل الناس، ومدركاً لعظم المسؤولية التي يحملها على عاتقه. ويضيف شيره في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة برايەتى[٢١٤] أنه كان يجسد في شخصيته صفات والده الراحل مصطفى بارزاني، من بينها احتفاظه برباطة جأشه في أوقات الشدّة.

أما نادر هورامي فيؤكد في مقابلته مع صحيفة برايەتى أن إدريس إضطلع بدور اساسي في إنتفاضة أيلول ١٩٦١، وكان مع شقيقه مسعود من أهم مساعدي بارزاني الأب في الميادين السياسية والعسكرية والإدارية، مضيفاً أن العبء الأكبر في مفاوضات عام ١٩٧٠ تحمله إدريس.

هورامي الذي رافق إدريس سنوات طويلة، يوضح أن إدريس تمتع بشخصية صلبة وصبورة، وبعقل نيّر وقدرة كبيرة على حل المشكلات، مشيراً الى أنه لم يكن يملّ أو يتعب من أداء مهامه. وأن من كان يلتقي به ويتحدث معه كان يزداد حماساً وتفاؤلاً بمستقبل القضية الكُردية[٢١٥]. هورامي الذي إضطلع بدور ميداني كبير في إنتفاضتي أيلول ١٩٦١ وآيار ١٩٧٦ يعتبر أن إدريس

(٢١٣) شيخ يزدين، شوكت: لنستفد من التجارب الغنية لإدريس بارزاني، مقال تحليلي لتجربة إدريس السياسية، صحيفة برايەتى، العدد ٢٢٦٦ في ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٧.
(٢١٤) صحيفة برايەتى اليومية الصادرة في أربيل في عددها ٢٢٦٦ في ١٩٩٧/١/٣٠
(٢١٥) الصحيفة نفسها، مقابلة هورامي.

كان المفتاح الرئيسي في إنطلاق الإنتفاضة الأخيرة.

أما عزت سليمان بك، وهو أحد القادة الميدانيين الذين شاركوا بشجاعة في معركة هندرين، فيشير الى ان جميع المقاتلين الكُرد في جبهة هندرين أحسوا بفرحة غامرة وحماس متزايد عندما عرفوا بأن القيادة قررت تعيين إدريس قائداً عاماً لمعركة هندرين[٢١٦].

أما حميد أفندي الذي عرفه منذ ١٩٦٣ فيقول بأن الكُرد كانوا يتحلقون حول إدريس أينما حل، ويرون فيه ملاذاً للشكوى ومجدداً لآمالهم، مشيراً الى أن إدريس لم يقتصر في نجاحه على صعيد الأعمال العسكرية والسياسية فحسب، بل كان قدوة في نجاحه الإجتماعي وعلاقاته السلسة مع الكُرد[٢١٧].

الى ذلك، نشر آخرون رأيهم في التجربة السياسية لإدريس بارزاني ورؤيتهم لطريقة إدارته الزعامة البارزانية. فاضل ميراني[٢١٨] يشدد على أن إدريس لم يكن يعمل إنطلاقاً من مفاهيم عائلية أو حزبية، إنما كان جلّ تركيزه على قضية شعب بأكمله، مشيراً الى أن إدريس كان يحظى بإحترام وعلاقات متينة داخل حزبه وبين بقية الأحزاب وفي وسط الشعب الكُردي، وأنه كان يستغل علاقاته الطيبة في الميادين الثلاثة من اجل قضية شعبه وقضية كُردستان في شكل عام.

ويضيف ميراني أن إدريس لم يتمتع بعلاقات طيبة مع شعبه في كُردستان العراق فحسب، إنما ربطته علاقات سياسية مع الكُرد في إيران وتركيا وسورية. وأنه إستثمر هذه العلاقات من أجل تأمين شروط العمل القومي والسياسي أمام إنتفاضة ٢٦ آيار.

وفي مقابلة مع برايەتى يؤكد عارف طيفور[٢١٩]، وهو أحد قادة الحزب الديموقراطي الكُردستاني أن إدريس كان معروفاً بشجاعته في مواجهة

(٢١٦) عزت سليمان بك: مقابلة صحافية مع صحيفة برايەتى، العدد ٢٢٦٦ في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٧.
(٢١٧) حميد أفندي: مقابلة في العدد نفسه من صحيفة برايەتى.
(٢١٨) فاضل ميراني: مقابلة في العدد نفسه من صحيفة برايەتى.
(٢١٩) عارف طيفور: مقابلة في العدد نفسه من صحيفة برايەتى.

الصعاب، وحرصه على إبعاد نفسه عن أطواق النظرة الحزبية الضيقة، مفضلاً أن تشمل مساعدته كل الأطراف الكُردية والحزبية وجماعات المعارضة العراقية.

الى ذلك، يشير يونس روژبياني[٢٢٠]، وهو أحد الكوادر العسكرية التي عملت تحت أمرة إدريس منذ عام ١٩٧٤ الى حين وفاته، يشير الى أن إدريس تمتع بعلاقات وطيدة مع الأقليات القومية والدينية والمذهبية في المجتمع الكُردي. كما أنه كان نصيراً قوياً لجماعات المعارضة العراقية والأخوة العربية الكُردية.

أما فرنسو حريري[٢٢١] الذي رافقه عن قرب منذ ١٩٦٣ فيؤكد أن جميع الذين عملوا مع إدريس منذ شبابه الأول يعرفون أنه كان يتمتع بعقل راجح أكبر من سنّه. وأن أساتذته في مراحل دراسته الإبتدائية والثانوية في المدن العربية من العراق كان يعجبون بذكائه وتفوقه العقلي، ما كان يدعوهم الى التعامل معه بإحترام خاص.

يؤكد حريري أن إدريس كان شجاعاً في إتخاذ القرارات وجريئاً في مواجهتها والعمل بموجبها، مضيفاً أن هذه الصلابة والشجاعة في إتخاذ القرارات لم تكن تنعكس سلباً على علاقاته مع الآخرين، بل على العكس أشتهر إدريس بحبه للآخرين وإحترامهم ومحاولة حلّ مشاكلهم بكل السبل القانونية.

وفي إشارته الى إحدى أهم صفاته القيادية، يشير حريري الى ان إدريس لم يكن يتخوف من تحمل المسؤوليات، إنما كان يعمل بجد وحماس من أجل إكمال المهمات والأعمال الملقاة على عاتقه. وكان في ذلك ذا نفس طويل وصبر لاينفذ. وفي إشارة أخرى الى خصاله يلفت حريري الى ان إدريس جاهر أكثر من الآخرين بمسؤوليته عن نكسة آذار ١٩٧٥، وأبدى أكثر من الآخرين روحاً تواقة لمساعدة اللاجئين وحلّ مشكلاتهم وتوفير ضمانات الأمن والحياة الكريمة لهم في المنافي.

(٢٢٠) الصحيفة نفسها.
(٢٢١) فرنسو حريري: مقابلة في العدد نفسه من صحيفة برايەتى.

لهذا كلّه، نجد أن الدور القيادي الذي لعبه إدريس ضمن مثلث الزعامة البارزانية لم يكن مجرد مسؤولية وراثية أراد إيفاءها في شكل تام. إنما كان في حقيقته إجتماعاً لكفاءات ومؤهلات شخصية، وقدرة ثاقبة على إستقرار السياسة وتطوراتها، إضافة الى سلوكية فكرية وسياسية وشخصية هادئة إستمدت حرارتها وشروطها من تاريخ حافل للبارزانيين في قيادة الحركة القومية الكُردية.

الى ذلك لم يكن إدريس حدثاً عابراً في الزعامة الكُردية، إنما كان زعيماً حاضراً في كل أحداث شعبه، الكبيرة منها والصغيرة، السارة منها وغير السارة، السياسية منها والعسكرية، والداخلية منها والدولية. والواقع أن الذين رافقوه وعايشوه في مراحل مختلفة من حياته تألموا لغيابه المفاجيء ألماً عميقاً لأنهم فقدوا في غياب إدريس نموذجاً حيوياً صادقاً ونشطاً من نماذج الزعامة البارزانية التي يعتبرها الكُرد بمثابة مرجعيتهم السياسية ويفخرون بها بين جيرانهم من شعوب الشرق الأوسط ودولها.

خلاصة عامة

في خلاصة إجمالية لتجربة إدريس بارزاني السياسية والمسارات الصعبة لحياته يمكن إستنباط جملة إشارات الى طبيعة الزعامة البارزانية في الحركة القومية الكُردية طوال القرن الأخير الذي طغت زعامة البارزانيين على مشهده السياسي الكُردي.

أولى هذه الإشارات أن الزعامة البارزانية بين الكُرد تميزت بجذور تاريخية إمتدت على مدى أكثر من قرن. وأن هذه التاريخية أعطت قوة مضافة الى الزعامة البارزانية بحيث جعلتها عصيّة على الإستئصال وقابلة للنمو والإنبعاث كلما واجهتها الصعاب.

والواقع أن البارزانيين واجهوا بالفعل عدداً من الضغوط لشطب دورهم في السياسة الكُردية. وإذ كان جزء من هذه الضغوط داخلياً نبع من أوساط كُردية محدودة لم تحز، كما البارزانيون، على خلفية تاريخية عريقة، وإلتبست عليها قراءة الطبيعة الإجتماعية والسياسية للمجتمع الكُردي، فإن الجزء الأكبر من تلك الضغوط نبع من مواقف الدول المهيمنة على كُردستان. والواضح أن هذه الدول والأنظمة إعتقدت أن القضاء على زعامة البارزانيين يعني في جوهره القضاء على الحركة القومية الكُردية برمتها.

الإشارة الثانية، أن زعامة البارزانيين تميزت بقدرتها الكبيرة على التجدد والتواصل والديمومة. وإذا كانت هذه الزعامة في نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين تقوم على مزيج من الدعوات الصوفية والقومية، كما كان الحال في مشيخة الشيخ عبدالسلام الأول والشيخ محمد بارزاني، فإنها سرعان ما استطاعت أن تتكيف مع التطورات الحاصلة على الأصعدة السياسية والإجتماعية والثقافية لا في المجتمع الكُردي فحسب، بل في العالم والشرق الأوسط أيضاً. وإذا كان الشيخ عبدالسلام الأول وبعده الشيخ أحمد بارزاني نموذجين واضحين في هذا الخصوص، فإن بروز مصطفى بارزاني بتجربته السياسية الهائلة أشّر الى نموذج حيوي مبدع في هذا الإتجاه. في فترة لاحقة أفضت قدرة التواصل والديمومة في الزعامة البارزانية الى نشوء أجيال

من الزعماء البارزانيين الذين يتمتعون بحس سياسي متناغم مع تطورات السياسة وإتجاهاتها الجديدة من تيارات الديموقراطية والتعددية والإنفتاح الى مباديء السوق الحرة وإدارة الكيانات الحديثة.

والإشارة الثالثة أن البارزانيين لم يكتفوا بقيادة السفينة الكُردية على صعيد القتال والسياسة فحسب، بل إستطاعوا أن يعطوا الحركة القومية الكُردية بعداً ثقافياً هائلاً لجهة مضامين عميقة من التسامح والتعددية والعقلانية والهدوء في التفكير السياسي والحرص على مقايسة المواقف السياسية بمعايير أخلاقية. واللافت أن الجزء الرئيسي من الحركة الكُردية لايزال يشتهر بين الحركات القومية في الشرق الأوسط بهذه الميزة التي يعود الفضل في ترسيخها الى الزعامة البارزانية.

في كل ذلك، لعب شيوخ بارزان دوراً كبيراً. كما لعب مصطفى بارزاني دوراً لايزال الجميع يلفظ بأهميته وحيويته وتاريخيته. لكن جيل البارزانيين اللاحق، وفي مقدمهم المرحوم إدريس بارزاني، وشقيقه الزعيم الكُردي الحالي مسعود بارزاني، لعب بدوره دوراً لابد من دراسته وتسليط الضوء على تفاصيله. فإدريس كما مسعود، كما بارزاني الأب صنعوا ومازالوا يصنعون تاريخياً كُردياً صعباً في زمن أصعب ومكان أكثر صعوبة.

لهذا كلّه، يمكن القول أن تجربة إدريس تمثل صفحة حيوية وغنيّة من صفحات الحركة القومية الكُردية المعاصرة. بل أن جزءً لافتاً من مكاسب الكُرد في المرحلة الحالية، أي مرحلة ما بعد إنهيار نظام القطبية الثنائية، يعود الفضل فيه الى إدريس بارزاني ونظرته الثاقبة وأسلوبه الحيوي في إدارة السياسة الكُردية. هذا طبعاً بالإضافة الى الأولويات التي أرساها إدريس في ميادين إحترام التعددية السياسية والحزبية والثقافية.

هَژار موكرياني في مراسم إحياء ذكرى إدريس بارزاني

مراسم تشييع جثمان إدريس بارزاني
١٩٨٧/٢/١

مراسم تشييع جثمان إدريس بارزاني
١٩٨٧/٢/١

مراسم تشييع جثمان إدريس بارزاني
١٩٨٧/٢/١

مراسم تشييع جثمان إدريس بارزاني
١٩٨٧/٢/١

مراسم تشييع جثمان إدريس بارزاني
١٩٨٧/٢/١

إعادة رفات مصطفى بارزاني وإدريس بارزاني الى كردستان العراق
١٩٩٣/١٠/٣

فهرست الأعلام

أ

إبراهيم، طارق (العقيد الركن): ١٢٤

أتاتورك، مصطفى كمال: ٣٥، ٤٨، ٥٠

إحسان نوري باشا: ٥١، ٦٦

أحمد، إبراهيم: ٥٩، ٨٧، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١٤١

أحمد، كريم: ٣٨، ١٠٠، ١١٩، ١٢٠

أحمد، كمال مظهر: ٣٤، ٤٣، ٥٨، ١١١

أحمد، ميرحاج: ٧٨، ٨١

أدگار، تي. أي.: ٤٠

آستور، مايكل: ٢١، ٢٢

إسماعيل، د. خليل: ١٢٨

إسماعيل، زبير بلال: ٢٥، ٣٦، ٤٤، ٤٧، ٥٠

آغا محمدي: ١٦٤

أفندي، حميد: ١٧٢

أفندي، ملا سليم: ٤٣

أمين، تيلي: ٧٩

أمين، جلال: ٧٨

أندرانيك باشا (الأرمني): ٤١

أوين، روجر: ٥٢

إيگلتن، ويليام: ٢٨، ٧٩، ١٠٩

ب، پ

شيخ بابو، صادق: ٧٠

باجلان، رشيد (المحامي): ٦٩

بارزاني، الشيخ أحمد: ١٢، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٤، ٦٥، ٧٠، ٨٠، ٨٤، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١٧٥

بارزاني، إدريس: ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٦، ١٧، ٩٧، ٩٩، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦

بارزاني، صابر: ١٦١

بارزاني، الشيخ عبدالسلام الأول: ٢٨، ٣٠، ١٧٥

بارزاني، الشيخ عبدالسلام الثاني: ١٢، ١٧، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ١٦٩

بارزاني، عبيدالله: ٨٠، ١١٤

بارزاني، الشيخ عثمان: ١٦١

بارزاني، لقمان: ١١٤

بارزاني، الشيخ محمد: ٣٠، ٣١، ٣٦، ١٧٥

بارزاني، مسرور: ٥٥

بارزاني مسعود: ٧، ١٠، ١٨، ٢٥، ٢٨، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٥٤، ٧١، ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٨٢، ٨٦، ١١١، ١١٢، ١١٦، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧١، ١٧٦

بارزاني، مصطفى: ٧، ٩، ١٠، ١٢، ١٧، ٣٩، ٥٥، ٥٧، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠،

١٣٦، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٠، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦
بارزاني، نيچيرڤان: ١٨، ١٤٢
پاليس، ميشيل: ٧٧
بختيار، تيمور: ٨٦
بدرخان، عبدالرزاق: ٣٥
بدليسي، شرفخان: ٢١
برواري، آزاد: ١٤٣، ١٤٥
برواري، شعبان غفار: ١٤٣
برونسن، مارتن فان: ٣٥
بريفكاني، عبدالقادر: ٣٨
بريفكاني، محمد: ٥٨
پريماكوف، يفگيني: ١٢٤
البزاز، عبدالرحمن: ٩٣، ١٢٠، ١٢١
بزركان، مهدي: ١٥٣
بزمان، عيسى: ٨٧، ٩٢، ١٠١
البكر، أحمد حسن: ٩٧، ١٢٥
بن بلله، أحمد: ٩٠
بني صدر، أبو الحسن: ١٥٣
بهلوي، رضا خان: ٣٥، ٤٩، ٧٧
بهلوي: محمد رضا: ٧٧، ٨٥، ١٥٠
بوتاني، عبدالفتاح علي: ٣١
بوصلي، محمد خالد: ١٤٣
پيران، الشيخ سعيد: ٢٧، ٤٦، ٥٠، ٦٥
بيرش: ٢٤، ٢٥، ٣١، ٣٨

بيكس، شيركو: ١٦٤
بيل (الكولونيل): ٤٧
بيليرز، تيگلات الثالث: ٢٢

ت

تاج الدين، الشيخ: ٢٥، ٢٨
تسي تونگ، ماو: ٨١
التكريتي، سليم: ٣٠
توفيق، دارا: ١٢٥

ج، چ

چلبي، أحمد: ٩٨
جورج، الملك: ٣٧
چياووك، معروف: ٢١
الشيخ جلال، طاهر: ١١٣
جلال، نافذ: ١٢٥
جليل، جليلي: ٣٥

ح

حبيب، بدران أحمد: ١٨، ٦٩، ١٢٢، ١٤٠
حريري، فرنسو: ١٠، ١٨، ١٠٢، ١١٠، ١٢٢، ١٤١، ١٤٣، ١٥٠، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣
حسن پور، أمير: ٥٢
الحسني، عبدالرزاق: ٤٨، ٥٠، ٥٤، ٥٧، ٧٢، ٧٤
حسين، صدام: ٩٤، ٩٩، ١٢٣، ١٢٤، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٥٣، ١٦١
حسين، د. فؤاد: ١٢٨

الحفيد، الشيخ لطيف: ٧٠
الحفيد، الشيخ محمود: ٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥٤، ٥٦، ٦٦، ٧٠، ٧٨
حلمي، رفيق: ٥٤
حمه آغا عبدالرحمن: ٦٨
حمدون، نزار: ١٥٩
حمدي، علي: ٦٩
حمدي، وليد: ٤٣، ٥٢، ٥٣
الحوراني، أكرم: ١١٣
حويزي، العقيد بكر عبدالكريم: ٧٨
الحيدري، صالح: ٦٩

خ

خروشوف، نيكيتا: ٨٦
خصباك، شاكر: ٢١
الخميني، آية الله روح الله: ١٥٣
خندان، شريف باشا: ٤٦
خوشناو، مصطفى: ٧٨
خوشوي، أسعد: ٨١
خوشوي، خليل: ٥٨، ٦٦

د

دارتاش، فريدون: ١٦٤
الداغستاني، الفريق محمد فاضل: ٣٩
دزهيى، محسن: ١٨، ١٠٣، ١٢٥، ١٤٥
الدملوجي، صديق: ٣١، ٣٧، ٣٩، ٤٥
دهلوي، الشيخ عبيدالله: ٣٠

دينجكه: ٨٢

ر

راندل، جوناثان: ٩٧، ٩٨، ١٤٠، ١٦٢
رفسنجاني، علي أكبر هاشمي: ١٦٦، ١٦٧
روژبياني، يونس: ١٧٣
روزفلت، آرتشي: ٧٧، ١٠٩

ز، ژ

زند، كريم: ١٠٨
زنگنه، عبدالمجيد عبدالحميد: ١٢٨

س

سافراستيان، آرشاك: ٢٢
سالم، جوهر نامق: ١٤٣، ١٤٥
سبعاوي، يونس: ١٠٧
سجادي، علاءالدين: ٥٩، ٦٦
السراج، عبدالجميد: ٨٤
سرگلو، الشيخ عزيز: ١٤٣
سعيد علي (الشيخ): ٤٣
السعيد، نوري: ٥٧، ٧٢، ٧٣
سكوت (الكابتن): ٤٧
سلكليت، بيتر: ٤٢، ٤٣
سلكليت، فاروق: ٤٢، ٤٣
سليمان بك، عزت: ١١٩، ١٧٢
سنجاري، علي: ٩٢، ١٤٤

سنجاري، كريم: ١٤٣، ١٤٥

ش

شاكلي، فرهاد: ١٠
شاويس، نوري: ٦٨، ٧٥، ١٢٥
شكاك، إسماعيل آغا (سمكو): ٤٢، ٤٤، ٦٦، ١١١
شكر، زهير: ٩٥
شورش، سامي: ٨٦
شيخ يزدين، شوكت: ٧٩، ١٧٠، ١٧١

ص

صاحبقران، سالم: ٣٢
صالح، عبدالرحمن: ١٤٣
صباغ، صلاح الدين: ١٠٧

ط

طالب، ناجي: ١١٧
طالبـــاني، جـــلال: ٩٠، ٩٥، ١١٣، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠
طالباني، مكرم: ٦٨
طاهري، أمير: ١٣٥
طه، نوري أحمد: ٧٨
طيفور، عارف: ١٤٣، ١٧٢

ع

عارف، عبدالرحمن: ٩٣، ١٢١
عارف، عبدالسلام: ٩٢، ٩٣، ١١٩

عارف، فؤاد: ٥٨، ٥٩، ٧٦، ٨٥، ١١١
عبدالإله (الوصي): ٧٢، ٧٣، ٧٤
عبدالباقي، مرتضى: ١٢٣، ١٢٤
عبدالجبار، فالح: ٤٣
عبدالحميد الثاني، السلطان: ٢٦
عبدالرحمن، سامي: ١٢١، ١٢٥، ١٤٣، ١٤٥، ١٧٠
عبدالرحمن النقيب: ٧٨
عبدالعزيز، عزت: ٧٨
عبدالقادر، رشيد: ٦٩
عبدالكريم، خيرالله: ٧٨
عبدالله، حمزة: ٧٨، ٧٩، ١١٣
عبدالناصر، جمال: ٨٣، ٨٤، ١١٣، ١١٤
عبود، حسن (اللواء): ٨٩
عثمان، دكتور محمود: ١٨، ٩٦، ٩٧، ١١٢، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٤، ١٤٥
عرابي، أحمد: ٣٣
عرفات، ياسر: ١٥١
العزاوي، عباس: ٢١
عزيز، طارق: ١٦٣
عزيز، قادر: ١٧٠
العقيلي، عبدالعزيز: ١١٧
عيسى، محمد: ١١٧، ١٣٤

غ

غريب، أدمون: ٩٦

ف، ڤ

فتح الله، جرجيس: ١٤، ١٨، ٢٣، ٧٩، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٠، ١٤٢

فندي، عبدالكريم: ٨٩، ٩٥

فيصل الأول (الملك): ٥٣، ٥٧

ق

قاسم، عبدالكريم: ١٥، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩١، ١١٣، ١١٤، ١١٥

قاسملو، عبدالرحمن: ١٤٩، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٦١، ١٦٢

قدسي، محمد: ٧٨

ك، گ

كاتلوف، ل.ن.: ٤٧

گاداني، جليل: ١٠٩

كارولان، توماس: ٩٨

كالياند، جيرارد: ٧٧

كردي، قادر بگ: ٣٢

كركوكي، د، كمال: ١٤٣

كرم، د. عبدالواحد: ٤٧

كريم، حبيب محمد: ٩٤، ١٢٦

الكواكبي، عدالرحمن: ٣٣

گونتر، مايكل: ٥٥، ١٥٤

كيسنجر، هنري: ٩٩، ١٣٢

گيلاني، الشيخ عبدالله: ١١٠

ل

لونگريك، ستيفن: ٣٠

م

ماكداول، ديفد: ٣١، ٩٦، ٩٩، ١٦٢

مامند، رسول: ١٥٥، ١٧٠

سيد مجيد، دلير: ١٦٤

محمد أمين، عبدالقادر: ١٢٣

محمد، عزيز: ٦٤

محمد، قاضي: ١٠٩، ١١١

محمد كريم، د. جعفر: ٦٩

د. مصدق: ٨٥

مصطفى، آزاد: ١٧٠

مصطفى، شكور: ٣٥

مصطفى، ماجد: ٧٢

معصوم، فؤاد: ١٦٤

مفتي، شمس الدين: ١٨، ١١٣، ١١٥، ١٢٢، ١٢٦، ١٤٤

موريس، رينيه: ١٤، ٧٩، ٨١، ٩٠، ١٠٠، ١١٧، ١٢٠، ١٢١

موكرياني، حسين حزني: ٥٧

موكرياني، هَژار: ٢١

ميراني، فاضل: ١٤٣، ١٦٧، ١٧٢

ميرگەسوري، فاخر: ١١٩

ن

نالي، ملا خضر: ٣٢

نجف قولي بسيان: ٧٩

نزان، كندال: ٢٦

نصيري، نعمةالله: ١٤٥

النقشبندي، مولانا خالد: ٢٨، ٣٠

نهري، سيد طه: ٢٨، ٤٢

نهري، الشيخ عبيدالله: ٢٧، ٣٣

النودهي، الشيخ معروف: ٣٢
نوفونتي، أنطوني: ٨١
نيكسون، ريتشارد: ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٣٢
نيكيتين، فاسيلي: ٣٧
نيوتن، ديفد: ١٥٩

هـ

الهاشمي، طه: ٥١
هاملتون، أركيبالد ماين: ٧١، ٩٠، ١١٧
هركي، سيسو دري: ١٤٣
هورامي، نادر: ١٥٥، ١٧١
هيرو، ديليپ: ٥٧، ١٦٥
هيلمز، ريتشارد: ١٣٢

و

وانلي، عصمت شريف: ٤٧
وهاب محمد آغا: ٧٨
ويگرام، دبليو. أي.: ٢٢، ٢٣، ٣٧، ٤٠، ٤١

ي

ياسين، باقر: ١٤٣، ١٤٤
يوسف بك: ٤٧
يوسف، يوسف القس حنا (أبو حكمت): ١٦٤
اليوسفي، صالح: ١٢٥
يونس، نافع: ٦٩